

دفتر الجرد رقم ١٠٧٠

تاريخ دول العرب والاسلام

تأليف

محمد طلعت حرب

مدير قلم قضايا الدائرة السنية وأحد أعضاء الجمعية
الجغرافية الخديوية

الجزء الاول

في تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الاسلام
حتى دولة الخلفاء الراشدين

اطلع عليه حضرة الفاضل اسماعيل بك رافت مدرس الجغرافيا
والتاريخ بالمدارس الاميرية وبالاظهر الشريف

مكتبة الأميرة فريال
بمصر الجديدة

(جميع الحقوق محفوظة للمؤلف)

الرقم العام ٢٧٦٨

الرقم الخاص ٦٠٨

الطبعة الثانية

تفحت وزيد عليها زيادات كثيرة مفيدة

مطبعة جريدة ترك بالقاهرة بشارع قوله نمرة ١٧

سنة ١٣٢٣ هجرية — ١٩٠٥ ميلادية

جمعية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وآله اجمعين

وبعد فاني احمد الله ان وفقني الى جمع تاريخ دول العرب
والاسلام واقدرني على طبع جزئه الاول من نحو سبع سنين
وكنت وقفت عن طبع باقي الاجزاء لاسير رغبات الناس
في اقتناء اسفار التواريخ ومحبة الاطلاع على الحقائق
وقد ظهر لي ان نشئ الامة المصرية ونابذة محبي اللغة العربية
والامة الاسلامية نشئ حتى له شغف بالوقوف على التواريخ

الصادقة وولع بالعلوم القديمة والحديثة فاقدت على اعادة طبع ذلك الجزء بعد ان نفذ كل ما عندي منه ووردت على الرسائل من الاصدقاء والمحبين بطلب ذلك ونقحت في الكتاب مواضع كثيرة وزدت فيه زيادات متممة لفوائده واستخبرت الله في تمثيله للطبع مع دقة التصحيح حسب الامكان وسأتبع هذا الجزء بباقي الاجزاء اسعافاً للطالين واجابة للراغبين سائلاً واهب القدر والقوى أن يوفقني لتحقيق أمنية حضرة استاذي وصديق الفاضل حفني بك ناصف في خطاب ارسله الى فكان من أقوى البواعث على التشمير للعمل وبعث روح الامل . اما الخطاب فهو :

قال حفظه الله ؟

صديق الوفي محمد طلعت حرب (بك)

تطاولت الايام . وتصرمت الاعوام . دون اتمام . كتاب دول العرب والاسلام . ولو كنت تعلم ما عند الطلاب . من الارتقاب . لظهور باقى الكتاب . لخففت عنهم الم الانتظار . وقصرت عليهم مدى الاضطراب . وانجزت الوعود . وبرزت

باقى الكتاب الى الوجود . ولم تكن هذه الرقى لقلة من
 كتب . فى تاريخ العرب . بل لابنك جمعت فى اوراق قليلة .
 ما تفرق فى اسفار جليلة . واقتصرت على الباب . وانتصرت
 للصواب . وسهلت على الباحث . تناول المباحث . كما رأينا .
 فى الجزء الذى قرأناه . والكتاب كما قيل يعرف من عنوانه .
 والمرء باصغريه قلبه ولسانه . ولقد تخطف الناس الجزء الاول
 اثر ظهوره . واصبحوا الآن ينشدونه فلا يجدونه لندوره .
 فايقت انك اخلاصت النية فى تأليفه . ولم تقصد غير وجه الله
 فى جمعه وترصيفه . ولم يشب جمعه وطبعه . رياء ولا سمعه .
 وكم طلب الى طالب ان استنهض همته . واشحذ عزيمته .
 لاتمام الجمع . واعادة الطبع . وابرار الكتاب دفعة واحدة .
 وادناء جناه لمتطف الفائدة . فلم أربدا من مكاشفتك باماني
 الطلاب . وسؤالك اتمام هذا الكتاب . فليس فى عيوب
 الانام . كنهة قص القادرين على التمام . وانت تعلم ان التاريخ صربى
 النفوس ومهذب الاخلاق ومشذب الطباع . وحاجة الارواح
 اليه حاجة الجسوم الى الاغذية . وذوى الادواء الى الادوية

وقد تهافت على التأليف فيه . كثير من غير عارفيه . فخلطوا
 وخبطوا . وصعدوا وهبطوا . وكم من حوادث تراها اليوم
 بعينيك . وتسمها باذنك . تذهب فيها الكتاب المذهب .
 وتأتي في حكايتها بالغرائب . والتاريخ مزلة الاقلام . بل مزلة
 الاقدام . فيحتاج الكاتب فيه الى قوة تمحيص . وقدرة على
 التلخيص والتخليص . ومتانة في التصحيح . ومكانة في التعديل
 والتجريح . وبعد عن التشيع والغواية . وثبت في النقل
 والرواية . ونفرة عن الكذب والاختلاق . ووفرة من
 تهذيب الاخلاق . وكل هذه الشرائط متوفرة والحمد لله لديك .
 وتحقيق امانى الطلاب سهل عليك . فشمر الساعد للعمل . واربا
 بنفسك ان ترعى مع الحمل . وفقك الله . الى ما يحبه ويرضاه»

صديقك

حفي ناصف

مقدمة الطبعة الاولى



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خيرة النبيين
 وخلاصة الهادين المنزل عليه في محكم الكتاب المبين (وكلا
 نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في
 هذه الحق وموعظة وذكري للمؤمنين)

وبعد فان الواجب على كل فرد من أفراد الامة أن
 يقوم بما يعود عليها بالنفع العميم والفضل الجسيم وأن يهدي
 الى أفراد أمتة من معلوماته ما يمتد فيه الخير والمنفعة لحالها
 وما لها بقدر ما تصل اليه يد الامكان ويساعد عليه الزمان
 ولو كان من طفيف المتاع

ولما كان علم التاريخ من أنفس العلوم قدرا وأجلها شأنًا
 وذكر أمدحه عقلاء الشرق وحافظ على مطالعته نهاء الغرب
 وحثت عليه أعظم الحكماء في كل وقت وبين كل أمة اذ هو
 نور الحقيقة ومصباح الهداية ومرشد الخلف لآحوال السلف

ومدرسة جامعة تقوم الاخلاق والآداب وتشرف عتول
أولى الالباب وقد بلغ من مزيته وفضله أن كل أمة شغفت
بمطالعة وأكثرت من التتقيب في زواياه واطهار خباياه
نالت من السعادة قدراً مجيداً ومن السؤدد شأواً بعيداً كما
هو ظاهر للعيان ولا يختلف فيه اثنان ومن الأدلة على
ذلك أن أوروبا وهي القابضة على صولجان المدنية الحاضرة
يشتمل كثير من علماءها وفلاسفتها بالتأليف في هذا الفن
الجليل وقد بلغ من اعتنائهم بذلك وتقريبهم هذا العلم من
أفهام العامة أن جعلوه في قالب الروايات والاقاصيص حتى
يسهل على الكل ادراك مغزاه وفهم مؤداه فيعرفون أسباب
الترقى والنجاح فيأخذون بها وتشخص أمام أعينهم عوامل
التفهم والانحطاط فيفرون منها ولحسن ظني بتطلع جمهورنا
الى اقتناء فوائد التاريخ واحتياجهم في هذا الزمن الى معرفة
حالة الاسبتين وما كانوا عليه من عرب وعجم وعشائر وأمم
ظننت في نفسى المقدرة — اعتماداً على سجايهم وإن كانت
بضاعتى في ذلك مزجاة — على أن أضع في هذا الباب تأليفاً

مختصراً شاملاً بعد أن راجعت أصحاب الدراية في هذا الشأن وعرضت عليهم ما كتبته واقتطعته من أشهر المؤلفات القديمة والحديثة بين عربية وأعجمية وسميته (تاريخ دول العرب والاسلام) وقسمته الى أربعة أجزاء * الاول في تاريخ العرب وما كانوا عليه وتصاريف أحوالهم قبل الاسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين * والثاني يتبدى بدولة الخلفاء الراشدين وينتهي بسقوط بغداد * والثالث في الدول التي انشقت من بني العباس ودول الاسلام بالاندلس * والرابع في تاريخ الدولة العثمانية

وقد راعيت في هذا المؤلف ذكر احوال الدول وما كانت عليه بعبارة سلسة وجيزة واستنباطات مفيدة تكميلاً للفائدة وقد ذكرت في أوائل الدول الكبيرة بعض ملحوظات بيان ما كان عليه العالم وقت ظهور تلك الدولة ليكون المطلع على بصيرة ولا تضل فكرته في استنتاج الاسباب التي أدت الى ضعف تلك الدولة أو ارتفاعها أو تأخرها أو غير ذلك وليتمكن من المقارنة بين أحوال تلك الدول الغابرة وأحوال الدول

الحاضرة فتحصل له ملكة التاريخ ونعمت المنفعة منفعته التي
أهمها اعتبار الحاضرين بما كان للسالفين
والله المسئول أن يجعل عملنا هذا مقرونا بالنجاح انه
نعم المحييب

هذا والمأمول ممن يطلع على هذا المؤلف أن يفض الطرف
عما يجده فيه من الهفوات أو الابهام ويسبل عليه ستار العفو
لان اشتغالي بوظيفتي ربما عاقني عن استتباع الاخبار واستتاج
النتائج كما يطلبه المتبحرون في هذا العلم فقد يكتبو الجواد ويفوت
المرء السداد والله ولي التوفيق

محمد طلعت

شعبان سنة ١٣١٥

حرب

(تمهيد)

« حدود بلاد العرب — مواطن العرب وحاصلات بلادهم ومناخها — مساحتها وعدد سكانها — تشوف الافرنج الى بلاد العرب وذكر أشهر سياحهم بها »

قبل أن نرعى للقلم العنان في تاريخ الامة العربية نذكر أشهر المواطن التي كانت تقيم فيها محمدين لها من جهاتها الاربع بوصفها الطبيعي من حيث الجبال والنبات وجودة المناخ الى غير ذلك ثم نذكر أصول القبائل ومواطنها الشهيرة وما كانت عليه حالها وحال الامم المجاورة لها فتقول

حدود بلاد العرب — بلاد العرب وتسمى جزيرة العرب هي قطعة أرض متسعة الارحاء مستطيلة الهيئة كثيرة الجبال والسهول والصحارى وهي في الجنوب الغربي من آسيا محصورة بين البحر الاحمر وبلاد الشام والعراق وخليج الفارسي وخليج عمان والمحيط الهندي وخليج عدن وبموقعها هذا تكون أقرب البلدان اليها بلاد الحبشة والسودان ومصر وتنفصل عنها بالبحر الاحمر ثم الاقطار الشامية والعراق وهي متصلة بها وبلاد العجم وهي منفصلة

عنها بالخليج الفارسي ويتوصل منها لبلاد الهند بجزاً بواسطة المحيط الهندي

مواطن العرب وما صدرت به ردهم ومناظرها

قد قسم علماء الجغرافيا بلاد العرب الحقيقية الى ثمانية أقاليم حسب طبيعة أراضيها وهي الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة وعمان والاحساء المسمى أيضاً بالبحرين ونجد والاحقاف (الاول) إقليم الحجاز — موقعه في الغرب من بلاد العرب ويمتد على ساحل البحر الاحمر ومن مدنه مكة المشرفة المسماة أيضاً بمكة وام القرى وهي فاران المذكورة في التوراة (١) وبها بيت الله الحرام الذي فرض الله حجه على كل مسلم استطاع اليه سبيلاً وهو أول بيت وضع للناس كانت تؤمه الوفود من قديم الزمان للحج والعبادة ومن أماكن مكة الشهيرة في مناسك الحج الصفا والمروة ومنى وجبل عرفات والمزدلفة والمشعر الحرام

(١) فاران اسم لجبال بمكة وسميت مكة به أيضاً ومذكور في التوراة أنه سيخرج من فاران نبي وهذا تصديق لنبوّة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

ومن مدن هذا الاقليم أيضاً المدينة وكان اسمها قبل
هجرة النبي صلى الله عليه وسلم يثرب فبدله بطيبة كراهة
فى التشريب الذى هو العتب واللوم وبها مقامه الشريف

وتصل لهاتين المدينتين الارزاق من مدن أخرى لعدم
خصوبة أراضيها فتستمد مكة أرزاقها من جدة التى هى فرضتها
على البحر الاحمر وتستمد المدينة من ينبع المعروفة بينبع البحر
ويوجد بوسط هذا الاقليم كشبان وآكام تلبت المراعى
وهى مساكن القبائل وحوالها قرى وضياع وفى تلك الآكام
قلاع يلجئون اليها عند هجوم الاعداء وبمنحدراتها بعض
حبوب وثمار وكلالل مواشى وعيون ماء . وبقرب احدى تلك
الآكام مدينة الطائف وهى بستان مكة ومصيف أغنياء أهلها
ولفوا كهها شهرة ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب وأطبيها
ماء بئر زمزم

ويلحق بالحجاز أرض تهامة وهى البلاد الممتدة من سفح
الجليل الى البحر الاحمر وعلماء الجغرافيا لا يطلون تهامة الا
على الساحل لمقابلته بنجد الذى معناه المحل المرتفع ولذلك

سمى الحجاز حجازاً لوقوعه حجازاً بين تهامة ونجد . ويسمون أيضاً تهامة (الغور)

(الثاني) اقليم اليمن — سمي بذلك ليمنه وبركته ولذا

سماه قدماء المؤرخين وعلماء الفرنج « بلاد العرب السعيدة »
أو ذات اليمن وقيل سمي بذلك لكونه على يمين الكعبة
وقيل غير ذلك . وهو بالجزء الجنوبي من جزيرة العرب في
شمال بلاد العسير أهل من قديم بالعمران ومتوفرة فيه
الحضارة وسكانه يسمون عند القدماء بنى حمير خالطوا المصريين
والاثيوبيين والفرس وجميع الامم التي تسافر في بحر الهند
فانتظمت حكومتهم من عهد بعيد ولهذا الاختلاط ووفرة
خيرات هذه البلاد تطلع لها الاجانب من الفرس والروم
والحبشة فأغاروا عليها في أزمنة مختلفة حتى انها في زمننا هذا لم
تسلم من أطاع الاجانب فقد احتل الانكليز بلادا منها
كعدن واتخذوها مرفأً لسفنهم الجارية بين الشرق والغرب
وفي كل يوم نسمع بثورة جديدة وقتنة عظيمة تدبرها
يد أجنبية وتذكي نارها دولة اوربية . وبينما نحن نكتب هذه

السطور الآن سنة ١٩٠٥ ترى الخلاف قائماً بين الدولة العثمانية والحكومة الانكليزية على تحديد منطقة نفوذ كل منهما فيما وراء عدن والثورة مستعرة نارها بين الجنود العثمانية واهالي اليمن الذين يحاصرون الجنود في صنعاء لطف الله بالخال (١) ومن مدن هذا الاقليم مخا والحديدة وصنعاء التي بقربها أطلال

(١) كتبت جريدة الاوروبيان التي تصدر في باريس مقالة بعنوان اللورد كورزون ضد الباب العالي جاء فيها ما مؤداه :
 « لايزال اللورد كورزون حاكم الهند يلح في طلب توسيع منطقة الاملاك الانكليزية في عدن . وغرضه من ذلك وضع يده على الطرق الداخلية في بلاد العرب والاستيلاء على ثغر « شيخ سعيد » العديم المثال . ولايزال جلالة السلطان يرفض اجابة انكلترا الى طلبها بكل قوة وشدة . فلما عيل صبر هذه الدولة أمرت أحد المالين من أبناءها بان يشتري مافوق ثغر « شيخ سعيد » من الاراضي بحيث صارت الجنود التركية المحتلة له في معزل عن بقية الجهات . وقد كانت « شيخ سعيد » من نحو عشرين علما تحت رحمة فرنسا فأهملها الضباط الفرنسيون واستولى عليها جلالة السلطان في الحال وطمعت فيها انكلترا الآن

وفضلا عن ذلك فان أميراً عربياً « ابن سعود » قام يحارب سلطة جلالة السلطان في نجد ويحاصر « صنعاء » . وفي كل حركة

مأرب وسبأ المذكورة في القرآن الكريم .

وبمدينة مأرب وجدت الآثار المنقوشة على الصخور
 بالخط المسند الحميري الذي حين حلت رموزه وقف المتأخرون
 بعض الشيء على تاريخ هذه البلاد. وصنعاء المذكورة هي المنافسة
 لمكة من عدة قرون في التلقب بعاصمة جزيرة العرب ولذا اتخذها
 التبابعة ومن خلفهم عليها من عمال الفرس والحشة دار إقامة
 وهي الآن مقر أقوى أمراء اليمن شوكة وبها دار واليها
 واشتهرت بقبرها نجران وكان بها قبة عظيمة تسمى بكعبة
 نجران بناها عبد المسيح بن داوس بن عدى أحد أمراء اليمن
 في الزمن الأول من انتشار النصرانية بتلك الأرجاء وكان اذا
 نزل بها مستجير أجير او خائف أمن أو جائع أشبع أو طالب
 حاجة قضيت . وكانت العرب تقصد زيارتها كما تقصد زيارة
 كعبة بيت الله الحرام بمكة .

نورية في نجد أو في اليمن يجد الانسان ايدي الانكليز عاملة طلبا
 لمآربهم من العالم الاسلامي . وان الجهات البريطانية تعمل في تلك
 الجهات النائية عملا كبيرا كما عملت في الكويت »

انظر العدد الثاني من جريدة العالم الاسلامي الصادر في ١٧ مارس سنة ١٩٠٥

ولبلاد اقليم اليمن شهرة عظيمة بزراعة البن وتجارته فينسب اليه فيقال بن مخا وبن عدن الخ ويملك الانكليز على ساحل بلاد اليمن مدينة عدن كما أسلفنا لكونها في طريق الهند ثم جزيرة قران بالقرب من الساحل الغربى لبلاد اليمن على البحر الاحمر ثم جزيرة بريم في بوغاز باب المندب ولا تخفى أهمية مراكز هذه الجهات لدولة تريد ان تكون سيدة البحار وان يكون بيدها مناتيج بلاد العجم والعرب والهند والسند

الثالث — اقليم حضرموت — وهو واقع في ساحل بحر الهند في شرق اليمن ومتصل به ومشابه له في المناخ والمزايا الطبيعية ومنه العود القاتلى ومن مدنه ظفار وشيخان

الرابع — اقليم مهران — واقع شرقي حضرموت وهو وان كان متصلا به الا أنه أقل منه خصوبة ولذلك استمد سكانه وسائل تعيشهم من البلاد الاخرى والبحر عندهم كثير السمك يقتاتون به هم ومواشيهم واليه تنسب الابل المهرية

الخامس — اقليم عمان او سحر عمان — وهو متصل بالخليج الفارسي وخليج عمان والمحيط الهندي وباقليم مهران

وهو تجاه الهند وبه قليل من النحاس والرصاص والبقول
والتمر ولقطة حاصلاته حرم من المظهر التجارى ولم تجلب اليه
تجارة الهند لعدم وجود شئ فيه يصلح للتبادل ومن مدن
هذا الاقليم مستط وصحار .

السادس — اقليم الامساء — ويسمى أيضاً بالبحرين
لوقوعه على بحرى عمان والفرس . وجزائر هذه الجهة مشهورة
بمغاص اللؤلؤ وقيل ان السفن المشغلة بالغوص عليه فى موسمه
تبلغ الستة آلاف سفينة وأن عدد الاشخاص الذين يشتغلون
بذلك نحو سبعين ألف غواص وأن قيمة ما يستخرج من
اللؤلؤ فى السنة يساوى ١٢ مليوناً ونصفاً من الفرنكات . (١)
ولا يرى هذا الاقليم أهلاً بالناس الا فى فصل غوص البحر
فترى الناس يفدون اليه أفواجا من كل صوب حتى اذا
أخرجوا اللؤلؤ قفلوا راجعين بمتاجرهم الى أسواق الهند وبلاد
الفرس وغيرها ويصبح الاقليم قاعاً صافياً . وأشهر مدن هذا
الاقليم الهفوف والقطيف على بحر عمان . ولحمير هذا الاقليم شهرة

(١) هذا التقدير كان من سنوات ولا بد وان يكون قد زاد الآن عن ذلك كثيرا

ولموضع هذا الاقليم الجغرافى ولتجارة اللؤلؤ الذي
يستخرج منه طمع فيه الاجانب واصبحت جزائر البحرين
القائمة فى وسط هذه السواحل ملك الهند الانكليزية !!

السابع - اقليم نجد - وهو فى جنوب صحارى الشام
شاغل جميع الجزء الاوسط من جزيرة العرب وهو ما بين
الحجاز والاحساء والاحقاف الذى كان به مدينة هجر وأغلبه
هضاب رملية ويتصل ببلاد العراق شرقاً

وبه كثير من الواحات التى تنبت الكلاً والنباتات
النفيسة مثل العرار - وهو النرجس البرى - والشيخ والقيصوم
وبه أرض العالية التى حماها كليب بن ربيعة وأفضى ذلك
الى قتله وانتشابه حرب البسوس كما سيحى

وخيل هذا الاقليم وابله شهرة فائقة وكانت العرب
تسميه بلاد الابل ومن مدنه مدينة الرياض وهى عاصمة
الوهابيين الذين سنتكلم عليهم فيما بعد

الثامن - اقليم الاحقاف - هو صحراء مقفرة فى قلب
جزيرة العرب تلحق به فى بعض الكتب أرض اليمامة وحاله

مجهول وهو واقع بين عمان والاحساء ونجد وحضر موت ومهرة

ويخترق بلاد العرب كما قدمنا في معظم جهاتها جبال
وهضاب كثيرة وصحار واسعة أشهرها صحراء الاحقاف
وصحراء النفود جوة الشمال والربع الخالي جهة الجنوب ولا
يعلم بها بحيرات ولا أنهار ولكن فيها شئ من الجداول والعيون
والابار وهي شهيرة بنباتاتها الثمينة العطرية ومن محصولاتها البن
والزيتون والتمر وكثير من الفواكه والمشروبات وبها كثير
من الحيوانات المستأنسة والوحوش الكاسرة ولظباؤها وحيرها
وخيوها وابلاها شهرة عظيمة وبها كثير من الطيور والحشرات
ومناخ هذه البلاد حار على الوجه العام معتدل فوق النجود

العالية حيث تكثر النباتات والمياه
وقد بدى من بضع سنوات في مدسكة حديدية تصل الشام
بهذه البلاد ولا تخفى اهميتها الاقتصادية والعسكرية والدينية فتسهل
الحج على المسلمين كما تسهل وسائل الدفاع عن البلاد وكبح جماح
الثائرين . وقد تم جزء عظيم من هذا الخط وافتتح رسميا من شهور

مساحة جزيرة العرب وعدد سكانها — قد اختلفت
 أقوال الجغرافيين في مقدار مساحتها فبعضهم قال انها نحو ١٢٦
 ألف فرسخ مربع أى ضعف مسطح بلاد فرنسا وقال البعض
 الآخر ان مساحة بلاد العرب أكثر من مساحة بلاد فرنسا
 بنحو خمس مرات وقال آخرون انها أكبر منها بست مرات (١)
 كما اختلفت أيضاً أقوالهم في مقدار عدد سكانها فمن قائل
 انها تبلغ اثني عشر مليوناً من النفوس وقائل بنصف ذلك
 وقائل انها تبلغ ثمانية ملايين منها خمسة خاضعة لحكم الدولة
 العلية وهى فى الحجاز واليمن والاحساء والباقي مستقل يحكمه

(١) مساحة القطر المصرى نحو ٦٠٠ الف كيلو مترا مربعا
 بما فيه الصحارى أى نحو ١٥٠ مليون فدان ومن غير الصحارى نحو
 ٢٦ ألف كيلو مترا مربعا أى نحو ٦١٥٨٠٧٧ فداناً ومساحة بلاد
 فرنسا كيلو مترا ٥٣٧ ألف كيلو مترا مربعا ومساحة انكلترا ٣١٥
 ألف كيلو مترا مربعا ومساحة جزيرة العرب ٢٥٠٧٤٠٠ كيلو مترا
 حسب قول ايليزه ريكلى Elisée Reclus و ٢٨٥٠٠٠٠ كيلو مترا
 كما جاء بدائرة المعارف الفرنسية و ٣١٠٠٠٠٠ حسب قول الجغرافى شرادر
 و ٢٧٠٠٠٠٠ كيلو مترا حسب كتاب التحفة الازهرية لحضرة
 اسماعيل افندى على .

أئمة من العرب في نجد وتهامة واليمامة ومستقط رعمان
وحضر موت

ولعمر الحق ما هذا الاختلاف بالامر الغريب لتعلقه
ببلاد قلما دخلها اوربي او عالم اجنبي لشدة حرارتها ووعورة
مسالكها وجهل لغات اهلها وعوائدهم وتسميهم بدينهم
وشدة ابائهم دخول الاجنبي بلادهم

نصف الافرنج الى بلاد العرب وذكر اشهر سبائهم بها
من تصفح كتب الغربيين علم انهم متطاعون من زمن
غير قريب اعرفه تلك البلاد طامعون فيها متشوفون للوقوف
على حقيقة احوالها حيث لم تشف غلتهم ما ذكره عن بعضها
جماعة من مؤرخي اليونان والروم الاقدمين مما لا يخلو من
النقص في مواضع والحشو والرجم بالغيب في غيرها. ولا يخفى
على القارئ اللبيب دواعي هذه الاطماع فلكل دين وطباع
وعوائد وتجارة وصوالح يمتنى ان تسود على ما سواها وان
يتلاشى ما عداها ولنا في خروج أمير الكويت الآن عن
طاعة السلطان وتسابق الدول لبسط نفوذها على تلك البلاد

وقيام الفتنة في اليمن وتوسيع الخرق بين مبارك بن الصباح شيخ الكويت وابن سعود وابن رشيد وغيرهم اعظم عبرة لمن يعتبر ومن اراد ان يعرف ما وصلت اليه الحال هناك فليقرأ ما كتبه المسيو الكسندر أولار الكاتب الفرنسي الشهير من ضمن مقالة نشرتها المجلة الفرنسية في عددها الصادر في اول فبراير سنة ١٩٠٥ الى « الهندو المنافسة بين انكترالروسيا » وعربتها عنها جريدة العالم الاسلامي في عددها الاول الصادر في ١٠ مارس سنة ١٩٠٥ . قال :

« ان الحوادث الجارية في قلب بلاد العرب تخدم السياسة البريطانية أكثر مما يقع في سواحل البحر الاحمر . فما لا يجوله القراء أن في نجد بجنوب البلاد العربية حزبا كبيرا اسمه « الوهابيون » قام من منتصف القرن الثامن عشر بتأسيس أماره مستقلة حاربتها تركيا وقبائل شمال العرب وقد تحالف أولئك الوهابيون من مدة مع شيخ الكويت لينالوا بواسطته الاساحة اللازمة لهم من الخليج الفارسي . ولما أعلن مشروع سكة حديد بغداد في عام ١٩٠١ وصرح بأن

في النية جعل الكويت آخر محطة له استولت انكثرا بغتة
 على هذه النقطة المهمة . وأخذت الحادثة دورا كبيرا واضطر
 الانكليز للانسحاب . ولكنهم منحوا الشيخ مبارك امتيازات
 جعلته يرضى بالسيادة البريطانية ويقاوم مولاه التركي وانتهى
 الحال بان قبل في صيف عام ١٩٠٤ اقامة معتمد انكليزي في
 بلاده . وهو لا يزال بها وسيبقى الى الابد . فبإرادة الصباح
 بمحالفته لابن سعود صار آلة الهند الانكليزية ضد حلفاء
 جلالة السلطان من العرب والبدو . وقد قام زعيمهم ابن
 الرشيد بمحاربة ابن سعود حتى نفذت ذخائر الفريقين وانتهكت
 الحرب تواهما . وكانت الحرب بينهما حربا بين انكثرا والروسيا
 في الحقيقة ! وبما كان الرهايون يأخذون ما محتاجون اليه
 من الاسلحة من الكويت كان ابن الرشيد واصحابه يأخذون
 بطرق لا يعرفها احد متذوفات روسية ! ! وقد كان النصر
 في آخر الامر للوهابيين واضطر محاربوهم لان يخلوا من شهر
 أغسطس الماضي البلاد العربية ويقيموا في جنوب نهر الزرات
 وبذلك تغلبت انكثرا على جلالتى السلطان واليهصر مجتمعين

ومن المؤكد ان العلائق ليست بوطيدة بين الهند الانكليزية والوهابيين . ولكن مبارك الصباح يتكفل بتقويتها . وعلى كل حال فان اميالهم خليفهم البعيد محقة . وهذه النتيجة كافية لانها تسمح للانكليز متى سنحت الفرصة بان يضيئوا الى الخطوط التي ذكرناها قبلا خطأ جديداً خطير الشأن يمتد من بورسعيد الى الخليج الفارسي مخترقاً اراضي الشام....»

وقال ايضاً: « ان انكلترا تريد أن تجعل الخليج الفارسي أو « البحر الابيض للشرق الاوسط » بحيرة انكليزية . وترى في اقامة قاعدة بحرية في هذه الجهات لاية دولة اجنبية اعلان حرب عليها . ولذلك كانت مسألة الخليج الفارسي دقيقة للغاية . وقد تمكن الانكليز من توطيد سيادتهم في الكويت ومسقط . أما البلاد الواقعة بينهما فان أصحابها يتأثرون بسياسة شيخ الكويت وسلطان مسقط . وقد زاد احترامهم للانكليز من عهد زيارة اللورد كورزون^(١) للشواطئ العربية في عام ١٩٠٣

(١) حاكم عموم الهند حالا

وفضلاً عن ذلك فإن جزائر البحرين القائمة في وسط هذه السواحل هي ملك للهند الانكليزية ولكن الامر بخلاف ذلك بشأن الشواطئ الفارسية . وان مسئلتها مرتبطة تمام الارتباط بمستقبل المملكة الايرانية . وهذا المستقبل هو أهم أمر في السياسة العامة يخشى وقوع حرب بين انكلترا والروسيا بسببه »

وكان معظم اهتمام الفرنج باكتشاف تلك البلاد في القرن الماضي وجاء في كتاب الجغرافى الفرنساوى لانييه Lanier عند كلامه على بلاد العرب ان اول من باشر البحث عن هذه البلاد من الاوروبيين هو الالماني نيوبهر المشهور Niebuhr رئيس الارسالية الدانيمركية سنة ١٧٦٢ — ١٧٦٣ وكانت رحلته لبلاد اليمن لاكتشافات علمية على ما يؤكدون وبعد ذلك بنحو نصف قرن توصل الاسبانى باديا Badia بواسطة تغيير زيه واسمه ملقباً نفسه «على بك العباسى» الى مدينة مكة المكرمة وكان اتى مصر اولاً وتظاهر بالاسلام ومنها ذهب

لبلاذ العرب بالصفة السابقة في سنة ١٨٠٧ بعد ان تحصل في
 حلب على اوراق رسمية تثبت نسبته الى الاشراف
 وفي سنة ١٨١٠ ذهب الالماني سيتزن Seetzen لبلاذ
 اليمن وقتل هناك وفي سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ احتال السائح
 الانكليزي بورك هارد Burckhard حتى دخل مكة والمدينة
 ورجع مستمداً ببعض معلومات عن حالة البلاد الجغرافية
 وعن أهاليها وتظاهروا في آخر أمره بالاسلام وعليه مات
 وقبره بمصر واسمه عليه هكذا «عبدالله بوركهارد»
 ومشهور عند العامة باسم الشيخ بركات.
 ثم حمل المصريون في هذا الوقت على الوهابيين فسهلوا
 بعض التسهيل دخول الاجانب بلاد العرب فتمكن بعض
 الفرنسيين من وصف مكة والمدينة المشرفتين وضواحيهما
 وأول من اجتاز الطريق من الخليج الفارسي للبحر الاحمر كما
 ورد بكتاب لانيه المذكور هو الضابط الانكليزي سادليه
 Sadlier بأمر من حكومة الهند . والالماني رايل Rappel
 عبر بلاد الحجاز في سنة ١٨٢٦ والجهات المجاورة لخليج العقبة

وفي هذا الوقت بينما كان بعض الضباط البحريين من الانكليز
مكلفين من قبل حكومتهم بعمل خريطات لسواحل البحر
الاحمر تطرف أحدهم وهو الملازم ويلستيد Wellsted وذهب
الى بلاد عمان في سنة ١٨٢٨ وفي سنتي ١٨٣٧ و ١٨٤٢ قام
الطبيعي بوتاتا Bota والملازم Bassama باسما بماقام به من
قبل نيومهر الالماني ونجح بعض النجاح في اكتشافهما العلمية وفي
ذلك الحين زار الفرنسيان أرنو Arnaud وفولجانس فريسزل
Fulgence fresnel شواطئ بلاد العرب الغربية والقبليّة فزار
أولهما مدينة سبأ وآثار مأرب ونقل صور كتابات كثيرة
حميرية ودخل الثاني بلاد العرب وكان قنصلا لفرنسا في جدة وله
علاقة بشريف مكة محمد بن عون الذي كان يسميه « الشيخ
فريزيل » وفي ذلك الوقت ايضاً اى في سنة ١٨٤١ — ١٨٤٢
دخل الفرنسيان ليون روش Léon Roche في بلاد الحجاز
وزار المدينة ومكة المشرفتين لغاية في نفسه يريد قضاءها ونزل
على شريف مكة محمد بن عون بتوصية من فريسزل سالف
الذكر فاكرمه الشريف وخلصه من الموت الذي كاد يذوقه

من العرب حينما اكتشفوا امره وفضحه بعض الحجاج المغاربة
وقد حكى روش المذكور عن نفسه « في كتابه الذي
وضعه بالفرنساوية بعنوان عشر سنوات في الاسلام
« Dixans à travers l'Islam » انه ولد بمدينة جرينوبل
Grenoble من اعمال فرنسا سنة ١٨٠٩ ودرس الحقوق على غير
ميل منه لها ثم سافر الى بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٢ ليستقر
مع والده ارضاً بتلك الجهات التي فتحها الفرنسيون في ذلك العهد
بعضها وصادف ان لمح فتاة مغربية كانت تسكن بجانبه فعشقها
وعشقه حتى ما يقول وولع بها ولعا شديداً دعاها الى تعلم العربية
وكان الفرنسيون في ذلك العهد في هدنة مع الامير
عبد القادر الجزائري فاحتال روش على الامير ودخل في خدمته
وادعى الاسلام وحاز ثقة الامير حتى أهله بمسلمة واطلعه على كل
سرايره ودخائله واتخذ كاتبا سره حتى اذا ما قامت الحرب
بين الفرنسيين والامير فر روش الى اهله وخان الامير وكان
عينا عليه في جيش الفرنسيين وهذا جزاء من يغتر بالظواهر
ومن يستسلم لكل دخيل في الدين !!

ثم رأى الفرنسيون ان لا ترسخ لهم قدم في بلاد الجزائر
الا اذا افهموا الجزائريين أن الدين لا يمنعهم من الخضوع
للفرنساويين ومسالمتهم ماداموا هم اصحاب القوة ولا يكون
ذلك الا اذا حصلوا على فتوى من علماء المسلمين يتوكلون عليها
ويؤثرون بها في عقولهم فقام روش بهذه المهمة وجاء القيروان ومصر
وحصل من علماءهما على الفتوى المقصودة والضالة المنشودة
بطرق وحيل أَمَاط اللثام عنها في كتابه وكان للدينار وبغض
امراء المسلمين بعضهم القدح المعلى وسافر الى الحجاز ليدرك
تلك الفتوى من علماء مكة والمدينة فأكرمه الشريف كما اسلفنا
وانطلقت عليه حياته كما انطلقت على عبد القادر من قبل فلمحه
بعض المغاربة في نزولهم من جبل عرفات فعرفوا انه ذلك الخائن
الهارب فقاموا عليه وارادوا التكيل به لولا ان تدخل الشريف
نخلصه وآمنه على نفسه وجباه بنقود يستعين بها على سفره
واشخصه الى جدة ورجع منها الى بلاده مسرورا بفوزه ضاحكا
على لحي المسلمين الذين لعب على عقولهم في الشرق والغرب
ولله في خلقه شؤون !!

وفي العهد المذكور ايضاً اجتراً العالم الالماني البارون
 وريد Wrede على التوغل حتى بلاد حضرموت التي لم
 يسبقه ولم يلحظه اليها أحد من الاجانب كما قال لانيه السابق
 ذكره وفي سنة ١٨٤٥ دخل العالم الفنلندي أوجستوس والين
 Augustus wallin في الجوف وجبل شمر بزى مسلم
 واجتاز بلاد العرب من الغرب للشرق وفي سنة ١٨٥٣ رافق
 الحج المسيو ريشار برتون Richard Burton بزى مسلم ايضاً
 ووصل الى مكة والمدينة المكرمتين

وفي سنة ١٨٦٢ و ١٨٦٣ تمكن ويليام بلجراف
 William Palgrave الانكليزي من زيارة بلاد العرب من جهة
 الشام وشواطئ عمان وملخص ترجمته وقصته على ما جاء في
 الكتاب السالف الذكر هو أنه ولد بوستمنستر من أعمال انكلترا
 سنة ١٨٢٢ وكان أبوه متشرعاً ومؤرخاً انكليزياً شهيراً وتخرج
 على مدرسة أو كسفورد ثم خدم في الجيش الهندي وأقام بعدها
 عدة سنين في الشام تعلم في أنشائها العربية وتعرف ببعض الابهاء
 اليسوعيين بها ثم حدثه نفسه بالرحيل لبلاد العرب وساعده

هؤلاء الآباء على انماء هذه الفكرة وحصلوا على تعزيد نابليون الثالث امبراطور فرنسا وقتئذ له وصبغوا رحلته بصبغة دينية سياسية سرية نفقاتها دفعت من جيب الامبراطور الخاص فسافر بلجراف مؤملا الوصول الى تحريك ذلك الدم العربي الراكد حسب زعمه وتمدين بلاد العرب بواسطة تسهيله طرق اختلاطهم بالغربيين ومضمرًا انتهاز فرصة الشقاق الذي كان بين أهالي نجد لاحداث ثورة دينية سياسية عليه يستفيد منها أن يبدلوا دينهم بالدين المسيحي كما هيجس بخاطره فتزيا بزي أحد أغنياء العرب وادّعى أنه حكيم واستصحب معه بعض أهل البادية يحرسونه ومسيحيًا شاميا جعله تلميذًا له وكان يحمل معه على ظهر ركائبه بعض أدوية وعقاقير تدل على صنعة الطب التي اتقلموا لنفسه ولما وصل الى نجد أقام مدّة بالرياض عاصمة الوهابيين وكان يحكم عايلها وقتها الامير فيصل وتدكاد هذا المخاطر بنفسه يلقي منيته هناك من يد ابن هذا الامير الذي أوجس منه الخيفة وقد افتضح بعض أمره لولا ركونه الى الفرار فاجتاز النفود الشرقية وأقام بالهفوف من أعمال الاحساء

وزار القطيف وجزائر البحرين وتوجه لعمان ماراً على هرمز
ومسقط ثم قفل راجعاً الى الشام عن طريق البصرة والموصل
وماردين وديار بكر

وفي سنة ١٨٦٤ رسم الايطالى كارلو جوارمانى
Carlo Guarmani قطعة من بلاد العرب على حدود الشام ثم
ن الالماني وتيزتين Wetztein قنصل بروسيا بدمشق اذ
ذاك وضع كتاباً فى جغرافية بلاد العرب حسب ما التقطه من
أفواه بعض الحجاج ورؤساء القوافل التجارية

وفي سنتى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ ساح الالماني مالتزان De Maltzan
والسويسرى مونزنجر Munzinger والفرنساوى هالفى
Halevy منفردين بالجهة القبلية الغربية من جزيرة العرب
وحصلوا كما يقولون على بعض معلومات مهمة

وفي سنة ١٨٧٩ اجتاز الانكليزى بلونت وامرأته (١)

(١) مستعرب شهير من اغنياء انكلترا وزوجته من اعظم
عائلات الانكليز وهى حفيدة اللورد بيرون شاعرهم المشهور الذى
مات وهو يقاتل متطوعاً مع اليونان فى حربها الاولى ضد الدولة

Mr. et Mme. Anna Blunt بلاد الاردن ومنها الى
الفرات ثم وصل الى الحائل من بلاد نجد واتاما بضع شهور
عند ابن الرشيد

وفي سنة ١٨٨١ اخترق هو بر Huber صحارى بلاد العرب
البحرية والغربية ومن سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٧ جعل النملي
النساوى جلازير Glaser بلاد اليمن موضع بحثه
هذا ولا زلنا نسمع كل يوم بالجرائد وغيرها أن بعضاً
عن الفرنج قد بارح بلاده قاصداً السياحة والتروح ببلاد العرب
والله أعلم بما يضمرون وما يلاقون هناك وما يكتشفون
وكذلك كل يوم نقرأ اخبار دسيسة جديدة وفتنة حديثة ولنترك
للمستقبل كشف الستار عن هذه الاطماع ونتيجة تلك الغايات

العلية . والمستر بلونت المذكور وامراته مشهوران بزهما
العربي وولعهما بالمعيشة البدوية . وكان له شأن في الحوادث العربية
وصداقة بعربي زعيمها وله كتابات في ذلك طبعت بالانكليزية كما ان
لزوجه رحلة في نجد والبلاد التي زارها مترجمة الى الفرنسية وقد
ترجما المعلقات الى الانكليزية وفي كل عام يقضيان فصل الشتاء
يتحاهما المعروف في عين شمس بضواحي القاهرة . . .

واتماما للفائدة نثبت هنا رسالة لمكاتب جريدة «جرنال
دى سان بطرسبورج» الروسية فى البصرة عمرتها عنها جريدة
العالم الاسلامى فى عددها الثالث الصادر فى ٢٤ مارس
سنة ١٩٠٥ قال المكاتب المذكور:

« لقد علمت من اخبار الكويت انه يوجد بها ثلاثة
قناصل من الانكليز . أولهم الذى عين فى شهر اغسطس
الماضى والذى كان موظفا فى قنصلاتو انكترابوشير وثانيهم
قنصل البحرين . وثالثهم الرئيس الاكبر وهو قنصل بوشير
الذى بيده قيادة قلم المخبرات ونشر المنشورات فى دائرة
الخليج الفارسى . ومعهم بارجة حربية يشتغل بحارتها باختبار حالة
الميناء وأخذ مقاييسها . وقد وضعوا رسومات لتشييد برجين ليرفع
على كل منهما فانار . وانى لست محتاجا لان اقول ان موظفى
هذين الفئارين لا يكونون عثمانين بل يكونون انكليزا
كالقنصل ومساعديه وخدامه والطبيب والحاجب وعمال
التلغراف وعمال شركة الملاحة وبائع نسخ التوراة — ذلك
الذى لا أفهم له وجودا فى مدينة اسلامية محضة —

«وان عمل البحارة واضح وظاهر . ولكن عمل القناصل غامض . الا ان الجهات التي ترسل اليها الرسائل وأمورا أخرى دلتني على ان الحكومة الهندية الانكليزية غيرت خطتها الاولى التي كانت ترمى الى الاستفادة من الشقاق المرفوعة أعلامه فوق أهالى بلاد العرب الداخلية والانقسام السائد بين الزعيمين الكبيرين ابن الرشيد وابن سعود حيث كانت تعضد هذا الاخير الذى كان ضعيفاً ومعادياً للسلطة التركية ومحالفاً لشيخ الكويت وقد صار الآن قويا بفضل المساعدات المالية والاسلحة الحربية التي جاءته من الكويت . ويقال انه انتصر على ابن الرشيد وجمع تحت امرته كافة القبائل فى تلك الجهات وفتح بلاد الجزيرة كلها

«ولكن ابن سعود أفلح بدون مساعدة انكلترا وأخذ ١٢ مدفعا من الامدادات التركية التي أرسلت من بغداد أولا ومن المدينة ثانيا . وضمها الى المدافع الاربعة التي أعطاها انكلترا لشيخ الكويت . ويقال انه استولى كذلك على ثلاث رايات تركية أرسل من رجاله من عرضها على كافة القبائل

وأصبح بذلك في غنى عن الانكليز
«وعندئذ أخذ التناصل الانكليزي بخابرون خصمه. ولكن
نظرا لكون حكومة الهند الانكليزية ارتبطت من قبل مع
ابن سعود ارتباطا فاضحا واكون القناصل الانكليزي هم ضيوف
مبارك الصباح فقد جعلوا وجهتهم في مخبراتهم مع ابن الرشيد
عقد الصلح بينه وبين عدويه وأرسلوا اليه يقولون: «اذا قبأت
تدأخنا حفظنا لك البقية الباقية من بلادك وتركناك أميرا
على حایل وشمر الجنوبية كما كان آبائك من قبل. وجعلنا ابن
سعود اميرا على بلاد الوهابيين ومنعناه من التقدم الى الامام.
واذا دعت الحاجة تقدم لك الاسلحة والعدد لمقاومته ونحميك
حماية أفضل وأنفع من حماية سلطانك لك !»

«ولكن أهم ما في الموضوع معرفة مصلحة مبارك الصباح
فيه لان نجاح الامر مرتبط به دون سواه. فلنتظر في ذلك:
«انه لو نجحت خطة القناصل الانكليز لصارت بلاد العرب
الشرقية خاضعة للسيادة الانكليزية وكانت مؤلفة من ثلاث
امارات قواعدها «الرياض» وأميرها ابن سعود و«حایل»

وأمرها ابن الرشيد و « الكويت » وأميرها ابن الصباح .
وهذه المدائن الثلاث تحكم بلاد العرب في الحقيقة ووقعها
تحت السيطرة البريطانية يعرض سيادة الدولة العلية لخطر
جسيم . ولما كانت قوة الاتراك عظيمة في كل الثغور الا في
الكويت فان هذا الثغر يكون مصدرا للأسلحة والذخائر
الواردة من مسقط والهند . وفضلا عن ذلك فان ابن الصباح
يعطى يومئذ دائرة واسعة لنفوذه تمتد من العراق لغاية
« شط العرب » وتصل في الشمال الى أخصب منطقة لوادي
الفرات حيث ينتظر هناك صديقه « سعدون » اقل إشارة
لأشغال نيران الفتنة .

« هذا ما يريد القناصل الانكيز . وهو في الحقيقة هدم
اركان السيادة التركية في كل البلاد العربية . وقد يستفيد
الامراء الثلاثة من ذلك (!) وخصوصا ابن الصباح . ولكن
طلب القناصل جاء متأخرا اذا صح ان دوائلو مصطفى نوري
باشا والى البصرة السابق — الذي عزل بسبب الدسائس
ووصل الى الاستانة في آخر اكتوبر اى خمسة أسابيع قبل

احتجاج تركيا على تعيين قنصل انكليزي في الكويت -
توصل الى اقتناع حكومة جلالة السلطان بوجود الغزو عن
الامراء الثائرين واستماتهم اليها وكان حقا ما يقال من ان جلالاته
عفا فعلا عن ابن السعود وابن الصباح وأمر ابن الرشيد بأن يبقى
ساكنا في بلاده . ولكن هل قبل الامراء ذلك ؟ ان الامر
مختص في الحقيقة بمبارك الصباح لانه الواسطة الى ابن سعود
«ومما لا شك فيه ان هذا الشيخ شعر الآن بعجزه عن
نيل الاستقلال وباضطراره للاختيار بين أحد امرين . اما
تبعيته لسيادة تركية مركزها بعيد عن بلاده . واما خضوعه
لسيطرة بريطانية ستقضي حتما باستعباده . وان الهند مع
امرائها الخاضعين المستعبدين ليست بعيدة عنه . وكثير من
رعاياه يذهبون اليها في كل عام ليلتقطوا اللؤلؤ في البحرين .
وهذه جزائر البحرين على مقربة منه . وقد عرف كيف صار
سلطانها في أعس حال بتغلب الهنود عليه واستيلائهم على
الثروة كلها . ولكنه يعلم من جهة أخرى أن الموظفين العثمانيين
يستطيعون يوما ما الهجوم على أرضه ومحو آثار اماراته . وهو

يخاف بنوع خاص — وكم قال له الانكليز ذلك؟ — أن تصدر
ارادة سلطانية يجعل الكويت آخر محطة لسكة حديد بغداد
وترتعد فرائصه لهذا التداخل المخيف

« غير ان أحد أصدقائه من الاوروبيين اقترح عليه حلاً
بسيطاً » ويقال انه قبله . وهو ان تضمن له روسيا وفرنسا
بالاتفاق مع انكلترا استقلاله الداخلي تحت سيادة الباب
العالى . وقد استطاع رأى هذه الحكومات بصفة غير رسمية
ولم تنته النتيجة بعد . ولكن عمال الحكومة الهندية الذين
يسبتون على الدوام الحكومة الانكليزية يحاولون عقد
اتفاق يقضى بسيادة انكلترا على اتحاد الامارات العربية »

هذا هو مجمل حال جزيرة العرب في الوقت الحاضر فالدسائس
تلعب بها وبامراءها ولا يعلم غير الله ما سيكون من امرها ولا
يسعنا الا ان نسأله سبحانه وتعالى ان ينير بصائر القوم حتى
يعرفوا الضار والنافع لهم ويتجنبوا لخطر المحقق بهم
المهدد لبلادهم فيعملون الى تلافيه ويعتبرون بما حصل لغيرهم !!

الباب الاول

فيما كان عليه العرب قبل الاسلام

الفصل الاول

نسب العرب وطبقاتهم — طبائهم وأحوالهم وصفاتهم وذكر بعض عاداتهم
الزواج والطلاق عندهم وكيفية أحكامهم — معتقداتهم الدينية وحروبهم
وأسلحتهم وتقويتهم — لغتهم وأشعارهم وشعراؤهم وأسوافهم والكتابة عندهم
آدابهم وعلومهم وتجارتهم وصناعاتهم ونقودهم

العرب أمة قديمة الرياسة على الأمم طائفة الصيت في
الآفاق نالت من العز والمنعة امداً بعيداً حتى بلغت من العظمة
وسمو المنزلة ما لم يبلغه غيرها من الأمم المضروب بها الامثال
نسب العرب وطبقاتهم — وخلاصة ماورد في الكتب
عن نسبها أنه يتصل بإسم أحد أولاد نوح الذين نجوا معه
من الطوفان وهي تنقسم الى طبقة بادت ودرست أخبارها ولم
يرد في التواريخ منها الا القليل ومع ذلك فانه مشوب بالخلط
لا يعلم فاسده من صحيحه وسنذكر فيما يأتي طرفاً من ذكر
بعض قبائنها مثل عاد وثمود وطسم وجديس . والى طبقة

بأقية وعربها يرجعون كلهم الى قحطان أبى العرب كلهم كما
سيجيء والى عدنان ولد اسمعيل عليه السلام ولهذا الطبقة
حالا ن حال الجاهلية وحال الاسلام وعرب الطبقتين متحدون .
فى الطبائع والعادات على اختلاف طبقاتهم الست التى هى
الشعوب والقبائل والعماير والبطون والانفاذ والفصائل . وبنو
قحطان يسمون العرب العاربة وبنو اسمعيل العرب المستعربة
نسبة الى أبيهم اسماعيل الذى كان عبرانياً اعجمى اللهجة وانما
استعرب لمخالطة العرب العرباء ومصاهرته لهم كما سيأتى
والعرب العاربة يسمون أيضاً القحطانيين والسبئيين والحميريين
والكهلانيين واليمنيين والكلميين نسبة الى بعض أولاد
قحطان . وتعرف بنو عدنان بالاسماعيليين والمعديين والمضريين
والقيسيين

وفى تسمية هذه الامة بالعرب أقوال أشهرها انها
سميت بذلك نسبة الى لغتها أى لفصاحة لسان أهلها وعدم
لحنهم فى الاعراب وقيل نسبة الى يعرب بن قحطان أبى اليمن
كلهم وقيل غير ذلك

وجاء في كتاب موسوعات العلوم الفرنسي المطبوع
بباريس أن قحطان المذكور هو يقطان بن عابر بن سام المذكور
في التوراة

طبائع العرب وأهوالهم وصفاتهم وبعض عاداتهم -
ومن عهد التاريخ القديم الذي تكونت فيه الممالك القديمة
والدول العظيمة كدول مصر ودول اليونان ودول الفرس
الاولى كانت أمة العرب عريقة في التقدم قائمة الملك على
ساق وقدم وان لم تكن لها دولة تضبطها ولا روابط سياسية
تربطها. حريتها فطرية تأنف الخضوع والذل. فلهمذا لم تكن
في الاحتماب الخالية تحت استرعاء دولة من الدول واذا غالبها
جيش قوى بالقوة أو الكثرة لا يكاد يتمكن من ادخالها
تحت الطاعة ولا يستطيع أن يغير أخلاق أهلها ولا طبائعهم
ولا يمكنه أن يبدل صفاتهم المميزة لهم. فان كانت لهم طاعة
اقتضتها صروف الحداث فهي طاعة صورية يتصلون منها
عند الامكان

وكان لهم من الحرية والعزة أعلى من مزيه فلهمذا بقيت

أخلاقهم على تداول الدهر واحدة اذا خرجوا الى النجعة
قل أن يعزموا على الرجعة

ولما تغلب قيروش ملك الفرس على مصر والشام وخلفه
على تلك البلاد ابنه قاميز طمع لقربه من بلاد العرب في أن
يسترعيهم كما استرعى من بجوارهم فلم يستطع وخاب أمله حيث
استمروا على الحرية ولم يذوقوا طعم ذل التبعية وكذلك
لما تغلب الاسكندر الاكبر على بلاد المشرق والمغرب لم ترض
العرب أن تنتظم تحت لوائه ولا حلت تحت حكمه وولائه
ولما حكم الرومانيون جميع بلاد الدنيا وصارت دولتهم في أيامهم
هي العليا ولم يسلم من حكمهم الا ماندر من البلاد ولا خلا
من أسرهم الا قليل من العباد بقيت جزيرة العرب في دولتهم
مستبدة بأمرها مستقلة بنفسها يحكمها شيوخها وأمرؤها
وملوكتها وكبرائها ولم تنقد للدولة الرومانية طرفه عين ولا
دخلت تحت استعبادها. نعم كان للرومانيين والفرس بعض
ولاء على طرف من بلاد العرب القريبة للسواحل
ولكن لم يستطع أحد منهم أن يمس استئلال باقيها وحرية

ولم يدع من تطاولت عليهم يد الاجانب أى فرصة بدون أن ينتهزوها للخلاص من ذلك الاسر ورفع نير الاسترقاق والذل. على أنهم تملكهم الاجانب الابنفس الوسائل والدسائس التى ضاع بها كثير من البلدان فى كل الازمان حتى فى عصرنا هذا كما رأيت وسترى فيما بعد

والعرب على اختلاف طبقاتهم وفى كل أجيالهم اما حضريون يأون القرى والضياع ويسكنون الدور والمساكن وهم أهل الامصار والمدن وهؤلاء يصح فى بعضهم الآن ما قاله عنهم ابن خلدون منذ سنين من « أنهم تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكة بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم فتجد الكثير منهم يقدعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدّم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء من التظاهر بالفواحش

قولاً وعملاً وبالجملة فهم اهل غدر ومكر وخديعة. ونقض عهداه . على أن هذا الوصف لا ينطبق على كل اهل المدن والامصار فان منهم من هو على غير ما ذكر فهو ذو صفات حميدة منها أنه كثير الصدقات والزكاة مواظب على العمل عفيف النفس طاهر الذيل قائم بشعار دينه الذي ينهاه عن الفحشاء والمنكر ويأمره بالمعروف والعدل والاحسان وبأن يعمل لدنياه كأنه لا يموت أبداً ولا آخرته كأنه يموت غداً وان كان عدد اولئك قليلاً

واما رحالة اضطروا لسكنى البادية لانهم وجدوا في ارض قفرة تراكت عليها الرمال المحرقة لا تثبت لهم حبالاً ولا بقالاً آبارهم تجف في حرارة القيظ وتبخل بالماء على بعد قاعها فيظعنون لورود غيرها من المناهل . وفي خلق الابل لهم نعمة كبرى: فهم يعيشون من ألبانها ولحومها ويرتادون المسارح بها ويتطلبون المرعى والكلأ لها ولا يزالون في حل وترحال في طلب العشب وابتغاء المياه: ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكمشوا الى بلاد الحضر

فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان مصطبرين على بؤس العيش .
 وسكناهم في البادية امر طبيعي . وهم وان نزلوا الامصار
 ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع
 والمسارح حيواناتهم لكنهم يحسبون المدن محبسا لا صبر لهم
 عليه لان الحرية عندهم من افضل ما منحهم الله وهم يبذلون
 نفوسهم ونفائسهم في استبقائها فيهم

ويمتاز اهل البدو منهم بقسوتهم ومع كونهم أصعب
 الامم انقيادا للغلبة والافتة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة
 حتى قلما تجتمع احوالهم هم أسرع الناس قبولا للحق والهدى
 لسلامة طباعهم . وهم كما قال العلامة ابن خلدون «أهل انتهاب
 وعيث يتهبون ماقدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر
 ويفرون الى منتجعهم بالقفر ورؤسهم محتاج اليهم غالبا للعصبية
 التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك
 مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبية فيكون فيها هلاكة
 وهلاكهم»

وقال العلامة المذكور: «ولما كانت سياسة الملك تقضي

ان يكون السائس وازعا بالقهر والا لم تستقر سياسته وكانت
طبيعة العرب أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجاني عما
سوى ذلك من الاحكام بينهم بعدت طباعهم عن سياسة
الملك وانما صارت اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة
دينية مسحت ذلك منهم وجعلت الوازع لهم من أنفسهم
وحملتهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض وعلمتهم مكارم
الاخلاق والآداب ونهتهم عن السلب والنهب والاشم والعدوان»
وأول صفة من صفات العرب حب المحمدة والشهامة
والحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظامم والثناء الحميد
من المكارم وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من
أركان الشجاعة التي هي صفة جامعة لذلك فكانوا يحبون المحامد
والمفاخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل
كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم فكانت النصره عندهم
تقوم مقام الحقوق المدنية عند الاجانب لما يترتب عليها من
المزايا الاجتماعية أو هي عين حقوق الحرب والصالح عند الامم
المتمدنة وانما كان يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته لان

افراد العرب جميعهم كانوا كما قدمنا يسوسون انفسهم بأنفسهم
وكانوا ينتقمون من العدو بأخذ الثار فكان القصاص عندهم
يستوى فيه سائر العشائر والقبائل فلا قبيلة الا وتأخذ ثارها
من القبيلة الاخرى ولا عشيرة الا وتستوفي ثارها وتبقى عارها
فكانت المحمدة على الخير والشر باعثة لهم على كسب المحامد
أو المثالب كما يحكى أن بعض العرب وقف على تبر عامر بن
الطفيل بن مالك العامري فقال يرثيه: «أنعم ظلما أبأعلى فلفقد
كنت تشن الغارة. وتحمل الجارة. سريعا الى المولى بوعدك.
بطيئاً عنه بوعيدك. وكنت لا تضل حتى يضل النجم. ولا تهاب
حتى يهاب السيف. ولا تعطش حتى يعطش البعير. وكنت خير
ما تكون حيث لا تظن نفس بنفس خيرا. » فقدم مدحه بأحسن
ما يوصف به عربى

وقد كان بقاء ذكر الانسان بعد الموت يعد بمنزلة الحياة =

قال بعضهم

فأثنوا علينا لا أبأ لا بيكم بأفعالنا ان الشاء هو الخلد

وقال آخر

فان يك انفته انما الى فأوشكت فان له ذكرا سينى اللياليا
ومن صفاتهم ايضا النجدة وعدم الجزع عند المخاوف
فكانوا منها على مكانة عالية فكانت احلامهم تحمل اجسامهم
ملا يطاق وسواء في ذلك الشخص او القبيلة كما قيل في الاول
أكر على السكتية لأبالي أفيها كان حتى ام سواها
ولى نفس تتوق الى المعالى ستائف او ابلغها منهاها
وتيل فى الثانى

وكنى تستقل بحمل سيفى وبى ممن يهضمنى امتناع
وحولى من بنى حطان شيب وشبان الى الهيجا سراع
اذا نزعوا نأمرهمو جميع وان لا توايأيدهم شعاع
فكان اذا خطر بقبيلة منهم ذات يوم فكرة اقتحام
خطر من الاخطار لقضاء وطر من الاوطار اتحاد أفراد القبيلة
وصاروا على قلب رجل واحد وهموا بانجاز ما أضمره وقل
ان يفوتهم نجاهه كما تيل

كانوا على الاعداء نار اتخطى واقومهم حرما من الاحرام
وكان طريق وصولهم الى مقصودهم بشيئين متوفرين

عندهم وهما : اتحاد القبيلة في اللغة واتحادها في الدين اذ كان لكل قبيلة لغة ودين خاصين بها . ولو كانت القبائل العربية في تلك الازمان الاولى يجمعها لسان واحد ولهجة واحدة مع التمسك بدين واحد لما ساواها غيرها من الامم في السطوة والباس ولا خلع من الدخول في دولتها امة من الامم ولا احد من الناس ولا بقيت مجهولة مدة من الزمان واكبر شاهد واعظم دليل على ذلك وعلى فضل الاتحاد ومنزايه التي لا تنكر ما وقع من العرب بعد ان اتحدوا في المعتقد وجمعتهم جامعة دين واحد في الاسلام فكيف فتحوا امصاراً ودوخوا اُمماً واقطاراً حتى اكبرتهم كل الأمم وصارت لهم هبة في كل القلوب ومن صنات العرب كذلك الحمية والنزيرة على العرض وشرنه وحفظ ناموسه وهذه الصفة بعينها هي التي بعثهم جميعاً مع اختلاف قبائلهم على علو الهمة وكمال الشجاعة وكرم النفس وقد تغالى بعضهم في شرف المحافظة على العرض حتى اداهم الغلو فيه الى صنات ذميمة كواد البنات الا انهم كانوا يرون الباعث عليه حميداً وهو دفع العار او خشية الاملاق

المرتب عليه عدم وجود الكفء للزواج فيخشى عليهن
التفريط في العرض او الميل لغير الكفء للعجز عن التكسب
ولما اعتنق العرب الدين الاسلامي الحنيف تخلصوا من
كثير من العادات الذميمة والاخلاق الفاسدة ومنها هذه
العادة: قال الله تعالى « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق: نحن
نرزقكم وايامهم »

وكان صعصعة جدّ الفرزدق يشتري البنات ويخلصهن
من القتل كما قال الفرزدق منتخراً

ومنا الذي منع الوأدات وأحيا الوئيدة لم توأد
والظاهر ان الوأد لم يكن مع ذلك كثيراً وان كان واقعاً
فان العرب كغيرها من الأمم تحرص على النسل حيث هو
أمر طبيعي. بل كان نادراً فقد عهد عندهم زواج الفقيرة لابناء
الملوك وزواج امرئ القيس وبجته في احياء العرب عن
ذات عقل يؤيد ذلك كما يؤيده ايضاً قصة بنات الملق الكلابي
وقد كان كذلك لدى الامة العربية كثير من الصفات
التي تبرهن على ميلها للسعادة والارتقاء الى درجة الامم

العظيمة وان كانت بقيت محتاجة لاحكام الرابطة وتوحيد
الكلمة الى زمن ظهور الاسلام واقبالها عليه . فمن تلك
الصفات الشريفة ما امتازت به عن سائر الأمم من علو الهمة
وشرف النفس وحفظ حرمة الجوار والمحاماة عن المظلوم
والوفاء بالوعد وصدق العهد والجرأة والاقدام وحب عظام
الامور والكرم والجود . وحسب الانسان ترديد نظراته في
ديوان تاريخها ومفاخرها يجد اشعارها مشحونة بكل ما ذكر
فن نظر في أقوال شعراء العرب وخطباءهم عرف
مقدار ما كانوا عليه من الصفات الممدوحة والسجيا الفاضلة
واستدل على شؤونهم وأحوالهم

وأى شئ أدل على الوفاء وعلو النفس والتفاخر من
قصيدة السموأل التي مطلعها

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

وعلى الكرم وحفظ الجوار من قول عمرو بن الایهم التغلبي
ونكرم جارنا مادام فينا ونبتعه الكرامة حيث مالا

وعلى الجود وعلو الهمة وشرف النفس من قول حاتم طي
أملوى ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر
وقد علم الاتوام لو ان حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
يفك به العاني ويأكل طيبا ويحفظ عرضا ان هذا هو الفخر
والشواهد كثيرة تلى تلك الصفات الجميلة التي كانت
تعتمد لها المتأخرات وتقام لاجلها المنافرات بأسواقهم الشهيرة
كعكاظ وذى المجاز وغيرها تشد فيها قصائد الغرر المتضمنة
للفخر والحماسة وذكري الحوادث والحروب والمدح والتدح
مما سندر طرفا منها حين التكلم على الشعر والشعراء
والعرب الآن على حالتهم الاصلية لكون علائق
المعاش بينهم مستمرة على ما هي عليه ولم يخطوا أنسابهم
بالاجانب فتراهم أكثر أهل المشرق سفكاً للدماء وكرماً وأشد
الناس انتقاماً وايواء للضيوف وأكثرهم كبراً ومعروفاً واذا
ساغ تشبيه الناس بكرائم الحيوانات— وهو تشبيه لا يفض
البدو فكم رأينا منهم من يكون على فرسه كأنهم يكون اعز
أصحابهم— صح أن يقال في العرب: ان لهم حمية وقناعة وصبرا كابلهم

وتد اصاب السائح بورك هارت في وصفه البدو اذ
 قل : يمتاز البدوى بحب الضيافة والكرم وحفظ الذمام ورعاية
 الغريب والشهامة والحماسة والذكاء وخفة الروح والثناء
 وحب البدوى للحرية يحمله على احتتار أهل الحضر فانه
 بمعاملتهم قد عرف منهم الخداع والمكر اه

ومن محاسنهم التي يحسن ان يقلدوا فيها غرض الطرف
 عن عورة الجار وعدم التعرض لحرمة فقد كان الرجل منهم
 يسافر ويترك زوجته في بيته فيبونها جاره وهو أنزه الناس
 عن التعرض لها بسوء بل انه يكون عليها أكثر ذيرة من
 زوجها لكونها في رعايته حتى يعود كما قال في ذلك عنتر البسبي :
 وانض طارفي حين انظر جارتي حتى يوارى جارتي مأواها
 ومن صفات العرب أيضا النصاحة والمشهورون بها
 كثيرون لا يمحسون . والحكمة ومن مشاهيرهم فيها اتمان ابن
 عاد كان من حكماء العرب ودهاتهم . والخطابة ومن اشتهر فيها
 سحبان وانل . ومن عوائدهم ايضاً التي حفظتهم وحفظت أنسابهم
 وقوتهم انهم كانوا لا يخالطون غير جنسهم الا مخالطة التجارة

ولا يدخلون في أنسابهم دخيلاً من غيرهم لا من جهة العصب ولا من جهة الرحم ويستنكرون ذلك استنكاراً عظيماً حتى ان ذلك اذا كان في خيلهم او ابلهم استنكروه واستنكروا منه (١) وبجانب هذه الصفات الحميدة كان لدى العرب من العوائد

(١) كان اسماعيل أول دخيل من العجم في ولد قطان الذين هم العرب ثم كانوا بعد ذلك يتحاشون غابة التحاشى من مداخلة العجم ومع ذلك فربما كان بعض الوضعاء أو من غلبت عليه الهيمنة داخل غير العرب وكان منه نسل فاذا كان الفحل عربياً والأتى غير عربية سمي النسل الحاصل هجيناً ومنه اشتقاق الهجنة وهجنه أى قبح أمره واذا كانت الأتى عربية والفحل غير عربى سمي النسل مقرفاً فالعرب كانوا يتحاشون الهجنة والاقراف بل كان بعض القبائل يحافظون على انفسهم ولا يخالطون غيرهم من العرب كما سبق ايضاحه حتى ان ايدا أحد شعوبهم لما ساكنت الفرس وخالطتهم سقطت منزلتهم بين العرب واحتقروا احتقاراً شديداً وعدوا من العجم واتقيت مداخلتهم يرشدك الى تحقيق ذلك ان قبيلتي تناب وبكر اللتين يجمعهما وائل ابن ربيعة قوى امرهما وعزا في العرب وقهراً كثيراً من الناس وفي بعض الايام نزل منهم رجل بناحية قريبة من بلاد الفرس من منازل ايداء ومعه ابنته وكانت من اجل نساء العالم فوشى بها رجل من ايداء لدى ملك الفرس فاغتصبها من ابها ثم عرض عليها جميع المشتهيات وخوفها بجميع

القييخة التي تقشعت غيومها بظهور أنوار الديانة الإسلامية
 ما ذكر بعضاً منه فمن ذلك الاشتغال بالخر والميسر والانصاب
 والازلام المحرمة في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر
 والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم

العقوبات ومسها بكثير من المؤامات ليرى وجهها فابت وخيرته بين
 أن يقتلها أو يعيدها لابلها فلما يئس منها اسكنها في موضع وأجرى
 عليها الوظائف الترفهية واكتفى برؤية قامتها تحت ملابسها في بعض
 الأحيان وبسبب ذلك نشبت حروب بين العرب والفرس وانقضى
 الأمر بقتل ملك الفرس وتحديص الفتاة ومن كلامها (وكان اسمها
 ليلى بنت السكير) في أثناء ما حصل لها تحت أهلها والعرب على
 تخليصها ونفي العار عنهم

ليست للبراق عينا نترى	ما ألقى من بلاء وعنا
يا كلييا وعقبلا اخوتي	يا جنيدا اسعدوني بالبكا
عذبت أذكمو يا وياكم	بعذاب انكر صبحا ومسا
غللوني قيدوني ضربوا	لملمس اللفة مني بالعصا
يكذب الاعجم ما يقربني	ومعي! بض حشاشات الحيا
قيدوني غللووني وافعلوا	كل ماشتم جميعا من بلا
فانا كارهة بغيركم	ويقين الموت شئ يرنجي
يا بني كهلان يا اهل العلا	أندلون على الاعجبا

تفلقون) أما الخمر فقد كانت لهم مغلاة في شربها ومناخراتهم مشحونة بذكرها وأوصافها وأسماؤها وكان شربهم لها في معظم أوقات اليوم وكانوا يسدون الشرب في كل وقت باسم خاص به ولا يخفى ما في شربها من المضار البدنية والعقلية والمالية وما تنتج من وخيم العواقب

أما الميسر فمن الامور التي قادم اليها حب الظهور والثروة والغنى وحيث كانت هذه العادة قبيحة جالبة للشر مسببة للاحتقار والضغائن والشح ممن لم يكن لهم حظ في الغنى وكان من نصيبهم الغرم حظرها الاسلام

يا ايادى خسرت ايديكمو	خالط المنظر من بردعوى
فاضطربا وعزاء حسنا	كل نصر بعد ضرير نجى
أصبحت ليلي يغلل كفها	مثل تغليل الملوك العظاما
وتقيد وتكبل جهرة	وتطالب بقيقحات العنا
قل لعدنان هديتم شمروا	لبنى مبنوض تشمير الوفا
واعقدوا الرايات في اقطارها	واشهروا اليض وسيروا الى نحي
يا بني تغلب سيروا وانصروا	وذروا الغفلة عنكم والكرى
احذروا العار على اعقابكم	وعليكم ما بقيتم في الدنا

أما الانصاب فكانت حجارة أو قطعاً من الصخر يقيمونها على أشكال مختلفة ويتقربون اليها بأنواع القرابين زاعمين انها تشهد لهم بأعمالهم عند الله وتشفع لهم ولا يخفى ما في ذلك من الشرك والضلال أما الازلام فكانت على جملة اشكال منها اجالة التداخ ومنها ما هو عبارة عن ثلاث قطع من الخشب واحدها زلم وتسمى ازلام الاستخارة وازلام الاستقسام كان يكتب على أحدها أمر وعلى الثاني ناه والثالث يبقى غفلاً ثم يخطبها الرجل عند ما يعتد عزيمته على أمر ثم يخرج منها واحداً فإن كان الأمر أقدم على ما عزم عليه وإن كان الناهي أجبراً وإن كان الغفل استأنف الخلط وغير خاف ما في ذلك من البعد عن الحق والضلال في الاعتقاد بنسبه الامور لغير فاعلها المختار فنهى الاسلام عنه كما نهى عن غيره من المعتقدات الفاسدة وكان من عوائدهم كذلك الاستسقاء بالعشر وذلك انهم كانوا يخرجون في أوقات الجذب واحتباس المطر لطلب السقيا فيجمعون حزم الببات المسمى بالعشر والسلع ويربطونها في اذنان البقر ثم يشعلونها بالنار ويصعدون البقر على هذه

الحال الى الجبال والربوات المرتفعة مفرقين بينها وبين اولادها.
 هذا وقد جرب بعض علماء التمرنج حديثا انزال المطر
 باطلاق الدخان الكثير المتكاثف فنجحت بعض التجارب
 بامريكا وهو المسمى بالامطار الصناعى

ومن عوائدهم التبيحة أيضاً معاملتهم للمرأة معاملة
 الرقيق وهى من العوائد التى أبطلها الاسلام باعطائه للمرأة
 حقوقا وامتيازات لا توجد لها فى قانون آخر كما يعلمه كل من
 له الملم بعلم الحقوق والشريعة الاسلامية الغراء كما كانوا
 لا يورثون النساء والاطفال ويقولون لا يرث الا من طاعن
 بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة فلما جاء الاسلام جعل
 لهن نصيبا مفروضا كما قال تعالى (للرجال نصيب مما ترك
 الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون
 مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا)

وكانوا يتجرون بالرقيق ويقتنون كثيرا من الجوارى
 ويعدون اولادهم منهن عبيدا ويعاملونهم معاملة الارقاء الا
 اذا اظهر أحدهم نجابة أو بسالة أو مكرمة مما يفتخر به العرب

حينذاك يعترفون بهم ويخولونهم حقوق النبوة كما وقع ذلك
لعنرة العباسي فلما جاء الاسلام قيد الاسترقاق بقيود جعلته
نادرا وأوصى بالرفق بالرقيق وحسن معاملته وحث على العتق
كما لا يخفى على كل مطلع غير ذي غرض

وكانت العرب في الجاهلية تفعل أشياء اقرّ الاسلام
كثيرا منها فكانوا يحجون البيت ويعتصرون ويطوفون
ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار ويغتسلون من
الجنابة ويدأومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس
والسواك والاستنجاء وتقليم الاظافر وتنف الابط وحلق
العانة والختان. قال صلى الله عليه وسلم: خمس من الفطرة: الختان
والاستحداد وقص الشارب وتقليم الاظافر وتنف الابط
وكذلك في حديث البخاري المتعلق برسول ملك غسان الى
هرقل ما يدك دلالة صريحة على انه كان من عادة العرب
الختان. وكان من عادتهم أيضا قطع يد السارق اليمنى فأبقاها
الاسلام وكانوا يقتلون أسرى الحرب الا اذا أكل الاسير
أو شرب من مال من أسره فانه يأمن القتل فاذا آمنوه

أطلقوه وجزوا ناصيته وكان الشريف اذا أسر فدى بانيهين
من الابل

ولما جاء الاسلام ابطال الاسر بين العرب وجعل لذلك
شروطا وحدودا حائلا على العتق والتحرير واحسان معاملة الاسير.
ويحسن بنا بعد ذكر صفات الرجال وعاداتهم ان
نتمكه بوصف البدويات: فهن في البادية اكثر من الرجال
عددا وبالطبع ألين جانبا وأرق طبعاً ولسن مع ذلك دون
الرجال نخوة وشهامة: يطقن التعب وتحمل المشاق وتجشم
المصاعب ويشاطرن رجالهن كل أنواع المتاعب فيقمن بكل
ادارة بيوتهن ويساعدنهم حتى في غزواتهم ولهن بهن تعلق
شديد. وهن أشد تعلقاً بالبدوة من الرجال ينفرن من الحضارة
أى نفور وعندهن من الاحكام السائرة: أنه اذا طلبت احدى
بناتهن لرجل من الحضرة أن تقول « صكاك باب ما أريدنه »
أى إنه اذا نام أغلق بابه فهو اذا جبان لا يليق بها. ولهن عدا
ذلك مهارة وطرق لطيفة فى نقد الرجال. وزى الملابس عندهن
على نمط واحد يكاد لا يتغير فالبنات البكر فى اكثر الاوقات

يقصصن الغرة أو الطرة ويبرزن شعورهن فوق الجبين الى
 قرب قمة الرأس واذا تزوجن أرخينها وسترن شعورهن
 بالمنديل وهى علامة فارقة بين البكر والثيب . ويستعملن بلا
 تكلف أموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء الفرنج لعقدن لها
 مجلساً وصنفن لها بالأيدي وأذعنها بصحف الاخبار ومادرن
 ان البدويات سبتن اليها ولم يباهين بها والفرق بين الزين
 ان تلك ثابتة وهذه متقلبة فتراها كل يوم فى شان . فزى البدو
 اذا حضرى مألف وزى الحضر بدوى مخلوف . فالاردان
 المتسعة المهمة عند نساء الفرنج مستعملة فى البادية وكذلك
 الاردان الضيقة المستعملة الآن ووجه ذلك أن يجمعن بين
 الهيئتين . والنساء المثریات يلبسن الثوب الضيق الاردان
 ويتردين فوته بكساء متسع الاردان ضافى الحواشى . أما الذبول
 الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات التمدن فى ملابس العرس
 او الاثواب البيتية فلها استعمال شائع فى كل بادية العرب .
 وجر الذيل فى كلام الشعراء لا يكاد يخلو منه كلام منظوم
 وعندهن أيضاً المشد المستعمل لدى نساء الفرنج المعروف

« بالكورساج » (Corsage) فقد اتخذن نوعاً منه يصنع من نسيج خام فهو أكثر ليونة وألطف بنية من مشدات الحديد والنمولاذ ولا يستعمل الا قليلاً بحيث لا يضايقهن . ولهن نوع آخر منه لتعظيم الصدر في النساء الضئيلات . وغير ذلك . ومع أن الذوق العصري يغالى بحال الملابس المذكورة ويدعى الاسبقية في استنباطها فهي معروفة في البادية منذ عشرات المئات من السنين تفنن فيها بدو العرب وحضرهم منذ التدم ودعوها العظامه والمرقد والعجيزه وقلوا فيها غير ذلك . فقط لم يصلوا بشيء من تفننهم الى انماها وترقيتها الى حد مقتضيات النمو والارتقاء في الزمن الحالى . وجملة ما يقال : ان ملابسهن سهلة المنال لا تكلفهن مالا جزيلاً ولا وقتاً طويلاً وهن وان تزين بأخضر ما عندهن رشقات القذخينيات الحركة لا يلجئن ضغط الملابس الى التكلف والتضرر والاستئقال . والمخدرات منهن يتبرقعن خارج الخدر ويسدلن على وجوههن المنديل الاسود ويؤثرن في الملابس كثرة الالوان وأحسنها الاحمر ولبسن من الحلى الضخم الثقيل

كالخلاخل والحجول الكبيرة ذهباً وفضة كل على ما
وسمته حاله ويعلقن الخزومات المتسعة بأنوفهن وأكثرها
مصوغ من الذهب مرصع بالحجارة القليلة الثمن كفضوص
الفيروزج الصغيرة . ولهن أقراط طويلة عريضة قد تبلغ
القيراطين طولاً بعرض قيراط واحد . ويصغن الذهب والفضة
عقوداً وقلايدات طويلة على ضروب شتى . ولهن من أنواع
التزين الحناء ذهبي شائعة الاستعمال فيصغن بها الاكف
والاصابع والاذافر وأخامص الاقدام واصابع الارجل .
والخضاب الاحمر على الشفاه . وتكحيل العيون بالاثمد . وقد
يزججن حواجبهن ويطلين شعورهن بالدهن المصفى . ولهن ولع
خاص بالوشم . ويحلين بالصبغة الزرقاء والسوداء جلود أيديهن
بنقوش مختلفة ويجعلن نقطاً صغيرة في منتصف الجبهة ومارن
الانف والذقن وربما وشن الشفاه السفلى والوجنات
والسواعد والاقدام

أما أخلاتهن فهي بالجملة حسنة وخير ما يزينهن عزة
النفس وشدة التعلق بالاهل والازواج وقيامهن مقامهم في

أكثر الأعمال ولا يقوم الرجال بشيء من أعمالهن. فاشتغال البدوى متصور على الغارات والغزوات والمرأة ريفية ومعينة له في كثير منها وجميع مابقى منروض على المرأة بحيث لو انقطع الرجل مدة في طلب السلب والدفاع كانت هي ربة البيت مكانة بكل ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية فاعتماده عليها تام أو يكاد واعتمادها عليه ناقص. وهي مع ذلك راضية وهو غير راض وذلك أمر حتمى فى كل هيئة غير عريقة فى التمدن. ومما كان ولا يزال شائعا بين العرب العشق والهيام المؤدى فى أغلب الاحيان الى الجنون ولكن فى الغالب كان عشقتهم مع العفة التى لم يسمع بمثلهما فى البلاد ولذا كثيرا ما رأينا أشعارهم مشحونة بالغزل والتشبيب ولكن ندر فيهم ما امكن الخيانة وعدم العفة

أفضية العرب وتربيت حكوماتهم — سبق القول بان من العرب من كانوا يقسمون الى دول عظيمة يتوارثها ملوك والباقي كانوا قبائل شتى والاحكام فى البادية موكولة الى الشيوخ والامراء وهى بكل فروعها وملحقاتها تمثل مبادئ الحكم الفطرى. فالقوة لمن غلب وتبعها السلطة والثروة والنزول المطلق

وقد صرّ بنا أن البدو هم دائما بين عدو وصديق وزيد
الآن ان التضامن والتصافي قد يبلغان عندهم حدّ التحالف
الفعلی وقد يتطرفان الى ما وراء ذلك بأن تحالف قبائل كثيرة
تحت لواء واحد فمن ثم يصبح صاحب ذلك اللواء متسلطا
عليها جميعا. وقد ينفرد بين جماعة من الشيوخ رجل واحد
فيتسلط إما بقوته وإما بحزمه وإما بدسائسه. ولا يفضل
عندهم الامير على الشيخ ولا الشيخ على الامير الا بنسبة مقامه
وللشيوخ والامراء الحكم المطلق والنفوذ المفرد فسلطتهم اذا
نافذة في كل شيء: يقضون بما يشاؤون معتمدين على الشرع
المعروف والعرف المشروع وما من شافع لديهم الا ذمتهم وما
حملت. والبدو من حيث الطمع والاذعان جامعون بين الضدين
فاذا غلت أيديهم عن التحامل وضائق بهم الحيل قنعوا باليسير
وأخذوا وان تبينوا سبيلا الى الاستطالة هبطوا اليه ويطلق
هذا الحكم على الرفيع منهم والوضيع وهو نتيجة كل سلطة
منطلقة ولهذا لم يكن الشيوخ في مأمن من فتك
أقاربهم الا اذا استتب لهم كل الامر. والحكم عندهم وراثي

للأرشد ولكنهم لا يراعون ذلك الا حيث غلبت قوة الرشد
فيهم و ليس لهم قوانين مكتوبة ومجالس معقودة ومع ذلك
يقوم العرف أحيانا مقام القانون النافذ فيرجعون بالتقاضى
اليه فالقتيل مثلا يقوم أهله وأقاربه للاخذ بثاره. وان كان
القاتل من عشيرة حليفة فينبهم الدية توزع على العاقلة (أى
على أقارب القاتل) وتدفع لاهل المقتول وان اختلفوا فى
أمر أشكل عليهم ولم يشاءوا أن يحكموا السيف رفعوا امرهم
الى العارفين والعارف عندهم بمقام القاضى يحكم بما اكتسبه
من الاختبار مما جرى عليه العرب فى كل زمن وهو بمقام
الفيصل أو الفاروق فى العهد القديم وله عندهم منزلة كبرى (١)
وكانوا اذا اعتدى فرد من قبيلة على آخر من قبيلة أخرى
يرفع المظلوم منهما ظلامته الى رئيس القبيلة التى منها خصمه

(١) وقد عرفت اورو با حديثا فضل التحكيم ومزاياه فشكوا محكمة مخصوصة
بمدينة لاهاى عاصمة هولاندا للتحكيم تفصل فيما يشجر بين الدول وبعضها مما
لا يمس بالشرف ولا يسقط الكرامة وعقدت معاهدات بين كثير منها
عدوها منتهى المدنية وأثر آمن آثار اورو با ونبتا من مبتكرات افكارها !!

فان أنصفه فيها والا قامت الحرب بين القبيلتين وسفكت
الدماء أشهراً وربما دامت الحروب سنوات حتى تنظف إحدى
القبيلتين بالآخرى أو يتوسط أحدهما في الصلح وينتهي الحرب
فما ذكر يتضح جلياً أن العرب لم يكن لهم طبيعة الانتظام
فان ارواحهم الوطنية قد منيت من فطرتهم بسوس قبيح
أبقاها مأكلاً للشقاق ومرتعاً للانقسام وقد تشابه العرب
واليونان القدماء في هذا الداء — داء الاستفراد — تشابهاً غريباً
فان من أكبر الرذائل والادواء التي اودت باليونان حبهم
الاستفراد أو القيام بالذات أى رغبة كل مدينة من مدنها
في الاستئثار بالامر والسلطة مما جعلهم كالسمك يتاكلون
ويفنى بعضهم بعضاً. حتى ان من يطالع تاريخ حروبهم — خصوصاً
حروب اسبرطه (Sparte) واثينا (Athènes) — لا يسعه الا
استغراب تلك الرغبة الشديدة التي كانت لكل من المدينتين
المدكوريتين في التغلب على اختها. ولعل هذا الخلق نتيجة
لازمة لقوة النفس وشدة حب التسلط وقد فطر العرب على
مثل ذلك فكان دأبهم التقاطع وغزو بعضهم بعضاً قبل

تألفهم والانقسام والخروج عن طاعة الدولة الحاكمة بعده .
 فدلوا بذلك على أنهم لا يحسنون سياسة الملك وان احسنوا
 تأسيسه كما قال ابن خلدون وبين الامرين فرق واضح .
 فالتأسيس يقتضى القوة والبسالة العسكرية والصبر على الشدائد .
 اما السياسة فأول ما تستوجبه اتحاد الكلمة والثبات والخضوع
 لصاحب الامر وقابلية الانتظام وهذا الذى كان ناقصاً فى
 الأخلاق العربية ومن الأسف أن قد سرى هذا الداء فى
 جميع دول الاسلام بعد ذلك فنخر عظام المسلمين حتى تداخت
 كل الأجزاء او كادت وتفرقت أجزاء الجسم الواحد فصارت
 هدفاً للأعداء ولقمة سهل عليهم ازدرادها .

أعظم العرب فى الجاهلية — ان حكم العرب فى التصاص
 كان مختلفاً فتارة يوجبون القتل وتارة اخذ الدية وتارة ينفذون
 الحكمين فاذا كان المقتول شريفاً فى قومه كانوا يقتلون به
 عدداً أو يأخذون دية أضعاف دية الوضيع بل ربما تنهى
 أولياء الدم فى طلباتهم وطلبوا المستحيل تعجزوا فيكون لا
 مناص من القصاص

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم اوجب الله رعاية العدل وساوى بين عباده في حكم القصاص نازل « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر والعبد بالعبد والاثنى بالاثنى » وكان القصاص في يد أولياء الدم فجعله الاسلام في يد الحاكم ينتقم عدلاً من الجاني إلى جنائته بموجب أحكام الشريعة النراء . واذا اختلف في شأن قتيل بان وجد في محلة ولم يعلم قتله رجحوا للقسامة وهي ايمان يحلفها خمسون رجلاً من المحلة او الخط يتخيرهم ولى الدم كل واحد يقول بالله ما قتلت ولا علمت له قاتلاً . وكانوا اذا سرق واحد منهم شيئاً يقطعون يده اليمنى واذا لم يعرف الجاني يقصون أثره ولا تزال هذه العادة موجودة عند البدو الحاليين ولهم فيها شهرة عظيمة

حروب العرب وتعرف بابامم العرب - ينسب العرب هذه الحروب الى الامكنة التي وقعت فيها وايامهم كثيرة لا تحصى فان ابا الفرج الاصبهاني وضع فيها كتاباً جمع فيه ألفاً وتسعمائة يوم . واشهر حروب العرب وايامهم هي يوم

عويرض بين بكر وتغلب وكذلك يوم النهى ويوم عنيزة وفيه
قتل مرة أبو جساس . ويوم العقبة وفيه وقع المهمل في أسر
الحارث بن عباد اليشكري . ويوم واردات وفيه قتل همام بن
مرة . ويوم الجند . ويوم شعب الذناب وهي أيام حرب البسوس
الشهيرة التي مكثت أربعين عاماً من سنة ٤٠٩ الى سنة ٥٣٠
مسيحية وسببها قتل ناقة وسيأتي خبرها فيما بعد ! ويوم شعواء .
ويوم الهباءة . ويوم المرتب . ويوم قطن . ويوم حسي . ويوم الفروق
بين عبس وفزارة وهي أيام حرب سباق الخيل المعروف بحرب
داحس وغبراء وهما فرسان الاولى ايس بن زهير سيد بني
عبس والثانية حذيفة بن بدر سيد بني فزارة وهذه الحروب
هي من أشهر المواقع التي شهدتها عنيزة وقد ذكرها ابن
الأثير في خبر طويل لا محل له هنا وزبدته أن تيس بن زهير
العبسي عتد بينه وبين حذيفة الفزاري رهناً على سباق هذين
الفرسين ثم أرسلوهما في المضمار ولكن حذيفة أضمر الخيانة
وانفذ رجلاً يقف في مكن على طريقهما حتى اذا سبق داحس
ينفره لتسبق الغبراء وكان كذلك فوقع الخلاف بين الحيين

ثم انتشبت الحرب وقتل خلق كثير من الفريقين ودامت الحرب بينهم من سنة ٥٦٨ لسنة ٦٠٨ مسيحية ثم اصطاحت عبس وفزارة وانفرد قيس عن بني عبس وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فتنصر بها ومات. وتكفينا هاتان الحربان دليلاً على ان العرب كانوا سريري الغضب ألفوا القتال مخلعون الشر من لا شيء.

وكان اسفار العرب للغزوات والحروب بظعونهم وسائر حلالهم وأحيائهم من الاهل والولد. وكان الشعر في حروب الجاهلية يقوم مقام الآلات الموسيقية فكانوا في خروجهم للغزوات يتغنون بالشعر في مواكبهم فيطربون وتبش هم الابطال ويسارعون الى مجال الحرب. وكانوا ينصبون الرايات على أبواب بيوتهم لتعرف بها ويفتخرون بالراية الصفراء لانها راية الملوك اليمن وأما الرايات الحمر فهي لأهل الحجاز وكانوا يقاتلون بالكر والفر ولا يعتبرون قتال الزحف صفوفاً وهو المعتبر عند سواهم من الاعاجم^(١) ويلبسون

(١) لما شرع العرب في مقاتلة الفرس والروم وغيرهم اضطروا الى

في حروبهم الدروع السلوقية ويعتقلون الرماح ويتنكبون
 البتسى ويضربون بالسيوف المشرفية والرماح السمورية
 والردينية وكان من سلاحهم أيضاً النبال والتروس والدرق
 والمجانيق وعمرادات لرمي الحجارة مرمى بعيداً الخ
 الزواج والطهر في الجاهلية — قد كانت الانكحة

في الجاهلية مختلفة فمنها ان يتفق ولي الزوج والزوجة على من
 فيتم النكاح بإيجاب وقبول كما يحصل الآن ومنها نكاح السفاح
 وهو أن تبضع المرأة رجلاً ثم اذا أعجبته وأعجبها عتد عليها
 ومنها نكاح البغايا وهو أن يطأ البني جماعة مشتركون واحد
 بعد واحد فاذا حملت وولدت ألحت الولد بمن غلب عليه
 شبهه منهم . ونكاح الاستبضاع وذلك ان المرأة اذا طهرت

مقاتلتهم زحفاً بمثل قتالهم فجعلوا يعبئون الحيوش تبة الروم والفرس
 فيقسمون العساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس
 صفوفهم ويرتبون الكراديس حتى اذا تم هذا الترتيب يكون الزحف
 من بعد هذه التبة وحروبهم في صدر الاسلام تدل على مهارتهم
 في فن الحرب وسياسته

من حيضها يقول لها زوجها أرسلني الى فلان استبضي منه
ويعزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها فاذا حملت أصابها
زوجها اذا أحب. ومنها نكاح الجمع وهو ان يجتمع جماعة دون
العشرة ويدخلون على امرأة من البغايا وكلهم يطؤها فاذا
حملت ووضعت وصرت عليها ليال بعد ان تضع حملها أرسلت
اليهم فلم يستطع رجل منهم ان يتمتع حتى يجتمعوا عندها فتقول
لهم: «قد عرفتم ما كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان»
وتسمى من أحببت منهم فيلحق به. وكان الرجل في الجاهلية
يتزوج بكثيرات وربما كان في عصمته عشر نساء أو أكثر
فحظر الاسلام ذلك وأباح الاربع فادونها بالكتاب والشروط
التي اجازها الشرع الشريف. *عاشا ان يخلطوا به*
وفضلاً عما سبق من أمر الزواج عند العرب واتساع
دائره تد كان فيهم من لا يستتبع مزاحمة أبيه في زوجته
ويسمونه الضيرون. ونكاح الممت وهو اذا مات الرجل وترك
زوجه قام ولده الأكبر وألقى ثوبه عليها فبرث بذلك نكاحها
فان لم يكن له بها حاجة زوجها البعض إخوانه بهر جديد. وكان

هذا الزواج — زواج امرأة الأب — عند القليل من العرب
 وكان أكثرهم يستقبحه ولا ينكح الامهات ولا البنات ولا
 يجمعون بين الاختين . وكان بينهم ايضاً من يتزوج بابنته
 كما يفعل المجوس . وكان من عوائدهم في الزواج الذي بإيجاب
 وقبول ان تعرض الآباء على بناتهم أمر الزواج قبل العقد
 عليهن وبعد قبولهن يمدّ يده الى الخاطب أو الى أبيه أو لمن
 يكون وكيلاً عنه في الطلب ويحجب سؤاله بعد ان يتفقا على
 مهر معلوم للزوجة ثم يتواعدان على يوم معين للزفاف بحضرة
 شهود عدول فاذا كان اليوم المعلوم أولموا الولائم احتفالاً
 بزفاف العروسين ثم تضرب لهم قبة فيدخل عليها بها وينثر
 على الحاضرين النثار . ونثار العرب في أعراسهم التمر . أما
 الصداق للمرأة فكان لا بد منه في الجاهلية وربما بلغ مبلغاً
 عظيماً ولذلك كانت العرب تقول اذا ولدت لاحد من بنات «هنيئاً
 لك الناجفة» أي المعظمة لمالك لانك تأخذ مهرها فتضمه لمالك
 فينتفع . فلا يمكن الرجل أن يتزوج بدون اصداق الزوجة
 شيئاً يعطيها بعضه قبل دخوله عليها وبعضه يبقى ديناً عليه

تستوفيه منه متى طلقها أو من تركته بعد موته
واما الطلاق فكان اذا لم تحسن المعاشرة بين الزوجين
فيكون للمرأة الحق في ان تطلق كما ان للرجل كذلك بقوله
لها « الحق بأهلك » وعلامة طلاق المرأة هو ان تحول بيتها
المصنوع من الشعر او الوبر مثلاً الى جهة مخالفة لجهته الاصلية.
ولما جاءت الشريعة الاسلامية أبطلت تلك الانكحة
العربية القبيحة. ولونظرنا لشرائع الأمم الاخرى التي كانت
معاصرة للعرب قبل ظهور الاسلام كالروم وهم أصحاب النفوذ
على المسكونة في ذلك الوقت مثلاً لوجدنا عندهم انكحة تشبه
ما كان منها لدى العرب بل ربما فاقتها شناعة وقباحة وكذلك
كان الحال عند الفرس واليونان

تقويم العرب في الجاهلية — كانت الأمم السالفة تؤرخ
بالحوادث العظام وبملك الملوك أما بنو اسماعيل فأرخوا ببناء
الكعبة ولم يزلوا يؤرخون بها حتى تفرقت معد وكان كلما
خرج قوم من تهامة ارخوا بخروجهم ثم ارخوا بعام الفيل
وبيوم الفجار وكانت معد بن عدنان تؤرخ بغلبة جرهم العماليق

واخراجهم اياهم من الحرم ثم أرخوا بأيام الحروب كحرب
 البسوس وحرب داحس وكانت حمير وكهلان تؤرخان
 بملوكهم التابعة وأرخوا بنار غرار: نار كانت تظهر ببعض
 حرات اليمن . وأرخوا بسيل العرم ثم أرخوا بظهور الحبشة
 على اليمن . وكانت العرب الى عهد رسالة النبي تؤرخ بعام الفيل
 ويوم الفجار وبت التاريخ كذلك الى أن ولي عمر بن الخطاب فتقرر
 الأمر على أن يؤرخوا بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام الى
 المدينة وتركه ارض الشرك فجعلوا التاريخ من المحرم أول عام
 الهجرة وكان هذا التقرير في سنة سبع عشرة او ثمانى عشرة من
 الهجرة بعد أن قدموا التاريخ على الهجرة شهرين وجعلوه من
 الحرم وأثبت المرحوم محمود باشا الفلكي أن دخول النبي صلى الله
 عليه وسلم المدينة المنورة كان يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢
 من الميلاد وهذا اليوم يوافق ١٠ تشرى عند اليهود وهو يوم
 عاشوراء عندهم

وأجمع المؤرخون على أن الوثنيين من العرب كانوا
 يحسبون أوقاتهم بالسنة القمرية والشمسية ولكن ظواهر

عبارات المنسرين وشرح الحديث الشريف وأئمة اللغة تفيد
 أن العرب لم يستعملوا البتة سوى السنوات القمرية المهمة
 وقد وقع هذا الخلاف بعينه بين علماء الفرنج ولقد أثبت فقيده
 مصر المرحوم محمود باشا النفاكي في كتابه « نتائج الانهام في
 تقويم العرب قبل الاسلام » الذي ترجمه للعربية حضرة معاصرنا
 الفاضل احمد بك زكي ان العرب لم يستعملوا سوى السنين
 القمرية المحضة قبل ظهور الاسلام وانهم كانوا يحسبون أشهرهم
 بمقتضى سير القمر وأن الشهر عندهم إما ٣٠ يوماً أو ٢٩ يوماً
 والاسماء التي كانت الجاهلية تطلقها على شهورها هي
 عين التي نستعملها نحن الآن ^(١) وكانوا يعتبرون أربعة منها

(١) ان أسماء الشهور المعلومة الآن وضعت في عهد كلاب بن
 مرة أحد اجداد النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك قبل الاسلام
 بقرنين تقريباً واما أسماؤها القديمة فليست معروفة بكيفية معينة
 مضبوطة. قال الخطيب خير الدين المدني في تذكرة: « ان المحرم كان
 يقال له عند الجاهلية المؤتمر لانه أول السنة فكل شيء من أقصيتها
 يؤتمر فيه. وصفر الناجر من النجر أي شدة الحر. والربيع الاول
 الحوان من الحيانة. والثاني الصوان من الصيانة. وجادى الاول الزباه

محرمة ويسمونها الاشهر الحرم لاعتقادهم حرمة التال فيها من قبل ظهور الدين المحمدي بمدة طويلة وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم فكانوا يرغبون فيها السلام ويكونون عن الحرب والكفاح وتتحسم الخصومات وتزول العداوات وتد

وهي الداهية الكبيرة. والآخرى البائد لكثرة القتال والقتل فيه. ورجب الاصم لانهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا تسمع فيه أصوات السلاح. وشعبان الواعل وهو الداخل على قوم ولم يدعوه لهجومه على رمضان. ورمضان الباطل وهو كوزي كال به الحمر. وشوال العاذل لانه من أشهر الحج فكان يثنيهم عن غير مهماته. وذو القعدة رنة لان الانعام كانت ترن فيه لقرب النحر. وذو الحجة ترك لانهم كانوا يتركون الابل فيه. وتختلف أسماء هذه الشهور القديمة في روايات أخرى كما اختلفوا أيضا في تعليل تسميتها بتلك الاسماء. فقال المرحوم محمود باشا الفلكي: «ان العرب أطلقت على الاشهر أسماء تناسب الحوادث الجوية أو غيرها التي وقعت في سنة التسمية فقط ولم يرسلوا أنظارهم الى ما وراء ذلك لجهالهم بأنه بعد مضي سبع عشرة سنة تنقل شهور الصيف في الشتاء وبالعكس وكذلك لما غيروا الاسماء القديمة راسبديلوها بالاسماء المستعملة الآن لم يراعوا الا الاحوال التي كانت جارية في وقت التسمية فأول شهورهم المحرم سمي بذلك لان من شهورهم أربعة حرما واحد فرد وثلاثة سرد فالثلاثة السرد ذو القعدة وذو

قال المسيو كوسان دوبرسوال في هذا الصدد ما معرّبه
 « ان ذلك نوع من الهدنة جعلها الله تعالى لحكمة بالغة في
 في أمة دأبها شن الغارات ودينها تحريك النتن لكونها
 اعتادت السلب والنهب فانه يترتب على هذه الهدنة منع
 القبائل ابادة بعضها وتحديد أوقات معينة يأمن فيها الانسان
 على نفسه ونفيسه فتروق سوق التجارة حيث تكون آمنة

الحجة والمحرم ورجب وكانوا يحرمون القتال في هذه الشهور كما أسلفنا
 ولا يتعرضون لاحد فيها بالقتل والدم وان كان عنده دم . ثم صفر
 سمي به لما كان يعتريهم من مرض يصفر الوانهم ثم شهر ربيع الاول
 وشهر ربيع الآخر سميا بالربيع لانهما كانا يأتيان في الخريف وكانت
 العرب تسمى الخريف ربيعاً ثم جمادى الاولى وجمادى الثانية سميا
 بذلك لاتيانهما في أيام الشتاء عند جهود الماء ووقع الجليد ثم رجب
 وسمى بذلك لانه يقال فيه ارجبوا أى كفوا عن القتال ثم شعبان
 سمي به لان شعب القبائل فيه الى طلب المياه والغارات ثم رمضان
 سمي به لانه كان يأتي حين برء الحر ومرض الارض ثم شوال لقولهم
 شولوا أى ارحلوا وقيل بل سمي به لان الابل كانت تشول فيه
 بأذنابها لشهوة الضراب ولذلك لا تجوز العرب فيه التزويج ثم ذوالقعدة
 لعودهم فيه عن القتال وذو الحجة لاقامتهم الحج فيه . اهـ

مطمئنة» ومما سبق يدرف انه كان للعرب في كل سنة وقتان
 نزول فيهما الضنآن وتذهب الاحقاد أحدهما مدة شهر واحد
 والثاني مدة ثلاثة شهور متواليات ولكن تحريم القتال في
 الثلاثة شهور المتواليات شق على قوم ألغوا الحروب واتخذوها
 وسيلة للتعدي فلم يستطيعوا مقاومة أهوائهم الغريزية فلاجل
 أن تقضى العرب وطرها من الغزو اذا انفتحت أبوابه ولا
 يفوتها مغنم من تهائم اسبابه سنوا الذى الذى هو تأخير
 حرمة شهر محرم الى شهر غير محرم ليوفقوا بين أهوائهم
 الحربية وفرائضهم الدينية فكانوا من وقت الى آخر يؤخرون
 تحريم شهر محرم الى الشهر الذى يتلوه بحيث كانوا يلتزمون
 مراعاة شهرين محرمين متتابعين بدلا من ثلاثة ولما ظهر
 الاسلام ابطال الذى وأخبر الله عز وجل عنهم بذلك بقوله
 «انما الذى زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه
 عاما ويحرمونه عاما»

وكانت الجاهلية تستعمل قديما الاسماء الآتية للدلالة
 على ايام الاسبوع وهى أول «الاحد» وأهون «اى الاثنين»

وجبار « اى الثلاثاء » ودبار « اى الاربعاء » ومؤنس « اى
الخميس » وعروبة « اى الجمعة » وسنان « اى السبت »
وذهب المرحوم محمود باشا الفلكى الى أن العرب كانوا يجهلون
بالكلية تقسيم اليوم الى ٢٤ ساعة
ضرافات العرب ومعتقداتهم — وكان العرب يعتقدون
بالجن والغول والسحر والهواتف والكهانة والعرافة والطيقة
والزجر والقيافة والعيافة والتراسة والتنجيم وصدق تخليط
الزمل ويعتقدون أن من خرج فى سفر لو التفت وراءه لا
يتم سفره وان من علق عليه كعب ارنب لم تصبه عين ولا سحر
ويزعمون أن الحية تهرب من الارنب لكونها تحيض وان
المرأة اذا احبت رجلا واحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق
عليه برقعها فسد جبهما وان الرجل اذا قدم قرية خاف وباءها
فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما ينهق الحمار لم يصبه
وباءها وان الرجل اذا ضل فى سفر وقلب ثيابه اهتدى وان
الناقة اذا نفرت وذكر اسم أمها سكنت وكانت لهم خرزة
اسمها السلوان لو حكها عاشق وشرب ما يخرج منها سلى

وتصبر وكانت النساء لا يبكين على مقتول حتى يؤخذ بثاره
وأن الغلام اذا سقط سنه فرمى به في عين الشمس بسبابته
وابهامه وقال أبدلى أحسن منها فانه يأمن على نفسه الفلج
والعرج والجعر وكانوا اذا ارسلوا الخيل على الصيد فسبق
واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد الذي يصيدونه علامة
على ذلك وكان فيهم ايضاً من المعتدات الفاسدة الرتم وهو
اذا أراد أحدهم سفراً عمد الى شجرة فيعقد غصناً منها فاذا
عاد من سفره فوجده قد انحل قال قد خالنتى امرأتى وان
وجده على حاله قال لم تخنى. والرتمة وهي اذا مات أحدهم عقلوا
ناقة عند قبره حتى تموت ويزعمون انه اذا بعث ركبها والتفقت
والتعمية وهي ان الرجل اذا بلغت إبله ألفا قلع عين النحل
ويزعمون أن ذلك يدفع عنها العين فاذا زادت على الالف
فتأ عينه الاخرى وكانوا اذا أصيبت الابل بالجرب أو بالعر
— وهوداء يشبهه — يكونون السائمة ويزعمون ان ذلك يبرئ
السائمة وكانت البقر اذا امتنعت عن الشرب يضربون الثيران
زاعمين ان الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب

ويزعمون ان الحية تموت من أول ضربة فاذا شئت عاشت
 ويزعمون أن الانسان اذا قتل ولم يؤخذ بثاره يخرج من رأسه
 طائر يسمى بالهامة ولا يزال يصيح على قبره ويقول اسقوني
 الى ان يؤخذ بثاره ويقولون ايضاً انها تخبره بما يكون بعده
 وقال بعضهم

هامي تخبرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها
 وكانوا يزعمون ان في البطن حية تسمى الصنر تعض
 الانسان اذا جاع فلما جاء الاسلام قال النبي صلى الله عليه
 وسلم لا هامة ولا صنر

معتقدات العرب وديانتهم - وقد دخل بلاد العرب
 جميع أديان المشركين فكان اقدم أديانهم المجوسية وعبادة
 الاوثان (١) التي تسلطت في بلادهم مدة من الزمان وكان

(١) اساس المجوسية عبادة الاجرام السماوية وعبادة العرب
 لها في ايام جاهليتها ضرورة لانهم أكثر الناس حاجة الى تلك الاجرام
 فهي تهديهم لاسفارهم وتدهم على جهات مسيرهم ولا يزالون يستعينون
 بها على ذلك للآن فضلا عن تفاؤهم ببعض الاجرام وتشاؤمهم ببعض
 الآخر. واشهر من تدين بالمجوسية في العالم أمة الفرس وعندهم أخذ

يخاطبها القول بالاصلين : الخير والشر ثم أدخل فيها مجوس
الفرس مذهب زرادشت ومن وقتئذ مزجوا عقائدهم الاصلية
بعبادة الشمس والنجوم ثم سرت اليهم بعض عقائد اليهود

الناس عبادة الاجرام وفي جهاتهم العرب فاتهم قلدوهم بعبادتها وبنواها
الهياكل على مثال هياكل الفرس وحجوا اليها فقد كان بجزيرة
العرب سبعة هياكل للسيارات السبعة تسمى البيوت . وما لبثت المجوسية
ان تحولت من بعض وجوهها الى عبادة الاصنام واضمحلت من جهة
أخرى امام الديانتين اليهودية والنصرانية فجاء الاسلام وليس من
المجوس الا جماعة قليلة أكثرهم من بنى تميم من العدنانية وكانت
منازلهم بأرض نجد وما والاها الى اليمامة ومنهم زرارة ابن عديمة
وابنه . ومن آثار العرب الآن من المجوسية اعتقادهم بالانواء ونسبة
التغيرات الجوية الى طلوع بعض النجوم او غيابها

أما الوثنية فالعرب اقتبسوها من الامم القديمة كالكلدان
والفنيقيين والمصريين وغيرهم في اقدم الازمنة فكانت كل قبيلة تتخذ
صنما تنصبه في ارضها فتعبده وتستخيره حتى انتشرت تلك العبادة
وغلبت على المجوسية فجعلوا الكعبة هيكلاً عمومياً لها ونصبوا فيه
التماثيل التي بلغ عددها عدد أيام السنة على ما قيل ولما جاء الاسلام
انمحت كلها وكسرها النبي صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة

الذين كانوا يحكمون على سواحل البحر الاحمر من زمن داود
وسليمان عليهما السلام حتى أتت بعض قبائل من تجار بني
اسرائيل نزلت بسواحل الحجاز واليمن^(١) فلما ظهر دين

(١) يظهر ان اليهودية قديمة العهد في جزيرة العرب لان
اليهود ما برحوا منذ أول عهدهم ينزحون الى بلاد العرب مما يلي
بلادهم اما فراراً من القتل أو التماساً للرزق
ويؤخذ مما رواه أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغانى اثناء
كلامه عن السمؤال بن عادي اليهودي أن اليهود سكنوا يثرب في القرن
الخامس عشر قبل الميلاد والظاهر أن بعضهم بقي على ما تنبأه من
عبادة الاصنام بتصر ومنهم اقتبس الاوس والخزرج عبادة الصنم
وقال المقرئ في كتابه عن كبس الشهير ان العرب تعلموه من
اليهود الذين نزلوا يثرب على عهد صموئيل النبي (في القرن الحادي
عشر قبل الميلاد) ولما خربت اورشليم على عهد طيطوس (Titus)
في القرن الاول للميلاد هاجرت جماعة كثيرة من اليهود الى بلاد
العرب واقاموا فيها وأخذوا في نشر دياتهم بين أهلها فلم يأت القرن
الثاني للميلاد حتى أصبحت الديانة اليهودية شائعة في كثير من بلاد
العرب . وفي رواية ان أسعد أبا كرب ملك اليمن هو الذي أدخل
اليهودية بلاد اليمن حوالي القرن الاول قبل الميلاد . ويقول ابن
خلدون ان أول من أدخلها بين العرب ذونواس أحد النبابة ملوك

النصرانية وبث رسل الحواريين هذا الدين في بلاد الهند لم يجتازوا بلاد العرب من غير أن يتركوا بها شيئاً من آثار الانجيل^(١) فبذلك كانت السيادة في بلادهم لاربعة أديان الا أن عبادة الاوثان كانت أ كثر انتشاراً من غيرها. هذا وقد

اليمن وكان اسمه يوسف فهود معه أهل اليمن في أواخر القرن الخامس للميلاد وفي رواية أخرى ان أهل اليمن تهودوا في القرن الرابع وبالجملة لم يأت القرن السادس للميلاد حتى أصبحت الديانة اليهودية منتشرة في القبائل وأشهر يهود العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الحرث بن كعب وبنو كندة . اهـ

(١) يعلم من تقاليد الكنيسة الشرقية القديمة أن القديس توما أول من بشر بالنصرانية في بلاد اليمن أثناء مسيره الى الهند وان بولس الرسول بشر بها في الشام فاعتنقها كثيرون من عرسل الذين خلفتهم دولة الساسنة . ولا يبعد أن قوافل العرب التي كانت تقد الى الشام والاراق في الاجيال الاولى للميلاد كانت تقبض بمض القائد النصرانية وتؤثرها على الوثنية . على أن الاضطهادات النصرانية في القرنين الثالث والرابع حملت النصارى على المهاجرة الى بلاد العرب والاقامة فيها ونشر تعاليمهم بين أهلها وهناك روايات كثيرة عن اصل تنصر بعض قبائل العرب وأول من تنصر منهم وبالجملة فان النصرانية كانت منتشرة في جزيرة العرب قبل الاسلام وأشهر من تدين به

كان بين بعض قبائل العرب من يدين بدين التوحيد وهو دين إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل وكان عبدة الاوثان يحجون الى الكعبة المشرفة ويوجهون اليها امانيتهم وعباداتهم وكانت قريش تصوم عاشوراء^(١) وكان كثير من العرب يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو اعتقاد اليعاقبة وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد أن من نحرث ناقته على قبره حشر راكباً ومن لم يفعل

ربيعه وغسان وتنوخ وحير وتغلب وبعض قضاة وطى وسكان بخران وعرب الحيرة ولتنصر عرب الحيرة حكاية مشهورة حدثت للنعمان لا محل لها هنا

(١) قيل ان عاشوراء عبراني معرب لفظ عاشور وهو العاشر من تشرى اليهود الذي صومه صوم الكبور وانه اعتبر في شهور العرب فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود وقد فرض في التوراة صوم هذا اليوم ولا يزال اليهود الى هذا العهد يحافظون على صيامه ويتقربون باكرامه وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يوم عاشوراء اليهود كما سبق ايضاحه

ذلك حشر ماشياً ومنهم من كان ينكر ذلك وبقوا في غيابة
جهلهم يعمهون حتى سطع النور الاسلامي في أفق العالم
فانكشفت غيوم الشرك وآب الكل لعبادة إله فرد صمد
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

في لغة العرب وآدابهم وأسماءهم وشعاراتهم وأوقافهم
وكنائسهم — لما كانت العرب تعمل على غرائزها الفطرية
كانت المملكة الأصلية الجبلية فيهم على حد سواء واتحدت
ألسنتهم وأفكارهم وحماسهم وبلاغة مقالهم وإنما اختلفت
فيهم لغات الأحياء والقبائل ومخاطبات البطون والعشائر (١)

(١) لما ظهر الاسلام كان العرب قبائل متفرقة ولكل قبيلة
منهم لغة أو لهجة خاصة بها وكان الاختلاف بين هذه اللهجات قليلا
الافى أطراف البلاد حيث خالط العرب الحبش والقبط والروم والنبط
وفي بلاد اليمن لان لغة اليمن الحميرية كانت قد صارت بعيدة عن بقية
لغات العرب لاسباب سياسية ومحلية . وسبب قلة الاختلاف بين لغات
العرب في الحجاز وما جاورها كثرة ارتباط العرب واختلاطهم بداعي
الغزو والاسر وعكسهم على زيارة البيت الحرام وانشادهم الاشعار
التي تحفظ وتسير بها الركبان الى كل الأحياء فتقوم مقام الكتب

يعنى اتحاد اللسان الذى به الفهم والتفهم واختلف متعلقه وأحوال التلفظ به فى التأدية وأسماء المسميات وكنهيات الحركات والسكنات ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية لا يعترىها تغيير والا لكان لحنًا وغلطًا ولا يجوز أن يتوهم فى العربى البدوى أن يغلط فى نطقه ويأجن فيه وان تعمد ذلك لا يطاوعه لسانه فالعرب معصومون من لحن اللسان وإطلاق الألفاظ على غير معانيها وانما يجوز أن يخطئوا فى وضع بعض الألفاظ ولتوضيح ذلك نقول كما ورد فى كتاب مميزات العرب للفاضل حننى بك ناصف إن اللغة العربية وإن كانت فى ذاتها لغة واحدة مغايرة للغة الترئيس والانكيز والامان وبقية الأمم إلا أنها تعدد بالنسبة

والجرائد فى حفظ اللغة ونشرها . فلو كانت بلادهم خصبة وطرق المعيشة فيها ميسورة وهم قبائل متفرقة لا تجمعهم جامعة الملك ولا الدين لاشتد الفرق بين لهجاتهم حتى صارت لغات متفرقة كما حدث لنزوح أفريقية وهنود أمريكا . فلم يتعد عن لغات العرب إلا الحميرية بسبب استقلال أهلها وقيامهم فى المدن واتصالهم بالاحباش وقيام الملك فيهم أزمانا طويلة

للاختلافات التي توجد في السنة المتكلمين بها فلغة هذيل غير لغة عقيل وكلاهما غير لغة قيس وكل منها غير لغة أسد والاربع تتميز عن لغة تميم ويغاير الجميع لغة الحجاز وهلم جرا فالإتحاد والتعدد من جهتين مختلفتين فلا تناقض في الكلام ويمكن تشبيه ذلك بافراد بني آدم فانهم يتحدثون جميعاً في الحيوانية الناطقية بحيث يطلق على كل فرد منهم لفظ انسان ولكنهم يختلفون بميزات أخرى مثل الطول والقصر والسمن والجفاف والبياض والسمره على أن ذلك أمر موجود في كل اللغات كما قدمنا فالخبر بلغة الفرنسيين مثلاً يمكن أنه يميز الباريسي من المارسيلى والاشين من المونيلي بمجرد ما يسمع كلامهم مع أن كلا منهم يتكلم باللغة الفرنسية

ولما كانت لغات العرب لا بد من تداولها في المحاورات والمحادثات والمحاضرات وكان أهل نجد والحجاز مثلاً لا يفهمون لغة اليمن وحمير بل ربما كانت قبائل إقليم لا تكاد تتكلم بلغة واحدة أى لا تستعمل كلمات واحدة في تأدية المعنى الواحد كما قدمنا وكانوا جميعاً مولعين بقول الشعر ونشره

بينهم بدون يأس ممن أبطأ في قوله ثم نطق كالنابغة الذي نبغ
 فيه مرة واحدة واقب بذلك اجتمع الشعراء وأجمعوا رأيهم
 على تحسين اللسان العام الذي يكون به التفاهم عند جميعهم لما
 في توحيد اللغة من المزايا والنوائد وانجزوا ذلك وتغلبت لغة
 قريش على كل اللغات الأخرى انزولهم مكة المشرفة وتوليهم
 سدانة الكعبة فلما نزل القرآن الشريف بلغة قريش انشر
 التمدن العربي بها وانضمت قبائل العرب تحت لواء الاسلام
 وتألفت العربية من مجموع هذه اللغات أو اللهجات ولما
 شمل التفتح الاسلامي البلاد واختلط العرب بالعجم ودخل
 كثير من الكلمات العجمية واساليب الاعاجم في صور
 كلامهم العربي وخيف من وقوع اللحن في لسانهم وضع ابو
 الاسود الدؤلي ومن تبعه من الافاضل العلماء علوم اللسان
 العربي لحفظ اللغة ثم اصاب العربية في هذه الاعصر ما
 اصاب غيرها من اللغات الشهيرة من قبلها كاللغتين اللاتينية
 أى ان العلم انحصر في فئة من الخاصة لحفظت على اللغة
 وقواعدها وسار الجمهور في طريق التغيير والتبديل والتجريف

أداة انتشار العلوم بينهم ففسدت لغتهم بذلك وباختلاطهم مع من جاورهم من الشعوب صارت اللغة لغتين لغة الكتابة ولغة التكلم كما هي الى هذا العهد . ولا يخفى ما في إهمال أمر اللغة من المضار أدبياً ودينياً وعلمياً فقد قيل إن ضياع اللغة تسليم الذات . ولذلك اجتهدت كل أمة في المحافظة على لغتها فبقيت محفوظة فيها الا الامة الاسلامية فقد أهملت لغتها العربية وهي لغة دينها الذي يجمعها كلها نهل لها من لبيب يتدبر ويمتدبر بما فات على غيره

والكيفية التي توصل بها شعراء الجاهلية لتحسين اللسان العام وتوحيد اللغة هي أنهم كانوا في أواخر أمرهم اذا نظموا قصائدهم حاولوا ان تكون ألفاظها مأثونة للجميع متعارفة بحيث تفهم معانيها المتصودة منها لجميع أحياء العرب وقبائلهم فتكون من ذلك لسان عربي مشترك بين العرب على اختلاف أحيائهم ولا شك أنه لم يكن في استطاعة أحد غير الشعراء القيام بهذه المهمة لان العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون اليها ولم توجد طرق النشر وقتئذ كما هي

الآن وانما كانوا يرجعون الى تلتى كل طبقة عن فوقها ما
 تواتر من الأخبار والآثار فيتناقلون تواريخ احسابهم ويحفظونها
 محافظة على صفاء انسابهم ولا يهملون معرفة ما اثر قدمائهم
 واسلافهم ووقائعهم وحوادث حروبهم وخطوبهم وعلاقاتهم
 مع من جاورهم وكل هذا بطريق الروايات خلفا عن سلف
 وقد دلت اشعار العرب على وقائعهم التاريخية وايام حروبهم
 وعلى ما كان عندهم من الاخلاق والعوائد دلالة كافية في
 الوضوح وبممارسة قرض الشعر على هذا الوجه المنسجم تتحت
 اللغة العربية وتخلصت من شوائب الركاكة والالكنة واستعمال
 الالفاظ الوحشية والعربية وأثمر قرض الشعر بهذا الوجه
 المتبول فوائد جمة منها انه كان يدعو الى المروءة وعلو الهمة
 ويحمل على الشجاعة والافدام على عظام الأمور فلذلك كان
 لشعراء العرب في ذلك العهد نفوذ تام ورسوخ أقدام واعتماد
 عليهم ووثوق بهم فكان كلامهم حجة به يستشهد وعليه يعتمد
 للسادة الشعراء فضل ثابت ولهم مقام شاخ ومكان
 وهو سلاطين الكلام اماترى كل امرئ منهم له ديوان

وكان الشعراء دون غيرهم هم المؤرخون والنسابون
 والناقلون للحوادث في جزيرة العرب بتمامها لاشتمال قصائدهم
 على الوقائع والمآثر والنوازل والمفاخر وتحول الأحوال من
 مكان الى مكان وتنقل الحوادث من زمان الى زمان فكانوا
 بدون شك ولا شبهة أمراء الكلام وأهل الحل والابرام
 ولما كانوا هم المحسنين والمقبحين والمادحين والقادحين
 والمفرين والمحذرين كانوا يرفعون القبائل ويخفضونها
 ويشرفونها ويضعونها كما يشاؤون مدحاً وهجواً تلويحاً وتصريحاً
 تعريضاً وكنية *والشعراء السنة حداد*
 وللشعراء السنة حداد *على العوراء ما برحت ذليلة*
 والكن السعيد من اتقاها *ودارها مداراة جميلة*
 ولذا كان يخشى بأسمهم ويحترم جنباتهم وكثيراً ما كانت
 تجتمع العرب تحت خيامهم وقبابهم يتناشدون الاشعار
 ويتغنون بها بالانغام والايقاعات فتطرب السامع وتحلو على
 لسان منشدتها وناظمها كما تلهيها أذن السامع فكأنما البدوي
 من العرب مخلوق من أصل الفطرة لقرض الشعر وابتكار

المعاني البديعة والتفنن في انحاء الكلام
وقد أنشأ العرب جمعيات احتفالية في أسواق دورية
ذات ميادين شعرية كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي
المجاز ولكن سوق عكاظ هو المتميز منها بالسباق في الشعر
وعكاظ قرية بصحراء بين مكة والطائف على ثلاث مراحل
من مكة المشرفة وكان فيها سوق أسبوعية يوم الاحد
وسوق سنوية وهي المقصودة هنا كانت تقوم هلال ذي
القعدة ويستمر موسمها عشرين يوماً يجتمع فيها قبائل العرب
فيتعاكضون أى يتفاخرون ويتناشدون وكان من فوائدها
ان العرب يتعارفون فيها ويتحابون وكانت فرسان العرب اذا
كان أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً
يتقنعون حتى لا يعرفوا . وان كانت هذه السوق تؤذن
بالتعامل والاخذ والعطاء الا انه كان في الحقيقة جل الغرض
منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية
لابداء نتائج افكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم
وكان يجتمع بها سادات العرب وملوكهم وقبائلهم ورؤساء

العشائر وعرفاؤها ومثل عكاظ في ذلك سوق ذى المجاز
 خلف جبل عرفات وأسواق آخر وكانت هذه الاسواق
 ساذجة بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة لكنها مهية
 يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات العرب ويقوم الشاعر
 ويرزى حومة الميدان وأرباب المجالس ثابتون في مكانهم فينشد
 الاشعار من قريضه وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون
 على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها ويحفظونها عن ظهر
 قلب فيكتب في المحفل العام ما يستحسن من التصانيد بحروف
 الذهب على منسوج الحرير ويلق على الكعبة المشرفة
 ليخلد اسم صاحبه ويبقى على مدى الايام رسمه ولا يزال في
 الخلف بقايا مآثر السلف ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع
 مخفوظة الى عهدنا هذا وقد اعتنى علماء الاسلام بشرحها لما
 اشتملت من البلاغة والفصاحة والصناعة الشعرية وكانت
 العرب اذا أتت في الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة
 من قريش قبل الدخول في السوق ومن لم يضع سلاحه
 عندهم عرض نفسه للقتل

وكما كانت هذه السوق مجمع الفصاحة والفروسية
كانت مجمع مكارم الاخلاق أيضا حتى كان بعض أشراف
الشعراء كعامر بن الطفيل العامري ينادى مناديه في هذه
السوق « هل من راجل فتحمله أو جائع فنطعمه أو خائف
فنتؤمنه » وكانت أيضا هذه السوق كديوان ملوك العرب
فكان بعضهم يأخذ ماله من الاثاوة والمرتبات على التبائل
كل سنة بالموسم وكانت العرب تنقل من سوق عكاظ
بعد انفضاضها الى سوق مجنة وتقيم فيها عشرين يوما ثم
تنقل منها الى سوق ذي المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج وكان
سوق عكاظ الذي هو مجمع المفاخرة قد يتسبب عنه المقاتلة
والحرب وممن اشتهر بالخطابة فيه قس بن ساعدة وهو أول
من قال « أما بعد » في كلامه وهو القائل

لقد علم الحى اليمانون أئنى اذا قلت أما بعد أئنى خطيبها
وقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ولم يره
وخطب خطبة في سوق عكاظ حث فيه على اتباع دينه وكان
متمرا بالبعث والعقاب فصيحاً اذا خطب عمر عمرأ طويلاً

وكان مقرا لله تعالى بالوحدانية تضرب بحكمته الامثال
ومن خطبه خطبة شهيرة قالها وهو على جبل له أحمر بالسوق:
«أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا: ان من عاش مات ومن
مات فات وكل ما هو آت آت. مطر ونبات. وارزاق واقوات.
جمع واشتات. وآيات بعد آيات. ان في السماء خبرا. وان
في الارض لعبرا. نجوم تمور. وبحار تغور. وسقف مرفوع.
ومهاد موضوع. اقسم بالله قسما لا حاشا ولا آثما ان الله دينا
احب من دينكم الذي ائتم عليه. ونبيا قدا ظلمكم اوانه. وادركم
إيابه. فطوبى لمن ادركه فآمن به وهداه. وويل لمن خالقه
وعصاه.» ثم قال: «مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟
أرضوا بالمقام فأقاموا؟ ام تركوا هناك فناموا؟ يامعشر بني
آدم أين الآباء والاجداد؟ وأين المرضى والعوادم؟ طحنهم
الثرى بكلكاه ومن قهم بتطاولة؟ كلا بل هو الله الواحد
المعبود ليس بوالد ولا مولود؛ وانشد

في الداهيين الاولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد للقوم ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي الى ولا من الباقي غابر
ايقنت اني لا محالة حيث صار القوم صائر
ولما قدم الجارود بن عبد الله على النبي صلى الله عليه
وسلم سأله عن قس فقال: هلك. فقال: «رحم الله قسا اني لارجو
أن يبعثه الله أمة وحده»

وبالجملية فقد كان محفل عكاظ معدن المفاخر التليدة
والطارفة ولم يكن وحده في جزيرة العرب بل كانت أسواق
اليمين ايضاً مركزاً للمفاخر الظاهرية والمنافع العمومية والزينة
والزخرفة فكانت بضاعتها هي النافقة

شعراء العرب والمعلقات السبع — قد اتفق الكل على
ان المعلقات السبع هي من أجود اشعار العرب واشهرها
وقال صاحب تذكرة الحكم في طبقات الامم: «ان العرب
بقيت تسجد لهذه المعلقات مدة طويلة لفصاحتها الى أن ظهر
الاسلام وابطل القرآن بسطوة فصاحته اعتبار العرب لهذه
المعلقات» واصحابها هم:

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندي وكان موته قبل
الهجرة بنحو اثنين وثمانين سنة ومطلع معلقته
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فخومل

وقد اشتهرت هذه المعلقة حتى صار يضرب بها المثل
في الامر الواضح فيقال: اشهر من قفانبك. وسنأتى في الفصول
الآتية على ترجمة هذا الشاعر عند التكلم على ملوك كندة
(٢) طرفة بن العبد البكري وكانت وفاته قبل الهجرة
ثمان وخمسين سنة ومطلع معلقته

خلولة اطلال بيرة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وكان طرفة في حسب كريم وعدد كثير من قومه
البكرين وكان شاعراً جريئاً على الشعر بلغ مع حداثة سنه
ما بلغ القوم مع طول اعمارهم. مات أبوه وهو صغير ومن شعره:
وأعلم علماً ليس بالظن أنه اذا ذل مولى المرء فهو ذليل
وان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل
وله أيضاً

ولا أغير على الاشعار اسرقها غنيت عنها وشر الناس من سرقا
وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا
وقد مات مقتولا ولم يناهز العشرين من عمره وقصة
قتله مشهورة في كتب الادب

(٣) عمرو بن كلثوم التغلبي وكانت وفاته في السنة

الاولى من الهجرة ومطلع معلقته

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا
وهو من أجود العرب شعرا واعزهم نساء وأكثرهم امتناعا
في شعره حتى قال بعضهم: «لله در عمرو بن كلثوم لو أنه رغب
فيما رغب فيه اصحابه من كثرة الشعر ولكن واحدة أجود
من مثاتهم» ويذكرون أنه عاش مائة وخمسين سنة وسبب
موته مشهور ايضا

(٤) الحرث بن حنزة اليشكري ومولده قبل الهجرة

بأثنين وثلاثين سنة وهو من اهل العراق ومشاهير الشعراء
ومطلع معلقته

اذنتنا بينها أسماء رب ذاويل منه الثواء

ومنها

لا يقيم العزيز بالبلد السهل ولا ينفع الذليل النجاء
ليس ينجي الذي بوائل منا رأس طود وجرة رجلاء
ومن شعره

عش بالجدود فما يضرب الجهل مأوتيت جدا
والعيش خير في ظلال النوك ممن عاش كدا
ولقد رأيت معاشرهم جمعوا لهم مالا وولدا
وهو ذباب طائر لا يسمع إلا أذان رعدا

(٥) ليلى بن ربيعة العامري ويكنى بأبي عقيل وكان
مولده قبل الهجرة بأربعين سنة وهو من أهل العراق أيضاً
أدرك الإسلام واسلم ومطلع معاقته

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبى غولها فرجامها
ومن شعره في الجاهلية

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع
فلا جزع أن فرق الدهر بيننا فكل امرئ يومابه الدهر فاجع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد ما هو ساطع

وما المال والاهلون الا ودائع ولا بد يوما ان تردّ الودائع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع
وقد عاش عمرا طويلا والى ذلك يشير بقوله

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليبد
روى أنه لم يقل شعرا منذ أسلم وكان يقول: ابدلني الله
به القرآن. وله في الكرم آثار مشهورة: حكى انه كان عليه نذر
من قديم ان لا تهب ريح الصبا الا وينخر ويطمع فهبت يوما
وهو فقير لا يملك شيئا فعلم بذلك امير العراق وقتئذ الوليد
بن عتبة فخطب الناس وقال: انكم تعرفون نذرا أبى عتبيل على
نفسه وقد أصبح اليوم فقيرا فأعينوه. ثم نزل فبعث اليه بمائة
ناقة وكتب اليه يقول

أرى الجزار يشحذ مديته اذا هبت رياح بنى عقيل
طويل الباع ابلغ جعفري كريم النفس كالسيف الصقيل
يهش اذا الضيوف تداولته فيقرى بالبعير وبالفصيل
وكان للبيد بنت فقال لها اجيبي الامير لانى تركت قول
الشعر فقالت:

اذا هبت رياح بني عتيل دعونا عند هبتها الوليد
 بامثال الهضاب كأن قوما عليها من بني حام قودا
 أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها واطعمنا الثريدا
 فعد ان الكريم له معاد وظني في ابن عتبة ان يعودا
 فقال لها : أحسنت يا بنية لولا المسألة. فتالت : يا أباي ان
 مثل هذا لا يستحي من مسأله. ومات ليبدوله من العمر مائة
 وأربعون سنة.

(٦) زهير بن أبي سلمى المزني كان شاعرا مشهورا
 في الجاهلية من أهل نجد مات قبل البعثة بسنة ومطلع معلقته
 أمّن أم أوفى^(١) دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتشلم
 ومن أبياتها الجارية مجرى الحكم قوله
 سممت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمازين حولا لا أبالك يسأم

(١) ذكر ابن الأعرابي أن زهيرا تزوج امرأتين الأولى
 اسمها أم أوفى وهي التي ذكرها في البيت الأول من معلقته ولدت
 له أولادا ماتوا ثم تزوج غيرها وهي أم ابنه كعب وبجير ففارت من
 ذلك فطلقها ثم ندم

رأيت المنيا خبط عشواء من تصب تته ومن تخطى يعمر فيهرم
 رأيت سفاه الشيخ لاحم بعده وان التقي بعد السناهة يحلم
 واعلم ما في اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عني
 ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنهم
 ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم
 ومن يك ذا فضل ويخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم
 ومن هاب أسباب المنيا ينلنه وان يرق أسباب السماء بسلم
 ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
 ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
 ومن يعترب بحسب عدو اصدقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
 ومهما تكن عند امرئ من خلية وان خالها تخفى على الناس تعلم
 وكائن ترى من معجب لك شخصه زيادته او نقصه في التكلم
 لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
 سألنا فأعطيت وعدنا فعدتم ومن اكثر التسأل يوم ما سيحرم
 ويقال انه رأى قبل موته بسنة في نومه كأنه رفع الى
 السماء حتى كاد أن يمسا بيده ثم انقطعت الجبال فدعى بنيه

وقص عليهم رؤياه وقال لهم: انه سيكون بعدى أمر يعلو من
 اتبعه ويفلح فخذوا بحظكم منه. ثم لم يعيش الا يسيرا حتى مات
 فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم
 بجير بن زهير وحسن اسلامه فلامه اخوه كعب بن زهير بقوله
 ألا بلغا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
 سءالك بالمؤمن كأساروية فأنهلك المؤمن منها وعلكا
 فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هجو كعب له اهدر دمه
 فكتب إليه أخوه بجير يعلمه بذلك فضاقت بكعب الارض
 ولم يدرفيم النجاة فأتى أبا بكر فاستجاره فقال: اكره أن اجير
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اهدر دمك. فأتى عمر
 فقال مثل ذلك فأتى عليا فقال: « ادلك على امر تتجوبه: هو أن
 تصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا انصرف فقم
 خافه وقل مديك يا رسول الله أبايك فانه سيناولك يده
 من خلفه فخذ يده فاستجره فاني ارجو أن يرحمك. » ففعل فلما
 ناوله رسول الله يده استجاره وأنشد قصيدته التي مطلعها
 « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » إلى آخرها فأجازه عليها

ببردته الشريفة . ولا به زهير قصائد غير المعلقة كانت تلقب
 بالحوليات وكان ينظم الواحدة منها في أربعة أشهر ويهذبها
 بنفسه في أربعة أشهر ويعرضها على أرباب الشعر في مثلها
 فلا يشهرها حتى يأتي عليها حول وكان زهير منقطعا الى خاله
 بشامة بن الغدير معجبا بشعره وكان بشامة رجلا مقعدا ليس
 له ولد حازم الرأي كثير الادب وكان يستشير قومه « بنو
 غطفان » اذا أرادوا أن يغزوا واذا رجعوا قسموا له مثل ما
 يقسمون لافضلهم فذلك كثر ماله وكان أسعد غطفان في
 زمانه فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبني
 اخوته فأتاه زهير فقال يا خاله لو قسمت لي من مالك فقال
 له: يا ابن أختي لقد قسمت لك افضل من ذلك وأجزل . قال
 وما هو ؟ قال شعري .

(٧) عنتر بن عمرو بن معاوية بن شداد العبسي شاعر

بنى عباس وفارسهم ولد سنة ٥٢٥ مسيحية وتوفي سنة ٦١٥
 ويقال له عنتره الفوارس ويكنى بأبي المغلس^(١) وكانت أمه

(١) لم يشتهر أحد من الجاهلية أو الاسلام بين عامة الناس

جارية حبشية اسمها زبيبة سبهاها أبوه في بعض مغازيه
 فاستولدها عنتره وكان أبوه ينكره أوّلاً ولا يدعوهُ ابناً له
 لكون أمه جارية فلما شب وترعرع وتعلم الفروسية وصار
 شجاعاً مشهوراً يردّ العدوّ وشاع ذكره بين العرب دعاه أبوه
 ابناً له وكان عنتره يهوى ابنة عمه عبلة بنت مالك بن قراد
 وكثيراً ما يذكرها في شعره وكان أبوها يمنعهُ من زواجها
 فهام بها واشتدّ وجده وأخيراً تزوّجها بعد جهد طويل ثم
 مات عنها مقتولاً ومطلع معلته

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توسم
 ومنها

وخاصتهم اشتهار عنتره فلا تكاد ترى رجلاً ولا امرأة ولا صبيّاً ولا
 ابنة سواء كان من الجهلاء أو العلماء من الفقراء أو الاغنياء الا وقد
 عرف اسمه أو سمع شيئاً عنه وسبب اشتهاره قصته المشهورة التي لم
 يعب أحد من عامة القراء تلاوتها أو سماعها . وهذه القصة هي عبارة
 عن رواية تاريخية وضعت في أوائل الاسلام وغير معروف تماماً
 واضعها ولكنهم ينسبونها الى الاصمعي « في أوائل القرن الثالث
 للهجرة » لورود اسمه فيها بمنزلة الراوي

فاذا ظلمت فان ظلمي باسل من مذاقته كظم العلقم
فاذا شربت فاني مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحت فما قصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

وكان عنتره مع شدة بطشه اين العريكة حلما سهل الاخلاق
لطيف الحاضرة رقيق الشـعر لا يأخذ مأخذ الجاهلية فى
ضخامة الالفاظ وخشونة المعانى ومن ذلك قوله فى عبلة

يا عبل لا أخشى الحمام وانما أخشى على عينيك وقت بكاءك
وكانت له اليد الطولى فى الحماسة ومن ذلك قوله

انى لا عجب كيف ينظر صورتي يوم القتال مبارز ويعيش
وقوله من قصيدة

حصانى كان دلال المنايا نخاض غبارها وشرى وباعا

وسيفى كان فى الهيجا طيبا يداوى رأس من يشكو الصدا

ولو أرسلت رمحي مع جبان لكان بهيتى يلقى السباعا

ملأت الارض خوفا من حسامى وخصمى لم يجد فيها اتساعا

اذا لا بطل فرت خوف بأسى ترى الاقطار باعا أو ذراعا

ومن شعره أيضا

أحبك يا ظلوم وانت منى مكان الروح من جسد الجبان
ولو أنى أقول مكان روحي خلفت عليك بادرة الطعان



وقد علق الكعبة غير تلك المعلقة السبع معلقة أخرى
كمعلقة الأعشى التي أوّلها

ودع هريرة أن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
ومنها

قالت هريرة لما جئت زائرهما ويلي عليك وويلي منك يا رجل
قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل
وقد ذكر ياقوت في معجمه أشعار العرب مقسمة الى

الانواع الآتية السموط والمجمهرات والمتقيات والمذهبات
والمراثي والمشوبات والملحات وأقدم الآداب التي انتهت
اليها هي أمثال لقمان وهي نثر مقفى ويأتى بعدها منظومات
شاعرين قديمين وهما عامر بن خنيس والمرقس الاصغرو ومن
أشهر شعراء الجاهلية الذين نبغوا فى القرن السادس للميلاد
غير من ذكرناهم عدى بن ربيعة المعروف بالمهلhel وعدى

بن زيد وعديّ بن الابرص وأمّية بن أبي الصلت ويعدونهم
 من الطبقة الاولى والشنفرى وأبو دؤاد الايادى وسلامة بن
 جندل والمثقب العبدى والبراق بن رومان وتأبط شراً
 والسموأل وعلقمة الفحل والحارث بن عباد وخداش بن زهير
 وعروة بن الورد والاسود بن يعفر وحاتم الطائى وأوس بن
 حجير ودريد بن الصمة ويعدونهم من الطبقة الثانية ولقيط
 بن زرارة وغيره ويعدونهم من الطبقة الثالثة. وقد اشتهر
 أيضاً نساء كثيرات فى الشعر والذكاء المفرط كالخنساء التى
 شهد لها النابغة فى سوق عكاظ باليد الطولى فأعجب بشعرها
 وقال لها «لولا ان هذا الاعمى أنشدنى قبلك — يعنى الاعشى —
 لفضلتك على شعراء هذا الموسم» واكثر شعرها فى مرثى
 اخويها معاوية وصخر وقد أدركت الاسلام واسلمت وتوفيت
 سنة ٢٤ هجرية

وقد اجمع علماء الشعر انه لم تكن قط امرأة قبلها ولا
 بعدها اشعر منها. وكانت شريفة الاحساس ذات نخوة
 عربية وشهامة نادرة المثال. وقد اختلف الناس فى تفاضل

الشعراء: فقال قوم أفضلهم امرؤ القيس ومنهم من قال زهير
بن أبي سلمى وقيل عنتر بن شداد وقيل غيره وبطل الاصمعي
من أشعر العرب فقال: عنتر إذا ركب وزهير إذا رغب
والنابغة إذا طرب والاعشى إذا رهب وقال الفرزدق: « أن
الشعر كان جملاً باذلاً عظيماً فنحرج فجاء امرؤ القيس وأخذ
رأسه وعمر بن كاثوم أخذ سنامه وزهير كاهله والاعشى
والنابغة فخذه واطرافه وليد كركته ولم يبق إلا المزارب
والبطن فتوزعناها بيننا »

أما ما حفظ في أيامنا هذه من الأشعار البليغة فهي
موجودة في كتب كثيرة أشهرها ما ورد في جمهرة العرب
لابن دريد وكتاب الاغانى للاصبهاني والعقد الفريد لابن
عبد ربه وفي كتاب الميداني نقلا عن المفضل وفي كتاب
ادب الكاتب لابن الاثير وآخر للنويرى وفي مجموعة الحماسة.
وفي كتابي ابن الاثير والنويرى ومجموعة الحماسة أشعار أخرى
عن الحروب التي كانت بين الروم والفرس أي بين كسرى
أنوشروان وبين جوستينيان وهي الحروب التي اشترك فيها

ملوك الحيرة وملوك غسان من العرب
 علوم العرب ومعارفهم — كان العرب لهم مع تفردهم
 بالفصاحة والبلاغة معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها
 وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها حسبما ادركوه بفرط
 العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب
 المعيشة. وزعم بعضهم ان الجاهلية كانوا على جانب عظيم من
 العلم والفلسفة وان فيثاغورس اليوناني استمدأ أكثر معارفه
 منهم كما رواه الفيلسوف ملك (بورفيروس) ووافقه جماعة
 من المتأخرين وكذلك قام بين العرب بعض أطباء كالحرث
 ابن كلدة الثمقي: يقولون انه رحل الى أرض فارس وأخذ
 الطب عن أهل جند يسابور وغيرها وطبب في أرض فارس
 وحصل مالا ثم ان نفسه اشتاقت الى بلاده فرجع الى
 الطائف ومن أقواله: «من سره البقاء — ولا بقاء — فليساكر
 الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم:
 يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين.
 وبالجمله فقد كانوا يعرفون من الطب ما يحتاجون إليه

فى مداواة ما يـلم بهم وما يعتورهم حسب حالتهم وعواندهم
ومجرباتهم . وفى الحقيقة إنهم كانوا ولا يزالون أقل من أهل
الامصار اضطرارا الى الترف وبالتبعية الى الطب والتقدم فى
علومه كما قاله ابن خلدون لاقتصارهم على أنواع بسيطة من
المأكل وتعودهم الجوع وجوبهم التفار ترقاض أجسادهم
ويكونون بمعزل عن استيلاء الانجرة السامة الحاوية أنواع
النقيعات

أما آدابهم وحكمهم فقد اعترف لهم بالسبق فيها كل
من خالطهم أو وصل اليه كلامهم وشهد لهم بها ملوك الاعاجم
وحسب الانسان ترديد الطرف فى حكم أكرم بن صيفى (١)

(١) تكلم اكرم يوماً بين يدي كسرى فقال: « ان أفضل الاشياء
أعلىها . وأعلى الرجال ملوكها . وأفضل الملوك أعمها نفعاً . وخير
الازمنة أخصبها . وأفضل الخطباء أصدقها . والصدق منجاة . والكذب
مهواة . والشر حاجة . والحزم مركب صعب . والعجز مركب
وطئ . وآفة الرأى الهوى . والعجز مفتاح الفقر . وخير الامور
منقبة الصبر . وحسن الظن ورطة . وسوء الظن عصمة . واصلاح
فساد الرعية خير من اصلاح الراعى . ومن فسدت بطائنه كان

من رجال العرب ليعدرهم قدرهم
ويجمل بنا قبل اختتام هذا الكلام ان نذكر هنا حديثاً
جري للنعمان مع كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين
وقد ذكر كل منهم ملوكه وبلاده فافتخر النعمان بالعرب
وفضاهم على جميع الامم لا يستثنى فارس ولا غيرها فقال
كسرى—واخذته غرة الملك: «يالنعمان لقد فكرت في أمر
العرب وغيرهم من الأمم فوجدت الروم لها حظ في اجتماع
ألقمها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وان لها دينا

كالغص بالماء . وشر البلاد بلاد لا أمير لها . وشر الملوك من
خافه البرئ . وخير الاعوان من يرعى الصحة . وأحق الجنود من
حسن سيرته . ويكفيك من الزاد ما بلغك المحل . وحسبك من شر
سماعه . والصمت حلم وقليل فاعله . البلاغه في الإيجاز . من شدد
تفر . ومن تراخى ألف .» فتعجب كسرى من حكم أكرم وأمثاله .
ومن حكمه أيضاً : ذلوا اخلاقكم للمطالب . وقودوها الى المحامد .
وعلموها المكارم . وصلوا من رغب اليكم وتحلوا بالجود يابسكم
الحبة . ولا تعتقدوا البخل فتعجلوا الفقر . ومن حكمه قوله
كونوا جميعاً يابني اذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسرا واذا افترقن تكسرت أفرادا

بين حلالها وحرامها ويرد سفينها ويقيم جاهلها ورأيت الهند
نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها
وعجيب صناعاتها وطيب اشجارها ودقيق حسابها وكثرة
عددتها وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها
وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وان لها
ملكاً يجمعها والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في
المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا
من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصمهم وتدبر أمورهم.
ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في امر دين ولا دنيا
ولا حزم ولا قوة ومع ان مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر
همتها محتاتهم التي هم بها مع الوحوش المنافرة والطير الخائرة
يقتلون اولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة
قد خرجوا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها
ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التي يعافها
كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وان
قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة وان اطعم أكلة عدها غنيمة

تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم . ما خلا هذه
التنوخية التي أسس جدّي اجتماعها وشده مملكتها ومنعها من
عدوها فجري لها ذلك الى يومنا هذا وان لها مع ذلك آثارا
ولبوسا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس : يعني
اليمين . ثم لا أراكم تستكبنون على ما بكم من الذلة والقلّة والفاقة
والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس !
قال النعمان : أصلح الله الملك حتى لأمة الملك منها ان يسمو
فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها . إلا أن عندي جوابا في كل
ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له فان أمتي
من غضبه نطقت به . قال كسرى قل ذأنت آمن . فقال النعمان :
« أما امتك أيها الملك فليست تنزع في الفضل لموضعها الذي
هي به من عقولها وأحلامها وبسطة حكمها وبجوحة عزها
وما أكرمت به من ولاية أبائك وولايتك . وأما الامم التي
ذكرت فما من أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها بعزها ومنعتها
وحسن وجوهها وبأنسها وسخاها وحكمة أسننها وشدة
عقولها وانفتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل

مجاورة لا بآئك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند
 ولم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل : حصونهم ظهور خيلهم
 ومهادهم الارض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم
 الصبر إذ غيرهم من الأمم انما عزها الحجارة والطين وجزائر
 البحور . وأما حسن وجهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في
 ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنخفة والترك المشوهة
 والروم المتشعبة . وأما أنسابها وأصباها فليست أمة من
 الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها
 وآخرها حتى ان احدهم يسأل عن وراء ابيه دنيا فلا ينسبه
 ولا يعرفه وليس احد من العرب إلا يسمى أباءه أبا فاباً .
 احاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل
 في غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير
 ابيه . واما سخاؤها فان ادناهم رجلاً الذي تكون عنده
 البكرة أو الناب عليها بلاغه في حمولته وشبعه وريه فيطرقة
 الطارق الذي يكتفي بالتملذة ويحتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى
 ان يخرج عن دنياه كلها فيم يكسبه حسن الأحدثوة وطيب

الذكر . واما حكمه أفسرهم فان الله تعالى اعطاهم في اشعارهم وروثق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضريرهم للامثال وابلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الا جناس ثم خيلهم افضل الخيل ونسائهم اعف النساء . ولباسهم افضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبالهم الجزع ومظاياهم التي لا يبلغ على مثلها سمن ولا يقطع بمثلها بلد قفر . واما دينها وسريعتها فانهم متمسكون به حتى يبلغ احدهم من نسكه بدينه ان لهم شهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوا جايئسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه وهو قادر على اخذ ثاره وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى واما وفاءها فان احدهم يحفظ الاحظة ويومئ الايماء فهي ولث وعتدة لا يحلها الا خروج نفسه . وان احدهم ايرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يعلق رهنه ولا تخثر ذمته . وان احدهم ليلغنه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون غائبا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي اصابته أو

تفنى قبيلته لما اخضر من جواره . وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث
من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه
وأموالهم دون ماله . وأما قولك ايها الملك « يثدون اولادهم »
فانما يفعله بعض جهاتهم بالاناث أنفة من العار . وأما قولك
« إن افضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها » فما
تركوا مادونها إلا احتقاراً له فعمدوا الى اجلها وأفضلها
فكانت مراكبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شجوماً
واطيبها لحوماً وارقتها لباناً واقلها غائلة واحلاها مضغّة وانه
لا شئ من اللحان يعالج بما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها
عليه . وأما تخارصهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد
لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من
الأمم اذا آنست من نفسها ضعفاً وتخوّفت نهوض عدوها
اليها بالزحف وانه انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت
واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم
وينقادون لهم بأزمته . وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى
لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً اجمعين مع انفتهم من اداء

الخراج والعشر . اما اليمن التي وصفها الملك فلما اتى جد الملك اليها الذي اثناه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وامر مجتمع فاثناه مسلوبا طريدا مستصر خا قد تقاصر عن ايوائه وصغر في عينه ماشيد من بنائه ولولا ما تربه من يليه من العرب لمال الى مجال ولوجد من يجيد الطعان ويفضرب للاحرار من غلبة العبيد الاشرار . فعجب كسرى لما اجابه النعمان به وقال : « انك لاهل لموضعك من الرئاسة في اهل اقليمك ولما هو افضل » . فله در النعمان على هذا الحديث وهذا الوصف فقد جمع فإوعى وخلص في كلمات وجيزات جميع صفات العرب المميزة لهم التي ذكرناها في هذا الفصل .

في الكتابة عند العرب — لا نعلم بالضبط الزمن الذي فيه استعمل الخط بين القبائل العدنانية أيام الجاهلية وانما المعلوم انه قبل الاسلام بزمن قليل عرف عندهم الخط الحيري نسبة الى الحيرة عاصمة ملوك العراق وعلى ما جاء في أخبار العرب ان أول من استنبط الكتابة صرار بن مرة الانباري نسبة الى الانبار^(١) اخذها عن الخط المسند المعروف بالحميري

بعد ان تصرف فيه ومن الانبار انتشرت الكتابة العربية
فأخذها عنهم اهل الحيرة وتداولوها ثم قدم الحيرة حرب بن
امية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموي فنقل هذه
الكتابة من الحيرة للحجاز بعد ان عاد لمكة. وفي رواية أخرى
ان أول من كتب بالعربية من أهل اليمن قوم هود وكانت
تسمى كتابتهم بالخط المسند وهو خط حمير كانوا يكتبون
كل حروفه منفصلة بعضها عن بعض وكانوا يمنعون العامة
من تعلمه فلا يتعلمه أحد إلا باذنهم حتى تعلمه صرار المذکور
واسلم بن توك وعامر بن حذيرة ونويرة من عرب طيء
فتصرفوا فيه وسموه بخط الجزم لانه جزم أى اقتطع من
خط حمير المعروف بالخط المسند ثم علموه أهل الانبار ومنهم
اشتهرت الكتابة في البلاد العربية. وبعد الفتوحات الاسلامية
وتمصير البصرة والكوفة عرف هذا الخط بالكوفي وكان

(١) الانبار مدينة قديمة على الفراء بينها وبين بغداد وعشرة
فراسخ وانما قيل لها الانبار لان الاكسرة كانوا يخزنون فيها المطاعم
وكلمة عنبر « المستعملة الآن مأخوذة منها ومعناها « مخزن »

غفلا من الحركات والتنقيط الى أن وضع أبو الاسود الدؤلى الشكل فى أيام معاوية ووضع نصر بن عاصم النقطة افراداً وازواجاً فى أيام عبد الملك بن مروان منعاً للاشكال والابهام ثم لما انتشرت العرب فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد ترقى الخطوط للغاية ثم تقدمت الحضارة والتمدن فى الدول الاسلامية فى كل قطر وعظم الملك واتسعت دوائر العلوم وانتسخت الكتب وتنافس الكتاب فى كتابتهم وملؤا بها القصور السلطانية والخزائن الملوكة وتبارت الاقطار فى ذلك ولا زالت الخطوط آخذة فى التحسين على أساليب جديدة.

قال بعضهم ان ابن مقلة هو أول من نقل الخط الكوفى الى العربى وسطه يضرب به المثل فى الحسن لانه أحسن خطوط الدنيا وقتها كما قيل انه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعوه فى كنيسة قسطنطينية فكانوا يبرزونه فى الاعياد ويجعلونه من جملة زينتهم فى أخص بيوت العبادات هذا وقد ذهب آخرون الى أنه وجدت خطوط نسخ

قبل بن مقله وفي زمنه قبل ظهوره فقد اخبرني فضيلة الشيخ
محمد عبده مفتي الديار المصرية حالا انه رأى خطوطا في
— عاصمة بلاد النمسا — مكتوبة سنة ٢٤ هجرية
وانه موجود بمكتبة الازهر كتاب «غريب الحديث»
لابي عبيد مكتوب سنة ٣١١ هجرية وابن مقله لم يشتهر الا
سنة ٣١٤

ثم جاء بعد ابن مقله ابن هلال وهو أبو علي الحسن بن هلال
المعروف بابن البواب فزاد في تعريب الخط ثم جاء ياقوت
المستعصمي وختم حسن الخط وأكمله فحسن الخط جدا في عهد
الدولة العباسية ثم لما تضعفت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة
الى مصر والقاهرة انتقل الخط والكتابة والعلم اليها وسرى منها
الى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها والى ما جاورها فلا زال
الخط في جميع هذه الاماكن آخذا في الجودة الى هذا العهد
وصار للحروف قوانين في وضعها واشكالها متعارفة بين
الخطاطين. وأول من ضبط وجعل له قوانين معروفة علماء
الخط من الاتراك العثمانيين واليهم انتهت جودة الخط وكماله

فى الوقت الحاضر. وفى الحقيقة لا يقال ان جودة الخط الآن
 احكم من السابق الا بالنسبة لذوق الوقت فالخط المستعمل الآن
 فى المحاضرات والانشآت بقدر درجة الانشآت والمحاورات
 ومألف الدواوين فى ذلك . وبالجملة فلسان العرب الاول
 قد تغير واحتاج الى الاصلاح بالنحو وكذلك الخط العربى
 قد تغير واحتاج الى الاصلاح بقوانين جديدة بخلاف اللغة
 العربية فانها باقية على حالها وفى موضوعاتها لم تتغير الى هذا
 العهد فلم تزل محفوظه دائرة على السنة العلوم ومعرفتها
 ضرورية كما سبق لنا القول لاسيما لأهل الشريعة اذ مأخذ
 الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهى لغة العرب
 والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون وهم عرب وشرح
 مشكلات الشريعة من لغاتهم فالمحافظة على اللغة العربية من
 أوجب الواجبات وطريق المحافظة عليها هى الكتابة وهى
 فضيلة من الفضائل ومما يدل على فضلها قوله صلى الله عليه
 وسلم: قيدوا العلم بالكتابة. فضلا عن أن بقاء الأمة بقاء لغتها
 والتاريخ أكبر شاهد على ما نقول

أما الخط المسند فهو قديم العهد ولا يعلم من أثره إلا أنه خط حمير ويظن البعض أنه عن الخط النمنيقي ولعله مأخوذ عن خطوط أهل الهند القديمة لأنه كثيرا ما يشابهها وقد وجد أهل البحث من الحديثين آثار اللغة الحميرية منقوشة على عدة حجارة وعمد في جهات حضرموت وبلاد اليمن بالخط المسند المذكور وبعد مزاوله قراءته بما يقاربه من الخطوط ثبت لهم أنها لغة قديمة جداً ومن مشابقتها اللغة العربية العدنانية من جهة وللغة الحبش من جهة أخرى وللغة أهل مهرة أيضا جزموا بأنها هي لغة القبائل البائدة كعاد وحمود وطسم وجديس التي سئلت طرفا مما وصلنا منها من الحديث وفي رواية أخرى أن العرب الشماليين تعلموا الكتابة من أهل الشام الذين هم أقرب السريان إليهم وأن أهل الشام كانوا يستعملون اللغة السريانية في القرن الخامس أو السادس للميلاد الذي فيه بدأ العرب أن يكتبوا بالقلم الكوفي المتولد منه القلم النسخي الدارج اليوم وأن قبل القلم الكوفي كان اشتهر في اليمن من بلاد العرب قلم آخر متخذ من القلم السرياني

وذلك في الدولة المشهورة التي يقال لها الحميرية ويسمى علماء
الفرنج هذا القلم القلم السبئي وبذلك حكم أصحاب هذا الرأي
بأن الكتابة العربية مأخوذة من السريانية لا من اليونانية
أو غيرها كما قال بعضهم أيضاً وبأن الحبشة في نحو ذلك
الزمان تعلموا الكتابة من سريان الشام لأن حروف قلمهم
تشبه الحروف السريانية شبهاً شديداً

وقد ذهب آخرون إلى أن الحبش تعلموا الكتابة من
السريان لأرأسا ولكن بواسطة عرب اليمن وهم السبئيون
والحميريون الذين جرت بينهم وبين الحبشة وقائع كثيرة في
سالف الزمان لمجاورة بعضهم لبعض . فان قلم الحبشة شبيه
بالقلم الحميري غاية الشبه حتى أنه لما بدأ الافرنج في هذا
القرن بالبحث عن الحجارة القديمة المكتوبة بهذا القلم الحميري
الذي كان مجهولاً لم يمكن علماءهم أن يفكوا قراءته إلا بمقابلته
بالقلم الحبشي . وقد تطرف بعضهم فنسب اختراع الكتابة
للسريانيين الشرقيين الذين يقال لهم الكلدان وهم الذين
سبقوا في العمران والتقدم سائر فروع الأمة السامية وفاقوا

عليهم جميعا وقال ان الذين جلبوا صناعة الكتابة الى اليونانيين
وعلموهم إياها كانوا سريانين بلا شك وكذلك اللاتينيون
تعلموا الكتابة منهم وأهل هذا المذهب يقولون ان لهم أدلة
كثيرة على أثباته ليس هذا محل ايرادها وجاء في مجلة الهلال
الاغمر: ان أصل الكتابة المعروفة الآن في العالم المتمدن نشأ
في وادي النيل بشكل صور وهي المعروفة بالهير وغليفية ثم
حولها الفينيقيون الى الحروف الهجائية وعلموها لليونان في
القرن السادس عشر قبل الميلاد والاشوريين بعد ذلك بقليل
وعرفت بالحرف الأرامي . ومن الحرف اليوناني القديم
تولدت جميع الخطوط الافرنجية التي يكتب بها أهالي أوروبا
 وأمريكا وكثير من مستعمراتهما . ومن الحرف الأرامي
تولدت الخطوط التي تكتب بها اللغات الشرقية وأكثرها
انتشارا الخط العربي الذي يكتب به أكثر أهل آسيا
 وإفريقية فيمتد من أقاصى الهند شرقا الى أقصى بلاد مراكش
 غربا ومن بلاد تركستان شمالا الى أدانى زنجبار جنوبا .
 وانتشار الخط العربي على هذه الصورة حجة دامغة على

امتداد فتوحات العرب في صدر الاسلام . وكان العرب يكتبون على قطع العظام أو الخشب أو الاحجار أو سعف النخل وما شا كل ذلك وربما كتبوا على البردى ايضاً حتى اصطنعوا الكاغد في أوائل الدولة العباسية

صناعة العرب في الجاهلية — كان العرب في الجاهلية يعرفون الذهب والفضة والنحاس والحديد ويستعملون منها حلياً واوراني ورماحاً ودروعاً وسيوفاً وأدوات أخرى كثيرة وكانوا يصنعون الماء كل والمشروبات والخمور وينسجون الملابس والمنسوجات من الحرير والقطن والكتان وكانوا يغزلون خيامهم وخبائهم من صوف الشاة ووبر الابل والفسطاط من شعر المعزى والسراشق من القطن ويصطنعون البيوت من اللبن والاجر والحجارة . ويقولون إن أكثر هذه الصناعات تعلمها العرب من مجاورهم كالفرس والهند والمصريين كما نقلوا عنهم أيضاً السمرور والسنجاب والقاقم والفنك والدلق والديباج والسندس والاستبرق ودليلهم على ذلك أن أغلب هذه الاسماء اعجمي على ما أثبتته أئمة اللغة وليس

بدعا ان يكون قد علق في بعض الاقطار المتحضرة شئ من
الصناعات المأخوذة عن الجوار . وكانوا يصيغون حليا من
اللؤلؤ والمرجان والاحجار الكريمة المعروفة عندهم وكذلك
كان عندهم من الصناعات ما يفي بحاجياتهم كلها

التجارة في الجاهلية — بقي علينا ان نبث في تجارة القوم
وشأنهم في الحضارة فانا نعلم من التاريخ ان تجار العرب كانوا
يتجرون مع مصر والحبشة والهند وفارس وفيثقية على أن شأن
العرب من البداوة البحتة واقتصار معظمهم على انتجاع العيش
الفطري يكاد ينقض تلك الرواية التاريخية لولا اتفاق المؤرخين
عليها مع اختلافهم جنسا ولغة . أما اللغة العربية فتصدق على
مؤدى التاريخ لانها تحوى كثيراً من الكلمات الاعجمية وتلك
لا يتأتى دخولها بين قوم إلا اذا واصلتهم بالتجارة وحسبك
اثباتاً لذلك ان معظم تلك الكلمات تدل على شئ لم يكن ليعرف
في العربية لولا الاتجار به . مثال ذلك الابريق والميزاب
وامثالها فانها دخلت البلاد من الفرس وكذلك النمسطاط
والقرميد واشباهها اخذت عن اليونانية ولم نذكر الا كلمتين

من كل من اللغتين اكتفاء على ان في كتب اللغة من المعربات
الشيء الكثير

أما العروض التجارية التي راجت سوقها بين العرب فقد
ذكرها بعض المؤرخين حيث اعتبر ذلك بما ورد في سفر
التكوين ص ٢٧ عدد ٢٥ من قوله « واذا قافلة اسماعيليين
مقبلة من صلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين
لينزلوا بها مصر » وبما ورد عن بليني المؤرخ الروماني المشهور
من أن العرب كانوا يأخذون من مصر المنسوجات الكتانية
ويجيئون اليها بمحاصلات بلادهم. ويؤخذ مما قاله ثقات المؤرخين
ان القبائل الساكنة سواحل البحر الاحمر كانوا من اشهر
التجار وان قوافل البلاد العربية كانت تنزل في العريش وان
من أهم العروض التجارية عند العرب الطيوب والذهب
والحجارة الثمينة والقرنة والبن والصمغ واللبان والصبر والمر
والنفل والحناء والعود وغيرها من العقاقير وانهم يستجلبون
الكتان والقطن وبعض المعادن والرز والزيت والسكر الى
غير ذلك وقيل ان الذهب كان وافراً جداً عند العرب حتى

ان السبئيين كانوا يموهون به جدران دورهم وأبوابها وسقوفها وكذلك الفضة والعقيق واللؤلؤ والمرجان ومعادن الرصاص وكانت مكة من اعظم مستودعات تجارة العرب فقد اليها الوفود للتجار والبيع والشراء كما كانوا يؤمنونها للحج والعبادة والتعاكف وكذلك صنعاء اليمن كانت مركزاً تجارياً مهماً في بلاد العرب

نقود العرب ومسكولاتهم وموانئهم — كان العرب أولاً على نهج سائر القطريين أى ان تجارتهم بدأت بالمقايضة ساعة بساعة ثم تدرجت الى الاقتصار على ثمن مسنى ولسنا على بينة من شأن ذلك الثمن قبل ظهور النقدين الكريمين أى الذهب والفضة فلما وجدنا شرع القوم يتعاملون بهما وزنا أى انهم لم يكونوا قد ضربوا السكة ولا اتبسوها بل أخذوا عن الجوار التعامل بالوزن باعتبار الدائق — وزن حبة من الحنطة — والدرهم — وزن خمسين دانقاً — والدينار — وزن مثقال غير ان المعاملة بالوزن لم تكن ذات أمد طويل لانهم استعوضوها بالسكة ولا يعرف أى النقد كان قديماً ولئن ذكر في كتب

اللغة ان الفلس اسم معاملة من النحاس قديمة العهد قليلة القيمة ويخطر لنا ان القوم ظلموا يتعاملون بالسكة النحاسية زمناً طويلاً أى حتى دانا هم الروم وعاملوهم لانه ورد في تاريخ المشرق وآثاره ما يستدل منه على ان ملوك البرثيين لم يضربوا من السكة الا النفضة ومثل ذلك فعل الفرس في عهد بنى ساسان فانهم لم يضربوا من الذهب الا بضع قطع لم يقصدوا بها أن تكون سكة تجارية وأما الذهب والفضة فكانا يعلوان ويهبطان بمثابة العروض التجارية .

وجاء في كتاب النقود القديمة والاسلامية للمقرئى ان النقود التى كانت للناس على وجه الذهب على نوعين: السوداء الوافية والطبرية العتيقة. وهما غالب ما كان البشر يتعاملون به فالوافية وهى البغلية هى دراهم نارس — الدرهم وزنه زنة الميثقال الذهب — والدرهم الجواز تنقص فى العشرة ثلاثة فكل سبعة بغلية عشرة بالجواز وكان لهم ايضاً دراهم تسمى جوراقية وكانت نقود العرب فى الجاهلية الذهب والفضة لا غير ترد اليها من الممالك دنانير الذهب قيصرية من قبل الروم ودرهم

فضة على نوعين سوداء وافية وطبرية عتاء وكان وزن الدراهم
والدينار في الجاهلية مثل وزنها في الاسلام مرتين ويسمى
المثال من الفضة درهما ومن الذهب ديناراً. وكانوا يتبايعون
بأوزان اصطالحوا عليها فيما بينهم وهو الرطل الذي هو اثنتا عشرة
أوقية والاقية هي أربعون درهماً فيكون الرطل ثمانين
واربعمئة درهم والنص وهو نصف الاوقية حوت صاده
شينا قليل نش وهو عشرون درهماً والنواة وهي خمسة دراهم
والدرهم الطبري ثمانية دوانيق والدرهم البغلي أربعة وقيل بالعكس
والدرهم الجوارق أربعة دوانيق ونصف والدانق ثمان حبات
وخمسة حبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر وقد قطع
من طرفيها ما امتد وكان الدينار يسمى لوزنه ديناراً وانما هو
تبر ويسمى الدرهم لوزنه درهماً وانما هو تبر وكانت زنة كل
عشرة دراهم ستة مثاقيل والمثال زنة اثنين وعشرين قيراطاً
إلا حبة وهو ايضاً بزنة اثنين وسبعين حبة شعير مما تقدم
ذكره

وقيل ان المثال منذ وضع لم يختلف في جاهلية ولا اسلام

ويقال ان الذي اخترع الوزن في الدهر الاول بدأه بوضع
المشقال أولا فجعله ستين حبة زنة الحبة مائة من حب الخردل
البرى المعتدل ثم ضرب صنجة بزنة مائة من حب الخردل
وجعل بوزنها مع المائة حبة صنجة ثانية ثم ثلاثة حتى بلغ
مجموع الصنيج خمس صنجات فكانت صنجته نصف سدس
مشتال ثم أضعف وزنها حتى صارت ثلث مشتال فركب منها
نصف مشتال ثم مشتالا وعشرة وفوق ذلك فعلى هذا تكون
زنة المشتال الواحد ستة آلاف حبة . ولما بعث الله نبينا محمدا
صلى الله عليه وسلم أقر أهل مكة على ذلك كله وقال : الميزان
ميزان أهل مكة . وفي رواية ميزان المدينة . اهـ

﴿ الفصل الثاني ﴾

طبقة العرب البائدة

عاد — ثمود — طسم — جدیس و غیرهم

یریدون بالعرب البائدة كما قدمنا القبائل التي هلكت
واندثرت أخبارها قبل الاسلام فهي عندهم تسع : عاد و ثمود
وطسم و جدیس و أمیم و عییل و عملیق و جرهم و جاسم و أشهرها
الاربعة الاولى و أما أصل هذه القبائل فالتوراة لا تعرض
لذكره وقد حاول بعض مفسريها تطبيق بعض الاسماء
الواردة هناك على بعض اسمائها فلم يستطيعوا ذلك إلا بتكلف
وتساهل فأراد بعضهم ان يجعل جرهما متخلفة عن هذورام
بن يقطان و عاداً متخلفة عن عادة امرأة عيسو و قس على ذلك
مما لا يخرج عن حد الوهم على ان مطابقة الاسماء وحدها لا
تؤيد قولاً ولا تثبت أصلاً أما عمليق فانها وردت في التوراة
صريحاً و تدل على قبيلة الجبابرة و الارقاة انما سموها بذلك نسبة
الى اسماء ملوكهم فقد كان الملك منهم يسمى ارقم على أن قدماء

الجغرافيين ومنهم استرابون وبطليموس وغيرهما ذكروا في كلامهم عن جزيرة العرب أسماء قبائل يمكن ردها الى بعض هذه القبائل بسهولة مثل (Thamudini) «ثموديني» فانها تدل على ثمود ويؤيد ذلك ان بطليموس جعل مساكنها على حدود بلاد العرب الصحرية و (Jolisitai) «جوليسيتي» تدل على جديس بتكلف والغالب ان أصلها بالبدال بدل اللام وهذان الحرفان متشابهان الشكل في اليونانية. وبناء على غموض أصلهم وطموس أخبارهم وسكوت التوراة عنهم تكاثرت الظنون وتضاربت الآراء فيهم فذهب كل من المؤرخين المتأخرين مذهباً خالف فيه الآخرون فزعم كوسين دى برسفال ان معظم العرب البائدة من نسل حام وكذلك العالم الفرنساوى ديربلوت أخذ بهذا الظن في كتابه الذى نشره فى اواخر القرن السابع عشر الميلادى وسماه المكتبة الشرقية وكذلك المؤرخ رينان. وظن آخرون انهم من نسل قحطان وزعم غيرهم انهم من نسل ارام بن سام وأقر جماعة بغموض ذلك الاصل واشكاله ولم يتكلموا فى شأنه أما مؤرخو العرب

فيقولون ان العرب البائدة من نسل سام وذكروا ان بعض تلك القبائل ترجع الى لاد بن سام وهم يسمونه لاوذ وبعضها يرجع الى ارام بن سام ويسمونه ارم . ولندكر طرناً من ذكر القبائل الاربعة التي وصلتنا أخبارها من القرآن الشريف أو من أشعار العرب فنقول :

قوم عاد — ان عادا الذي نسبت اليه أمته هو إرم بن سام ابن نوح وكان قومه في نهاية من طول الاجسام وعظمها وكانوا أشد الناس بطشاً ومواطنهم ببلاد الاحقاف شيدوا بها أبنية شاهقة مما يدل على حضارتهم ومدنيتهم ثم فسقوا وبغضوا بأنهم الله عليهم وأشركوا به فأرسل اليهم أخاهم هوداً نبياً ورسولاً فوعظهم وخوفهم من عذاب الله ودعاهم للتوحيد فلم يؤمن به الا القليل . قال الله تعالى : « والى عاد أخاهم هوداً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالة ربي وأنا لكم ناصح

أَمِينُ أَوْ عَجِيتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ. قَالُوا: أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ
اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذِرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا نَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَانٍ؟ فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ. فَأَتَجَبَّنَاهُ وَالَّذِينَ
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّْا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا
مُؤْمِنِينَ « بَأْسَ سَخِرَ عَلَيْهِمْ رِيحًا سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا
فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ وَقَالَ أَيْضًا:
« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا
فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سُوطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » وَقَالَ تَعَالَى: « نَأْمَا عَادَ
فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَالُوا مِنْ أَشَدِّ مَنَا قُوَّةً؟ أَوْ لَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً! »

وبقى من آمن بهود من قوم عاد متصلاً ببلاد اليمن الى
أن غلبهم عليهم ايعرب بن قحطان وطردهم منها فزلوا بجبال الشحر
كما سيجيء. والى عاد تنسب العرب المباني الشاهقة التي توجد
بقاياها وآثارها في جنوب جزيرة العرب ويقولون ان من بقي
من قوم هود حكم فيهم من بعده رجل ممن آمن به اسمه لقمان
مدة طويلة وأقاموا بالقرب من سبأ وبنو اسد العرم^(١)

(١) العرم كان سدا يعترض به الوادى لحبس المياه مبنياً من
القدم حسب بعض الروايات وقيل بناه بنو عاد في واد من أودية
بلاد اليمن بالقرب من مأرب ولم تزل آثاره الى الآن والقصد منه
حبس الماء في قسم من الوادى ثم تفريقه على جهتيه وورد أنه قبل
حادثة السيل التي سيأتى ذكرها رأى عمرو مزريقاء بن عامر بن
حارثة — وهو ماء السماء جد الاوس والخزرج — في منامه سيل العرم
فهاب ما رأى وأشفق من الهلكة فأمر رجلاً من بنيه اذا هو جلس
في المجلس ان ينازعه الحديث ثم يسبه ويلطمه ففعل ذلك فقام عمرو
كهبة الغضب فحلف ليقتلن ابنه ذلك فلما سمع قومه قوله قاموا
اليه فكلموه فقال: «أما اذا تركته لكم فاني لا أسكن بأرض لطمت بها
فمن شاء منكم فليتبع منى مالى» وانما فعل ذلك حتى يبيع ماله خوفاً
مما رأى فلما سمعوا قوله قالوا اغتصموا غصبة عمرو بن عامر فابتاعوا
ماله فلما صار ثمنه في يده تجهز وأخبر الناس بالسيل فلم يحفل اكثرهم

الى ان تغلب عليهم يعرب فبادوا في سنة ٧٥٠ تقريباً قبل المسيح
على مارواه البعض والارجح بل الاصح أنه قبل ذلك بكثير
قوم ثمود — كان ملك ثمود بين الشام والحجاز وبيوتهم
الى وقتنا هذا منحوتة في الجبال بأبواب صغار ومساكنهم

بحجره فعند ذلك سير بنيه وأقام من أراد الله ان يصيبه بالسيل
وجمع عمرو سائر بنيه وقال: «لهم يابى انى علمت انكم ستفرقون من
منزلكم هذا بعدى فمن كان منكم ذا حمل مغن وهم مدن وقرية
وشن فليحق بأرض شن » ناحية بالسراة وهى الجبال المتصل بعضها
ببعض بين تهامة واليمن » فزها ازد شنودة. ومن كان ذا فاقة وفقر
وصبر على أزمت الدهر فليحق ببطن مر » من نواحي مكة عنده
يجمع واديا النخلتين فيصيران وادياً واحداً » فسكنته خزاعة .
ومن كان منكم يريد الحمر والخير والامر والتأثير والديباج والحرير
فليحق ببصرى وعوير » من أرض الشام » فسكنتها غسان . ومن
كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ومزاد حديد فليحق بقصر عمان
الجديد فنزله أزد عمان ومن كان يريد الراسخات فى الوحل المطعمات
فى المحل فليحق ببيثرب ذات النخل فقصدها الاوس والخزرج فنزلوها
وكان فيهم من قبلهم اليهود. وقد اختلف فى زمن وقوع هذه الحادثة
اختلافاً كثيراً ويظهر أن أحصاها أنها وقعت فى القرن الاول أو الثانى
بعد الميلاد

على قدر مساكن أهل عصرنا وآثارهم بادية وذلك بطريق
الحاج لمن ورد من الشام بمكان معروف بالحجر وكانوا في
أرغد عيش فكفروا وعثوا في الأرض مفسدين فبأوبغضب
من الله وعذاب أليم ولما مر النبي صلى الله عليه وسلم على
مساكنهم قال لأصحابه: « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا
أنفسهم الا وأنتم بأكون: أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء التوم »
ولما طغوا ارسل الله لهم صالحا نبيا ورسولا فوعظهم ودعاهم
للتوحيد فلم يجبه منهم الا قليل مستضعفون وقالوا « يا صالح
قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا
وانا لفي شك مما تدعونا اليه مريب » ثم ان كفارهم طلبوا
منه أن يأتيهم بآية فجاءهم بآية الناقة المذكور تفصيلها في القرآن
فعتروها ولم يؤمنوا ذأهاكهم الله بعد ثلاثة أيام بصيحة من السماء
ففيها صوت كل صاءة فقة قطعت قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين
وسار صالح الى فاسطين ثم انتقل الى الحجاز يعبد الله فيمن
بقي من قومه المؤمنين ومات بمكة ودفن بالحجر قال الله تعالى
« كذبت ثمود بطغواها اذا انبعث أشقاها فقال لهم رسول

الله : ناقة الله وسقياها فكذبوه وعقروها فدمدم عليهم ربهم
 بذنبهم فسواها ولا يخاف عتابها » وقال أيضاً « والى ثمود
 أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد
 جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل
 في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا
 اذ جعلكم خلائاً من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون
 من سهولها قصوراً وتتحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله
 ولا تعثوا في الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من
 قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل
 من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا
 بالذي آمنتم به كافرون فعتروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم
 وقالوا يا صالح ائنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فأخذتهم
 الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين فقتلهم وقال يا قوم
 لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون
 الناصحين » وقال جل جلاله « ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم
 صالحاً أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال : يا قوم لم

تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلم
 ترحمون. قالوا أطيرنا بك وبمن معك. قال طائركم عند الله بل
 أتم قوم تفتنون. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في
 الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم
 لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون. ومكروا
 مكرًا ومكرونا مكرًا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة
 مكرهم: أنا دمرناهم وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما
 ظلموا: ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا
 وكانوا يتقون »

طسم ومديس — كانت مساكن هاتين القبيلتين في
 اليمامة والملك عليهم من طسم واستمروا على ذلك مدة من
 الزمان حتى انتهى الملك من طسم الى رجل غشوم يقال له
 عملاق وكان ظلوما سام جديسا سائر أنواع القهر والغلبة
 زمنا طويلا. ومن منكراته أنه أمر أن لا تزف بكر من
 جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها ويفض بكارتها قبل
 زوجها « كما كانت هذه العادة جارية بالبلاد الاوروبية لغاية

القرن العاشر المسيحي» (١) فلقوا من ذلك ذلا طويلا وبلاء عظيما ولم تزل حالتهم على ذلك حتى تزوجت امرأة من جديس يقال لها عفيرة وهي أخت الاسود بن غفار رئيس جديس فلما كان ليلة زفافها الى زوجها انطلقوا بها الى عملوق الملك حسب العادة ومعها القينات يغنين ويقلن

ابدئي بعملوق وقومي فاركي وبادري الصبح بأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب

فلما دخلت عفيرة على عملوق اقتضاها وخلي سبيلها فخرجت على قومها في دماها شاقة جيبها من أمامها ومن خلفها وهي تقول

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس

وقالت تحرض قومها من جديس على طسم وأبت ان

تمضي الى بيت بعلمها

أصلح ما يؤتى الى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد النمل

وتصبح تمشي في الدماء عفيرة جهارا وزفت في النساء الى بعلم

(١) انظر كلمة droit de jambage في قاموس Poittevin

فلو أننا كنا رجالا وكنتم نساء لكننا لا نقر لهذا الفعل
 فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم وأوروا النار الحرب بالخطب الجزل
 والا نخلوا بطنها وتحملوا الى بلد قفر وموتوا من الهزل
 فلبين خير من مقام على الاذى وللموت خير من مقام على الذل
 وان أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تيب من الكحل
 ودونكم طيب النساء فانما خلقت لاثواب العروس وللغسل
 فبعدا وسحقا للذي ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل
 فلما سمع القوم ذلك وأخوها الاسود معهم وقد عاينوا
 ما هي فيه شبت في قلبه نار الغيرة والحمية وكان سيدا مطاعا
 في قومه الذين كانوا هم أيضا ملوا الذل والجور ولا يخفى أن
 الشدة والظلم يولدان في الافراد المتفرقة حب التآلف والاتحاد
 ويوقدان في أفئدة الامم المقهورة المغلوبة نار الانتقام ويحملان
 على النزوع لطلب الاستقلال والحرية ورفع الضير
 فلا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان غير الحى والود
 نعم قد توجد ظروف قهر توجب الامتثال والطاعة
 ولكن اذا بلغ السيل الربى وطفح الآناء مالت القلوب الى

الالفة وتأتت للتخلص من شدايد الملهمات وأجمعت على الاتحاد
 قلبا وقالبا وعمدت الى الفعل لما فيه الحثف أو اخلاص بالمرّة
 وكان الاسود يعلم من قومه الشعور بمثل هذا الاحساس فظن
 ان الفرصة مناسبة للتخلص من نير حكم طسم الجائر وحيثهم
 الظاهر فجمعهم وقال لهم: « يامعشر جديس قد رأيتم ما نحن فيه
 من الذل والعار الذي يذنبني أن تعافه الكلاب وأن هؤلاء
 القوم ليسوا بأعز منكم في داركم الا بملك صاحبهم وتغلبه
 وقهره ولولا عجزنا لما كان فينا فأطيعوني لتنالوا عز الدهر. »
 فقالوا الى م تشير علينا لتقتفيه ولا نقف لك فيه . قال: نصنع
 للملك وقومه طعاما ونجعله بظاهر البلد وندفن سيوفنا في
 الرمل وندعوهم الى أكل الطعام فاذا جاؤا أعملنا سيوفنا فيهم
 وأفيناهم عن آخرهم . وكان كذلك فانه لما حضر الملك في
 خواصه من طسم أفنوه بالطريقة المتقدمة ولم يفلت منهم الا
 رجل واحد يدعى رباح بن مرة فأتى حسان بن تبع ملك
 اليمن اذ ذاك واستنصره وشكا ما فعله جديس بملكهم فأجابه
 حسان ونهض معه بقومه قاصدين جديسا للاخذ بثأر طسم

فلما كانوا على ثلاثة مراحل من منازل القوم قال لهم رباح: ان
لى أختا مزوجة في جديس وانها لتبصر الراكب من ثلاث
مراحل واخاف ان تبصركم فليأخذ كل رجل منكم بشجرة
صغيرة فيجعلها في يده ويسير خلفها. ففعلوا وقد أبصرت بهم
زرقاء اليمامة—أخت رباح—فقالت لقوم جديس: لقد سار اليكم
الشجر. فقالوا لها ما ذاك؟ قالت: اشجار تسير ووراءها شيء
كثير واني لارى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو
يخصف نعلا. فكذبوها وغفلوا عن أخذ أهبة الحرب
فانشأت تقول

انى أرى شجرا من خلفها بشر فكيف تجتمع الاشجار والبشر
ثوروا باجمعكم في وجه أولهم فان ذلك منكم فاعلموا ظفر
فلم يسمعوا لها كلاما وعدوه حديث خرافة حتى فاجأهم
حسان وقومه ووثب عليهم واستباحهم قتلًا وسبي نساءهم
وصبيانهم وابادهم وخرّب ديارهم وحصونهم وهرب الاسود
بن غفار فزل بجبل طيء حتى قضى فيها نجه ولم يعقب. ولما
فرغ حسان من حربه لتلك القبيلة طلب زرقاء اليمامة أخت

رباح وامر بقلع عينها فلما قلعت وجد بها عروقا سودا زعمت
ان ذلك من كثرة اكتحالها بالاثمد وخلي سبيلها ولم تقتل
وكان بهذا الموضع صنوف الشجر والاعناب بمحذاق ملتنة
وقصور مصطفة فاباد الله هذه الاشياء وأهلها وهكذا بادت
الطبقة البائدة بظلم أهلها وافسادهم واثمهم وعدوانهم ولا غرو
فالظلم مرتعه وخيم ولا تدوم معه دولة

الشر مصراع له سطوة يستنزل الجبار عن عرشه
وأنت ان لم ترج أو تتقى كالميت محمولا على نعشه
لا تنبش الشر نبتلى به فقلما تسلم من نبشه
اذ اطنى الكبش بلحم الكلى أدرج رأس الكبش في كرشه
ونابش الموتى له ساعة نأخذه أنبش من نبشه
لله في قدرته خاتم تجرى المقادير على نقشه
وكما استحق طسم الهلاك لظلمهم استحقه جديس
أيضا لغفلتهم وعدم تدبرهم فكانهم طمس على سمعهم
وبصرهم فلم يقبلوا من الزرقاء نصحا ولم يستمعوا لها قولا فما
لبثوا ان حل بهم الهلاك من كل صوب وبادوا . وقال زوج

الزرقاء — وكانت تلقب بحذام —

ولولا المزعجات من الليالي لما ترك القطاطيب المنام

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

ولكن ماذا يفيد الندم وقد زلت القدم فسبحان من

يرث الارض ومن عليها

وأما بقية القبائل البائدة فمنها اميم: سكنت بادية ابار زمنا

ويحد هذه البادية عمان من الشرق ومهرة او الشحر من

الجنوب والاحقاف من الغرب واليمامة من الشمال . وعييل:

سكنت موضع يثرب ثم اخرجهم منها العماليق فزلوا موضع

الحجفة بين مكة والمدينة . وعمليق وهي قبائل عديدة عرفت

بالعاقلة سكن بعضها ارض الحجاز وتهامة وهي قبائل بنى ليف

وبنى سعد وبنى مطر وبنى الارق وبنى عبد ضخم وسكن

بعضها نجد وهي قبائل بديل وغفار وسكن بعضها البلاد

الصخرية (Arabie Pétrée) في شمالي جزيرة العرب وهي

قبيلة بنى هومر بن عمليق وسكن بعضها في عمان وهي جاسم

المتقدم ذكرها في أول هذا الفصل وسكن آخرون في تيماء

والحجاز وهم بنو الارقم وسكن آخرون في فلسطين وجوارها
وهم عمالة التوراة يقال لهم الجابرة ومنهم جليات المشهور
وأما جرم فمنها قبيلتان: جرم الاولى يقولون انها كانت
على عهد عاد فبادت واندرست اخبارها وكان لسانها العبرانية
وأما الثانية فسكنت حوالى مكة والحجاز ومنهم تزوج اسماعيل
عليه السلام كما سيجيء وبالجملة فان العرب البائدة معظمهم من
العمالة من نسل لاوذ أو لود بن سام وبعضهم من نسل
أرم بن سام وقد خرجوا من بين النهرين قبل زمن ابراهيم
عليه السلام وأقاموا في اعلى جزيرة العرب وتفرقوا فيها
جنوبا وغربا وما بينهما. ومما لا يحسن التغاضى عنه ان العرب
البائدة يسمون ايضا في بعض كتب التواريخ العرب العاربة.
ذكر بن خلدون وغيره انهم سموا بذلك من الرساخة في
العروبة كما يقال ليل أليل أو بمعنى الفاعلية للعروبة ولكن
الطبرى يقول ان عمليق جد العمالة يسمى «عريب» فعمل
العرب البائدة سموا اولاً عريبيه ثم عاربه.

﴿ الفصل الثالث ﴾

(طبقة العرب الباقية)



العرب المتعربة

تمهيد — ملوك اليمن قبل سيل العرم . اليمن بعده . استيلاء الحبشة على اليمن — ملك الحبشة على اليمن . استيلاء الفرس على اليمن — مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ لسنة ٦٣٤ مسيحية — ملوك بني غسان — ملوك كندة — ملوك مزارقون بجزيرة العرب .

تمهيد — سبق القول ان عرب هذه الطبقة ترجع كلها الى قحطان والى عدنان ولد اسماعيل عليه السلام وان كلا من قحطان وعدنان كما انهم متحدون في النسب متحدون في الطبائع والعادات اما تاريخهم فينقسم الى عصرين عظيمين أولهما تاريخ بلادهم وأكثره مأخوذ عما يروى من اعمال ابطالهم وثانيهما تاريخ الامة العربية في بلادها وفي غيرها مما حصل فتحه على أيديها وما استوطنته من البلاد التي أسست فيها ممالكها العظيمة فهو لذلك بمقام من الاهمية في تاريخ الامم والحد الفاصل بين هذين العصرين العظيمين هو بدء

البعثة النبوية المحمدية

ولنبداً بالقحطانيين من هذه الطبقة وهم العرب العاربة
أو المتعربة حسبما يسميهم بعض المؤرخين وقد سموا بذلك
لاتخاذهم اللسان العربي عن الطبقة البائدة التي يسميها بعضهم
كما سبق القول العرب العاربة فقد جاؤا جزيرة العرب والعرب
البائدة في ابلان سطوتهم فقتضوا زمنا طويلا تحت حياطتهم
وكان بنو قحطان يتكلمون باللسان الكلداني وهو لسان
اهل العراق الاصليين فتعلموا العربي من العرب العاربة .
والقحطانية سكنوا جنوبي بلاد العرب خصوصا اليمن ويسميهم
ابن خلدون وغيره باليمينة السبئية . ويتبع القحطانية عرب
الحيرة وغسان وكندة والنبط والاوز والخزرج وغيرهم
وسياتي ذكرهم فيما بعد . ولدولة اليمن دوران مهمان ينتهي
الاول بسيل العرم وهو سيل هدم السد السابق الذي ورد
ذكره في القرآن الشريف ويتخلل الدور الثاني انتقال الملك
من ملوك اليمن للحبشة ثم للفرس ثم للاسلام
ملوك اليمن قبل سيل العرم — أول من ملك منهم

قطان بن عابر جد العرب العاربة

وسبق لنا القول عند ذكر قوم عاد من الطبقة البائدة
انه قد بقي منهم بقية تغلب عليها بنو قطان المذكور وطردهم
الى جبال الشحر وكان بنو قطان نزولا ببلاد اليمن ولما مات
قطان ملك ابنه يعرب اليمن وتغلب على الحجاز وولى أخاه
جرهما عليها وبنو جرهم المذكور هم الذين صاهروا اسماعيل
عليه السلام وكان منهم العرب المستعربة كما سيجيء ذكر
ذلك في الباب الثاني. وكذلك ولى أولاده على الشحر وعمان
وفي عهده عظم شأن اليمن واتسع نطاقه وهو أول من حياه قومه
بتحية الملك — وهي أبيت اللعن — وكان الجاهلية لا يخاطبون
غير الملك بهذه التحية حتى أن احدهم اذا تولى الامارة والملك
قيل فلان نال التحية. ومعنى أبيت اللعن أى أبيت أن تفعل
فعلا تلعن عليه. ويعرب المذكور هو أول من اختط المدن في
بلاد العرب ومن بنيه التبابعة — ملوك اليمن — والغساسنة — ولاة
الروم على الشام — والمناذرة — ولاة الفرس على الحيرة — وقيل ان
يعرب المذكور هو أول من نطق بالعربية وكان من الفصاحة

والبلاغة بمكان وهو الذي قال عنه حسان بن ثابت
تعلتم من منطق الشيخ يعرب أينما فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم قديما ما لكم غير محجمة كلام وكنتم كالبهايم في الفقر
وقيل انه لما حضر يعرب الوفاة دعا بنيه ووصاهم بقول
كاه حكم وآيات باهرات تدل على كرم اخلاقه وسعة اطلاعه
وسياسته في ملكه وهو « اوصيكم يا بني بحسن السيرة
والسلوك بين الرعية وأن تتعلموا العلم وتعملوا به واتركوا
الحسد عنكم ولا تلتفتوا اليه فانه داعية القطيعة بينكم وتجنبوا
الشر وأهله فان الشر جالب للشر وانصفوا الناس من أنفسكم
فانهم ينصفونكم من انفسهم واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد
قلوب الرجال عنكم وعليكم بالتواضع فانه يقربكم من الناس
ويحببكم اليهم واذا استشاركم احد فأشيروا عليه بما تشيرون
به على انفسكم في مثل ما استشاركم فيه فانها امانة قد ألقاها
في اعناقكم » تلك وصية جمعت من آداب السياسة والحكم
في كلمات صغيرة ما لو تمسكت به أمة ما لحقها ضيم ولا
اندرست لها معالم ولا هوت لها دولة وهي توافق كل زمان

ومكان وما أحوجا نحن معشر الشرقيين الآن لاتباع هذه
النصائح والعمل بموجبها خصوصاً ونحن في زمن فضلا عن اننا
فيه متفرقون متقاطعون نرى الايدى الاجنبية تعمل بكل
جهد ضد تآلفنا واتحادنا

ولما مات يعرب ملك بعده ابنه يشجب وكان واهي
الزيمة ضعيف النفس . وبموته خلفه ابنه عبد شمس ويلقب
بسبأ لانه لما أكثر من الغزو في أقطار البلاد وسبي خلقاً
كثيراً لقب بذلك وهو اول من سنّ السبي في العرب وبني
مدينة سبأ وكان له من الولد كثيرون أشهرهم حمير وكهلان
الذان تشعبت منهما قبائل اليمن وصار الملك ينتقل في بينهم
ولقبوا بالتبابعة لانهم كانوا كلما مات منهم واحد قام آخر
تابعاً له في سيرته . ومن التبابعة المذكورين شرحبيل وكان
عادلاً شجاعاً بنى قصر غمدان في ظاهر صنعاء وهو قصر
عظيم رفيع البناء وأبدع فيه من الزخارف والصنائع الغريبة
وكان يسكن شرحبيل بمأرب فلما بنى هذا القصر انتقل اليه وصار
دار الملك من بعده ملوك اليمن ثم لما مات ملك بعده ولده

الهدهاد وكان يجب الملاهي والتنم ولما مات ولم يعقب تولى
 ابن اخيه مالك وكان فاحشا فاسقا خبيثا لا يبلغه عن بنت
 ذات جمال الا احضرها وفضحها حتى اتى بنت عمه بلةيس
 في قصرها وكانت أعدت له رجلين وأمرتهما بقتله اذا دخل
 عليها وانفرد بها فصدعا بالامر وقتلاه فأحضرت وزراءه
 وأصدقهم اخبر قائلة: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم
 عشيرته؟ وأرثهم اياه قتيلا وفوضت لهم ان يختاروا رجلا
 يملكونه عليهم فقالوا لا نرضى بغيرك وملكوها وهي التي
 ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة النمل وكانت في
 عهد سليمان عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا
 وكان هذا هو سبب توليها الملك اذ كانت العرب
 تأنف من تملك النساء حتى ان الهدهد لما جاء سليمان ظن
 أنه أتاه من سبأ نبأ غريب لم يكن مألوفاً عادة عندهم وذلك
 انه رأى امرأة تحكم رجلا ولكن فاته أن المرأة التي رآها
 كانت خيرا منهم اذ ازاحت عنهم عارا كانوا له متحملين
 وبلاء كانوا عليه مصطبرين. قد أتاحتها الله لهم فخلصتهم واستحقت

بذلك الامارة والسيادة عليهم واستمر الحال في اليمن على هذا
المنوال مدة : كلما مات ملك تولى آخر . وكانت اليمن ذات
اشجار واثمار هواؤها حسن وعمارتها شاهقة كثيرة مما يدل
على أن الحضارة كانت بلغت تصارها فيها وكانت المرأة منهم
اذا ارادت أن تبني شيئاً من الثمر وضعت مكتبها على رأسها
وخرجت تمشي تحت الاشجار وهي تغزل أو تعمل ما شاءت
فلا ترجع حتى تملأ مكتبها من الثمار التي تتساقط عليها وكانوا
لا يرون سواً لحسن هوائها وكان شجرهم ممتداً من اليمن
الى الشام يبيتون بقرية ويقبلون بأخرى ذات مياه وأشجار
لا يحتاجون الى حمل زاد ثم انهم بطروا نعمة ربهم وسئمو
الراحة وكان انفاس ملوكهم الاخيرين في الترف والملاذ
والملاهي سبباً في خور عزائمهم ومقدمة لضياع الملك من
أيديهم فسألوا ربهم أن يباعد بينهم وبين اسفارهم ويجعل بينهم
وبين الشام فلولاً ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون
فيها الازواد وكانوا يعبدون غير الله ويظلمون فسلط الله
عليهم سيل العرم فخرّب عمائرهم وبساتينهم وهذه عاقبة

المترفين المكذبين قال الله تعالى « لقد كان نسباً في مسكنهم
آية: جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له
بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا. فأرسلنا عليهم سيل العرم
وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خبط وأثل وشئ من
سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى الا الكفور
وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا
فيها السير سيروا فيها ليالى واياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين
اسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق
ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور »

ولما أرسل الله سيل العرم ورأى الناس الذين سلموا
منه أن بيوتهم هدمت وارضيتهم تلفت وانعامهم هلك
ولم يبق لهم أمل في الحصول على المياه فيما يأتى من السنين
هاجر بعضهم من بني ظلم الى الحيرة والانبار على مقربة من
نهر الفرات وعرفوا بالمانذرة وصاروا ملوكا على العراق
وكانت دولتهم من اعظم دول ملوك العرب ومقامهم بأرض
الحيرة وسنأتى على طرف من ذكرهم وهاجرت جماعة من

بنى قحطان من قبيلتين يقال لهما الأوس والخررج وتملكوا
 حوران والبقاء ونزلوا على ماء بقرب دمشق يقال له غسان
 فاشتهروا به حتى غلب اسمه عليهم فقبل لهم آل غسان ثم
 تغلبوا على الشام وسياقي ذكركم أيضاً وهاجر بعض من بني
 قحطان واسسوا ممالك صغيرة داخل الجزيرة كالكنديين
 وكانت ممالكهم بنجد وغيرها مما سندكر بعضاً منها وكان
 هذا هو السبب فيما ذكره أهل التاريخ بعد هذا السيل مما
 يتعلق بوجود بعض قبائل قحطانية في الجهات الشمالية التي
 هي وطن العرب المستعربة — أي العدنانيين — مع أن أصل
 مركزها كما مر ببلاد الجزيرة جنوباً

مملكة اليمن بعد السيل — استمر بنو قحطان يملكون
 في من بقي باليمن من اليمنيين بعد السيل واختطوا المدن
 وشيدوا المباني وغزا بعضهم البلاد المجاورة فكان منهم الملك
 شمرير عرش وهو من أشد ملوك العرب عزيمة واعلام همة
 واقواهم جاشا: يقولون انه غزا بلاد العراق ثم ارتحل عنها
 طالباً بلاد الصين وجعل طريقه على بلاد فارس فدوخها

وهدم كثيرا من المدائن والمعاقل ودخل مدينة السغد فخر بها
ولذا قيل لها بالفارسية شمر كند اى شمر خربها ثم أعيد
بناؤها فبقى عليها ذلك الاسم لكنهم تصرفوا فيه فقالوا
سمرقند. ولما استخلص بلاد فارس سار منها طالبا بلاد
الصين—وقد انكر العلامة بن خلدون خبر وصوله الى الصين—
فلما بلغ ملكها خبر قدومه ارتاع فقال له وزيره — وكان محبا
لوطنه غيورا على مصالحه يفديه بنفسه اذ كانت مجتمعة فيه
صفات الوزير الحقيقية—: أنا فدى المملكة بنفسى واكفيك شر
هؤلاء القوم المعتدين. فجدع الوزير مارن انفه بكفه وقصد
شمر يرعش وشكى اليه ظلم الملك له وقال: قد فعل بى
ما ترى بغير جناية تستحق ذلك وخشيت ان يقتلنى
فخرجت اليك هاربا وارجو أن يكون افتتاح هذه المملكة
على يدي فسر معى وانا ضمين لك بذلك. فاغتر شمر يرعش
بما رآه من جدع انفه وانصاع لقوله وانخدع له فهض بجيشه
والوزير يتقدمهم فى تلك المفاوز والقفار حتى دخل بهم فى
فلوات معطشة ولا سبيل للماء فيها حتى اماتهم وهلكوا جميعا

وهلك شمر يرعش وكفى الله الصين القتال. فيا لها من وطنية
صادقة واحساس شريف من وزير بمثله تحفظ البلاد ولا عجب
فبمثل هؤلاء الرجال وبمثل تلك الاعمال تدوم الدول وتسود
كما انه بمثل طمع شمر وغفلته تدرس الممالك وتزول معالمها
فلكل عمل جزاء من جنسه : تلك سنة الله في خلقه من القدم
للآن فما أخلص قوم في خدمة بلادهم الا سادوا وسادت
وارتفعت وحفظ لهم الذكر الجميل والاحدوثة الحسنة . وما
أحرى بدوله الصين في أن يكون لها الآن مثل هذا الوزير
حتى تتخلص من طمع دول أوروبا الاشعبي .

وبعد ان مات شمر يرعش قام ولده ابو مالك بالملك
بعده وعزم على المسير الى بلاد الصين للاخذ بثأر أبيه الذي
ذهب فريسة الطمع والغفلة فبلغه خبر وجود معدن من
الزمرد في بلاد المغرب فطمع فيه ونسى ثأر أبيه وسار بجيش
كثير طالباً ذلك المعدن فادركته المنية في الطريق ومات جمع
عظيم من عسكره شهداء طمع ما كهم الذي كان هو وأبوه
في غنى عن هذه المطامع ولهم في بلادهم من الخيرات والثروة

ما أطمع الا جانب فيها وهم عنها لاهون وهكذا صار الملك
 ينتقل من واحد لا آخر من بني قحطان وكان منهم الظالم والعادل
 والشهم وضعيف العزيمة والمحجوب عند رعيته والمذموم لديها
 فمنهم حسان بن تبع قيل انه هو الذي انتصر لطمع من جديس
 وأذاقهم كأس الردى وكانوا قتلوا اباهم فجعل يتبع قاتليه ويقتلهم
 حتى اتى على آخرهم فكرهه وكان يدين بدين اليهود وسار
 بمن معه من عرب اليمن الى مدينة يثرب ثم قصد مكة واراد
 هدم الكعبة فمنعه من كان معه من اُحبار اليهود فامتنع
 وكساها البرد اليماني ثم أن قومه أجمعوا على ان يقتلوه لما
 لحقهم من التعب والنصب وهو غير مكترث بهم كأنه راعي
 ابل أو غنم يقودها أنى شاء شقوا أو سعدوا فكلوا أخاه
 عمرو بن تبع في قتله ووعدوه بالملك بعده ان قتله وكان هذا
 الامر عن رأى الجميع ما عدا شخصا منهم يقال له ذورعين
 لم يوافقهم عليه ونهى عمرا عن قتل اخيه فلم يقبل منه فكتب
 ذورعين شعرا في صحيفة واودعها عند عمرو بن تبع يقول فيها
 الا من يشتري سيرا بنوم سعيد من يبيت قريرعين

فأما حمير غدرت وخانت فمغذرة الإله لذى رعين
فلما قتل عمرو أخاه حسانا واستولى على الملك بعده حسب
اتفاق القوم استولى عليه الأرق ومنع عنه النوم فشكا ذلك
للأطباء والكهّان والعرفاء من العرب فقالوا له: « يا ملك ما
قتل رجل أخاه أو ذا رحم له باغياً إلا سلط الله عليه السهر »
وكانت هذه من معتقدات العرب وقد أشار إليها زورعين في
نيتيه فجعل عمرو يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه من رؤساء
قومه وهم بقتل ذى رعين فذكره الشعر الذى أودعه إياه في
الصحيفة فكانت فيه معذرتة ونجاته من القتل ثم ان الاسقام
توالت عليه فكان لا يخرج الى الخلاء الا محمولا على نعش
فسمى بذى الاعواد لذلك وهو الذى أشار له أحد الشعراء بقوله
ولقد علمت سوى الذى نبأتى ان السبيل سبيل ذى الاعواد
ثم دهمته المنية بدون ان يتمتع بلذة الملك الذى حاول
استعجاله ونسى بسببه حقوق الأخوة وحنان الشقيق
وواجبات الانسان فلاقى جزاءه وساء منقلبته ولا عجب فمن
تعجل بشئ قبل اوانه عوقب عليه بحرمانه^(١) وكذلك نصحاؤه

وما هم الا نصحاء الشؤم قد جوزوا بما استحقوا بفعلتهم أما
 ذورعين فتبرأ من عملهم ولم يخش تألّبهم عليه وكان هو الوحيد
 في رأيه ضد الاجماع ولم يخف بطشهم ففضل المخاطرة بحياته
 دون تمحيض النصيح وما عليه اذا لم ينفع فقد فعل الواجب
 عليه وقد عرف له ذلك فيما بعد حينما قام ذلك الذي لعب
 القوم بعقله حتى أوقعوه في الورطة يفتك بهم ففاز ذورعين
 حين نكل بأولئك المضلين تنكيلا. نعم ان حسانا تعدى وظلم

(١) ورد في التاريخ ذكر كثيرين ممن قتلوا آباءهم طمعا في
 نوال الملك وكانت عاقبة ذلك وبالا عليهم فمنهم شيرويه بن ابريز قتل
 أباه فلم يتمتع بالملك بعده كذلك محمد المنتصر العباسي اذ قتل أباه
 المتوكل ليتولى الخلافة فلم يستقر له الملك حتى مات ويقولون أنه بعد
 ان جلس المنتصر على سرير الملك فرش له بساط لم ير مثله وعليه
 كتابة عجيبية بالفارسية فنظر اليه نظر استحسان واستحضر من يعرف
 بالفارسية وأمر بقراءتها فأحجم عن ترجمتها فقال المنتصر قل وما
 عليك بأس فقال مكتوب على هذا البساط « أنا شيرويه بن كسرى
 قتلت ابى فلم أتمتع بالملك بعده » فتطير المنتصر من ذلك ونهض من
 مجلسه غضبان فلم تم له مدة شيرويه وهى ثمانية أشهر حتى مات
 فليتأمل الطامعون الغافلون ويتدبروا

حتى كرهته رعاياه كلها وسئمت حكمه وقامت بصوت واحد
ضده وقد حصد ثمار ما زرع على حد قول الشاعر
وما من يد الا يد الله فوقها وما من ظالم الا سيلى بأظم
لكن ما كان ليحمل بأخيه أن يقتله بيده طمعا في
وراثته الملك من بعده لا انتصارا للمهضومين المقهورين
ومن ملوك اليمن ايضا عند ما أخذت شمس دولتها في
الافول ذو الشنار — ومعناها الاقراط في لغة اليمن — وقيل
له ذلك لانه كان يتحلى بها وكان فاسقا خبيثا يأتي الاحداث من
أبناء الملوك لثلاث مملوكوا وكانت عادة العرب في ذلك الزمان
لا يملكون من يفعل به ذلك وبقي ذو الشنار على هذه السيرة
الخبيثة حتى سمع بعلام من أبناء الملوك الحميرية له صيت وجمال
ياقب بذي نواس — لا رساله ذوائب شعره على ظهره — وكانوا
ايضا يسمونه بيوسف الحسن لجماله فأرسل له رسولا من
عنده ليستقدمه اليه فلما جاء الرسول وبلغه رسالته عرف
ما يريد فآخذ سكيناً وأخفاها بين نعله وقدمه فلما صار عنده
وخلأ به وثب عليه فقتله واحتز رأسه ووضعها في مكان كان

الملك يشرف منه على حرسه من عبيده وجنده اذا قضى حاجته ويأمر الغلام بعد ذلك بان يخرج وهو واضع سواكا في فيه اشارة لما فعل به فلما قتل ذونواس الملك خرج على الحراس والسواك في فمه حسب العادة وانما فعل ذلك خوفا من تعرض القوم له فلما رأوه على هذه الحالة قالوا له مستهزئين ساخرين: رطب أم يابس . فأجابهم ذونواس أن اسألوا الشيطان الخناس الذي في المشرفة فهو يخبركم بحاله وانشأ يقول

أساس الملك ويحكم رجال اذا مال الملك ذل عن الاساس
فكم من تاج ملك قد رأيتم تتقل من أناس في أناس
أطيعوا الرأس فيكم كي تسودوا وهل جسد يسود بغير رأس
فان الناس مثل الارض أرض وان ملوكهم مثل الروابي
فلما تحققوا من قتل ذى نواس لملكهم فرحوا به وملكوه
أمرهم وهو صاحب الاخدود الذي دعا أهل اليمن الى اليهود
وكان قد نزل يثرب مجتازا فأعجبته اليهودية فهود وتبعه أهل
اليمن الا طوائف من حضرموت وعدن فغزاهم وقتلهم جميعا
ثم دعا العرب الى اليهودية فكان من لا يجيب دعوته يسير

اليه فيوقع به فشاع ذكره في سائر الاقاليم وعظمت شوكته
وأطاعته العباد وكانوا يجيبون دعوته خوفاً من شدة نعمته
فكرهته أعيان حمير وحسدوه على الملك الذي هو فيه
وندموا على تمليكهم لما ظهر لهم منه فعزموا على خلع طاعته فلم
يخف عليه ذلك لكنه لم يحفل بهم بل قبض على البعض
وعذبهم أشد العذاب

استبهر الحبشة على اليمن — اعلم انه لما رسخت قدم
ذى نواس في الملك حملته اليهود على غزو نجران لامتحان
من بها من النصارى حيث كان بها كثير منهم اعتنقوا الدين
المسيحي فأغار عليهم ودعاهم الى اليهود فامتنعوا فقتل ما كان
وحمل اهل البلد وألغاهم في حفرة قد احتفرها وأضرم النار
فيها وهى المراد بالاخدود فذهبوا شهداء تمسكهم بدينهم
وجور هذا الملك الذى لم يخلص اليمن من بلاء الاليوقعه في
بلاء أدهى وأمر ولكن من الحقائق الثابتة التى نشاهد على
صحتها كل يوم ألف شاهد ودليل ان من طال عدوانه زال
سلطانه ومتى أراد الله أمراً هب له الأسباب فكان من

أسباب زوال سلطان ذى نواس بل زوال البلاد جميعها من
 ايدى اهلها انه هرب من نصارى نجران رجل من عظمائهم
 يقال له دوس بن ثعلبان فسار الى النجاشى ملك الحبشة وشكا
 اليه ما ارتكبه ذو نواس وكان النجاشى نصرايياً اعتنق الدين
 المسيحى فى عهد القيصر قسطنطين وكان محالفا لقيصرة الروم
 للجامعة الدينية بينهم ما فكتب الى الانسطاس الثانى قيصر الروم
 وقتها وكان متعصباً لدينه يستأذنه فى تجريد خيل الى اليمن
 فصرح له بذلك وخرج النجاشى لمقاتلة ذى نواس ونزع الملك
 منه ولما علم ذو نواس بقدمه تجهز للحرب وفرق السلاح
 على جنوده وسار يستقبل الجيش فالتقوا على ساحل عدن
 وثار النجاشى بأصحابه ويقال إنه خاطبهم بقوله : هذا البحر
 خلفكم والسيوف أمامكم فلا ملجأ لكم الا الصبر أو تظفروا .
 فاقتتل القوم قتالاً شديداً وقتل من الفريقين عدد كثير وكان
 الظفر للحبشة وحق لجيش يشجعه رئيسه بمثل الكلام المتقدم
 أن ينتصر ويظفر

وانهزم ذو نواس بأصحابه وتبعهم الحبشة وخاف ذو

نواس من الاسر فاقترح البحر بجواده وقال : الفرق أفضل
من اسر السودان . فضربته الامواج وكان آخر العهد به
وياليت كان قال العدل والرأفة والاعتدال خير من طمع وغى
يورثان الذل ويضيعان استقلال الاهل والبلاد ويوقعان الجميع
في اسر الاجانب والسودان الذين فضل الفرق على الوقوع
بين أيديهم ولكن قدر فكان ومدة ملكه من سنة ٤٨٠ الى

سنة ٥٢٨ مسيحية على ما قيل
ولما غرق قام بعده زوجدن الحميرى وحاول ان يكون
ملكاً فنتعته الاحباش وجرت لهم معه وقائع ثم هزموه فاقترح
البحر أيضاً ولحق بذى نواس كأنه أراد ان يخبره بما صار اليه
الاهل والاطوان وبتأنج طيشه وظلمه وما أتى من العدوان
وبعد أن دهشته المنية أفضى الامر الى ذى يزن الحميرى
سنة ٥٢٩ ميلادية وهو آخر ملوك اليمن التى خلص بعد ذلك
ملكها للحبشة ولا عجب فان تصرف ملوكها الاخيرين قد
كان نذيراً بذلك مقدمة له إذ قد فسقوا وظلموا وأماتوا في
رعاياهم احساس النخوة والشهامة فهوت دولتهم وحق لها

الانقراض : فمن حاد عن طور الاعتدال والاستقامة جنى
 الحسرة والندامة هذه سنة الله تعالى في جميع الدول ومن
 تأمل بعين النقد والتدبر وجد أن جميع الحكومات الرومانية
 واليونانية والفارسية وكذا الحكومات الشرقية ما اضمحلت
 وسقطت من عزها الشاغل الا من عهد خروج أهلها عن
 الاعتدال واستسلامهم للآثم والعدوان وللخلاعة والفسق
 والمجون المثبطة للهمم والداعية للفساد وتراخي الاعضاء وامانة
 العواطف والاحساسات الشريفة فيصبح الحر أسير شهواته
 البهيمية قاعدا ومتقاعسا عن كل ما من شأنه رفعة بلاده
 وحفظ زمام أمور سلمت اليه وأودعت امانة لديه فخاف فيها
 فاستحق الذل والخذلان والتنكيل به قال الله تعالى وهو
 أصدق القائلين « واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها
 ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

ملوك الحبش على اليمن من سنة ٥٢٩ لسنة ٦٠١ هـ

أول من تولى الولاية منهم على بلاد اليمن ارباط قائد
 جيش النجاشي وكان من بني عمه ومدة ولايته على اليمن من

سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٤٩ مسيحية وكان يكرم العظماء من اصحابه
 ويزدرى بالضعفاء ويكلفهم مالا يطيقون من المشاق فجزعوا لذلك
 واجتمعوا الى أبرهة الاشرم - أحد رؤساء الجيش - فغضب
 لهم وعزم على الاخذ بناصرهم فعاهدوه على المبايعة له والتسليم
 اليه فعصى ارباط وخرج عليه ودعاه الى الحرب فكانت الفتنة
 وقتل ارباط في معركة بينهما فجوزى بما ظلم وقام بدله أبرهة
 وأطاعته العرب والجيش جميعاً وكان توليه على اليمن من
 سنة ٥٤٨ لسنة ٥٨٩ ومات بمكة وكان قصدها بجيشه يريد أن
 يهدم البيت الحرام واتخذ فيلا عظيماً يقدمه في وجه قومه
 ليتقوا به وقع النبال ولذلك قيل له صاحب الفيل وهو صاحب
 القصة التي ورد ذكرها في سورة الفيل بالقرآن الشريف كما
 سيجيء عند التكلم على الحجاز وقد اشتهر أبرهة بميله الى
 النصرانية

ولما انقضى عهد أبرهة خلفه على الولاية ابنه يكسوم
 وكانت مدته من سنة ٥٨٩ لسنة ٦٠١ مسيحية
 استبدل الفرس على اليمن - لما توفي يكسوم تولى

أمر الدولة مكانه أخوه مسروق فرأى أهل اليمن ثبات ملوك
الجبشة عليهم وتوارثهم إياه خلفاً عن سلف فجزعوا لذلك
وأخذتهم الأنفة والحمية وعقدوا معاهدة بينهم على تخليص
وطنهم من الأجانب ولا يغروا فالحر لا يرضى بالذل طرفة
عين. وكان في تلك الأيام قد نشأ سيف بن ذى يزن الحميري
بن ذى يزن السابق فاجتمعوا إليه وقالوا له: إن الجبشة قد دخلوا
بلادنا بسبب جدك ذى نواس وقد طال بلاؤهم علينا حتى
ضاقت صدورنا عنه. وأثاروا فيه الغيرة والشهامة العربية التي
حاول أجداده أن يميئوها فقام واستخلص المملكة من أيدي
الجبشة بمساعدة كسرى أنوشروان ملك الفرس بعد أن
استولوا عليها نحو سبعين سنة وملخص ذلك: أنه لما حرضه
الاهالى على الاحباش بالصورة المتقدمة استنجد أولاً بقيصر
ملك الروم فأبى عليه مساعدته ولت شعري كيف يستغيث
سيف بملك محالف لخصمه ويطلب نجدة ضده ولم يكن
احتلال الجبشة لليمن إلا بعد استشارته ! ولما يئس سيف
من قيصر قصد كسرى قباذ ملك فارس فتردد وقال له: بعدت

أرضك عن أرضنا وهي قليلة الخير إنما هي شاء وبغير والمسالك
فيها صعبة ولست أغرر بجيشي . وأمر له بمال جزيل فأخذه
وخرج من عنده وهو ينثر المال الذي أعطاه إليه فالتقطه
الناس من الأرض وأخذوه فسأل كسرى عن سبب ذلك
فقال له سيف : جبال أرضي ذهب وفضة واني لم آتكم ثلث
وإنما جئتكم للرجال ولتمنعني من الذل والهوان . فرق كسرى
له بل ربما كان في الحقيقة طمع في المال الذي سمع به وشاور
أهل دولته فأشاروا عليه بمساعدة سيف وقال له موبدانه -
وزيره - : أن في سجنوك رجالا أصحاب نجدة وبأس قد حبستهم
للقتل فلو أن الملك وجههم معه فلو ظفروا كان الظفر لك
وازددت ملكا الى ملكك وإن هلكوا فيكون الملك قد
استراح وأراح أهل مملكته . فأعجب كسرى هذا الرأي
ويحق له أن يعجب به ويفتخر بوزير هذه مشورته وعمل بما
أشار ونجح واستولى على اليمن وأعاد على ملكها سيف ذي
يزن وأمره بالنزول بقصر الملك برأس غمدان وفرض اتاوة
على اليمن التي لم تخلص من الحبش إلا لتقع في يد الفرس فلما

ملك سيف صار يقتل الحبشة ويقتل بطون الجبال من النساء ولم يبق منهم الا جماعة قد جعلهم من خاصته واصطفاهم لخدمته فكانوا يمشون بين يديه بالحرا ب ولما استقر له الملك وفدت عليه الوفود من العرب يهادونه ويهثونه بملك آبائه وأجداده التبابعة وامتدحه العرب بأشعارهم وياليتهم كان استخلص الملك تماما من الاجانب ليحق له صحيح التهاني وتمام المديح ولكن ملا يدرك كاه لا يترك كاه ثم ان سيف المذكور انفردت به في آخر سني حكمه أصفياؤه الذين كان جعلهم حوله لحفظه واصطفاهم لخدمته فاغتالوه بمرابهم وقتلوه وهربوا في قلال الجبال فانتقموا بذلك لآخوانهم الذين فتك بهم سيف ولوطنهم الذي ذهب سلطانه وانقضى بذلك ملك حمير وحزنت على سيف قبائل اليمن ودفنوه في صنعاء بمقبرة لاجداده وكان جميل المنظر عظيم الهيئة على الهمة شديد البأس كريم الاخلاق حسن التدبير على وجه العموم وان اساءه في أنه أمن أعداءه وسلمهم نفسه ظنا منه أنه أحسن اليهم فلا يلاحظه منهم أذى ولكن اكمل شئ في قلبه سبب

ولما بلغ كسرى أنوشروان خبر قتله أرسل والياً على
اليمن من طرفه وهكذا تغلبت عليها دولة الفرس الساسانية
وبقيت تحت سلطتهم الى ان افتحها المسلمون كما سيجيء

مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ الى سنة ٣٦٤
مسيحية — لما أرسل الله سيل العرم وتمزق اهل اليمن تشتت
كثير منهم خارج بلادهم ليجدوا لهم رزقا طيبا في غيرها كما
أسلفنا القول فسارت جماعة منهم نحو خراسان فتهجروا في
طريقهم ليلا في نقطة أقاموا بها واختطوا هناك مدينة سموها
«الحيرة» صارت بعد مقامها ملوكهم من الـخمين نسبة الى خم بن
عدي والمناذرة وهي تقرب من نهر الفرات على نحو فرسخ
واحد من الكوفة وأول ملوكهم بها مالك بن فهم وينتهي
نسبه الى قحطان وكان استيلاؤه على سرير الملك من قبل
الأكاسرة ملوك الفرس اذ ذاك ولذلك كان هو وعقبه عمالا
الأكاسرة واتخذ منزله بالانبار فأقام بها الى أن مات ويقال ان
ابن سايمة رماه بسهم فقتله فقال

جزاني لا جزاه الله خيرا سايمة انه شرا جزاني

أعلمه الرماية كل يوم فلما استند ساعده رماني
وكان مالك هو الذي ربي سليمة وأحسن إليه فكوفي
على الاحسان بالشر وما ذلك بعجيب! ولما توفي تملك بعده عمرو
بن فهم وقام بعد وفاة هذا ابن أخيه جذيمة ابن مالك سنة ٢٣٠
مسيحية وكان متامه بالخير وكان شديد الوطأة ظاهر الحزم
وهو أول من أوقد الشموع ونصب المجانيق من ملوك العرب
الاقدمين للحرب دانت اليه جميع القرى المجاورة لبلاده فكان
يتولى أمورها وتجي اليه أموالها وتقد اليه الوفود وكان جبارا
ذا أنفة مقدا ما شديد البأس وافر الحكمة طالت مدته وشاع
ذكره في كل مكان وعظم شأنه وكان به برص فقيل له البرص
وقيل له كذلك جزيمة الواضح تطلقا في اللفظ لان الواضح بمعنى
البرص وكنيته أبو مالك. وكان في أيامه رجل من العمالة يقال له
الريان كان ملكا على الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام فحرت
بينه وبين جزيمة حروب انتصر هذا عليه فيها وكان للريان بنت
تسمى نائلة وتلقب بالزباء كان لها من الفرات الى تدبر فلما
استجمع أمرها واستحكم ملكها ارادت ان تغزو جذيمة بمن

معها من أهلها وجندها طلبا لثأر أبيها وكانت لها أخت اصغر
منها تدعى زبيدة فاشارت عليها بترك الحرب وإعمال الحيلة
فاجابتها الزباء الى ذلك وكتبت الى جذيمة تقول : انها لم تجد
ملك النساء الا قبحا في السماع وضعفا في السلطان وانها لم تجد
ملكها ولا لنفسها كفؤا غيره . فلما انتهى اليه كتاب الزباء
وكان بجهة يقال لها بقة استحسن ما دعتة اليه واغتر بثموياتها
غير عالم بمكرها فجمع ثقاته وعرض عليهم كتابها واستشارهم
فيه فأجمعوا على إجابة دعوتها وأن يسيروا اليها ويستولوا على
ملكها وكان بينهم رجل يقال له قصير من خلم أمه أمة كانت
لجذيمة وكان عاقلا بصيرا يستشير به جذيمة في بعض أموره
لما رأى عنده من سداد الرأي فلم تدخل عليه حيلة الزباء
وخالف القوم فيما أشاروا عليه به وقال : رأى فأتى وعدو
هاضمر . وقال لجذيمة « اكتب اليها فان كانت صادقة فاقبل
اليك وإلا فلا تمكنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباه »
فلم يوافق جذيمة على ما أشار به قصير وقال له : رأيك في
الكن لا في الضم . ودعا ابن أخته عمرا بن عدي واستشاره

فشجعه على المسير فحين رأى قصير ذلك قال : لا يطاع لقصير رأى . ثم استخلف جذيمة ابن أخته المذكور على ملكه وسار في وجوه أصحابه فلما كان في منتصف الطريق قال لقصير ما الرأي قال : ببقية تركت الرأي . واستقبله رسل الزباء بالهدايا والتحف فقال يا قصير كيف ترى فقال : خطر يسير وخطب كبير وستة لك الخيول فان سارت امامك فان المرأة صادقة وان اخذت جنبك واحاطت بك فتيقن انهم غادرون فان رأيت ذلك فاركب العصا — وكانت فرسان الجذيمة لا تجارى — فلما لقينه الكتاب حالت بينه وبين العصا فركبها قصير فنظر اليه جذيمة موليا على منها فقال : أرى صرما على من العصا . وقال ايضا : ماضل من تجرى به العصا . وجرت به الى غروب الشمس ثم نفقت وقد قطعت ارضا بعيدا فبنت العرب عليها برجاً وسموه برج العصا وقالوا : فبر ما جاءت به العصا . وقد احاطت بجذيمة الخيول حتى دخل على الزباء فلما رآته تكشفت له فاذا هي مضمفورة شعر الالست وقالت له يا جذيمة : آداب عروس ترى . فقال : باغ المدى وجف

اثرى وامر غدر ارى . ثم قالت له : أثبت ان دماء الملوك
شفاء من الكلب ثم اجلسه على نطع وامرت بطست من
ذهب وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها ثم امرت
براحتيه فقطعتهما وقدمت اليه الطست انزول الدم فيه وكانت
العرب تزعم أنه ان قطر من دم من قتل ولو قطرة في الارض
طاب بدمه وكانت الملوك في ذلك الزمان لا تقتل بضرب
الرقبة الا في قتال تكرمه للملك . فلما ضعفت يداه سقطتا
وقطر من دمه قطرة في غير الطست فقالت : لا تضيعوا دم
الملك . فأجاب جذيمة : دعوا دما ضيعا هلك . وخرج
قصير من الحى الذى هلك فيه العصا حتى قدم على عمرو
بن عدى وهو بالحيرة فوجده قد اختلف مع عمرو بن عبد
الجن الذى كان استخلفه جذيمة عند خروجه للزباء على خيوله
فأصلح بينهما وابعهما الخبر واطاع الناس عمرا بن عدى في
سنة ٢٦٨ مسيحية وقال له قصير تهيأ واستعد ولا تطل دم
خالك فقال له كيف لى بها وهى امنع من عقاب الجو وكانت
الزباء سألت الكهنة عن أمرها وهلاكها فقالوا لها نرى

هلا كك بسبب عمرو بن عدى ولكن حثفك بيدك فخذرت
عمرا واتخذت نفقا من مجدها الى حصن لها داخل مدينتها
وقالت ان فاجأني أحد دخات النفق الى حصنى ودبت رجلا
مصورا حاذقا فأرسلته الى عمرو متنكرا وقالت له صور دلى على
كل حالاته جالسا أو واقفا أو منردا ومتنكرا ومتساجبا بيته ولونه
فجعل المصور ما أمرته به وتد ارادت بذلك ان تعرف عمرا
فلا تراه على حال الا عرفته وحذرتة أما تصير فقال لعمرو :
اجدع اننى واضرب ظهري ودعنى واياها . فقال عمرو : ما أنا
بفأىل . فأجابته قصير : هل عنى انى وضربك ذم . فجدع تصير
أنه ودق بظهره وخرج كأنه هارب وادعى ان عمرا فعل به
ذلك وسار حتى أدم دلى الزباء وأدخل عايتها فاذا أنه تدجدع
وظهره قد ضرب فقالت : لا صر ما قمر جبرع قصير أنهم . وسألته
الخبير فقال : زعم عمرو انى غدرت بخاله وزينت له المسير اليك
ومالكك عليه ففعل بى ما ترين فأقبلت اليك وعرفت انى لا أكون
مع واحد هو أثقل عليه منك . فاكرمته واصابت عنده بعض
ما ارادت من الحزم والرأى فانخذعت له وسلمته امور المملكة

فأصبح الأمر النامي في البلاد حتى إذا ما عرف استرسالها إليه
وشدة وثوقها به قال لها ان لي بالعراق أموالاً كثيرة فأذني لي
لاحمل مالي واحمل اليك من طرائفهما وصنوف ما يكون بها
من التجارات فتتالي أرباحا وبعضاً مما لا غنى للملوك عنه فقرحت
لقوله ودفعت إليه الأموال وأجهزت معه غير احتي قدم العراق وأتى
عمرًا متخفياً وأخبره بالأمر وقال جهزني بالبر والطرف وغير
ذلك لعل الله يمكنك من الزباء فتصيب ثارك وتقتل عدوك.
فاعطاه ما طلب ورجع به إليها فأعجبها وسرها وازدادت به
ثقة ثم جهزته بعد ذلك مرة أخرى بأكثر مما جهزته به
في المرة الأولى فحمل من عند عمرو حاجته ولم يدع طرفة
ولا متاعاً قدر عليه الا واستصحبه معه ثم لما رجع ثالث مرة
أخبر عمرًا بما أضمر عليه وقال اجمع لي ثقات اصحابك واقوامك
وهي لهم غرائر واحمل كل رجائين على بعير في غراريتين حتى
إذا دخلت الابل مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها وحينئذ
تخرج الرجال من الغرائر فان اتاهم العدو قاتلوه وإن اقبلت
الزباء تريد نفقها قتلها ففعل عمرو ذلك وساروا فلما كانوا

قريباً من الزباء تقدم قصير اليها وبشرها بكثرة ما جاء به
من الثياب والطرائف وسألها أن تخرج وتنظر الابل وما عليها
فخرجت الزباء وأبصرت الابل تنهادى بإحمالها فقالت :

ما للجمال وشيها ويثدا أجند لا يحملن أم حديدا
أم صرفانا باردا شديدا أم الرجال جثما قعودا
ودخل الابل المدينة فلما توسطتها انبخت وخرج الرجال
من الغرائر وقام عمرو على باب النفق وثار رجاله على اهل
المدينة ووضعوا فيهم السلاح وأقبلت الزباء تريد الخروج الى
نفقها فوجدت عمرا قائما على بابه فعرفته بالصورة التي عملها
المصور فقصت لها ما كان في خاتمها وقالت : يري ربي عمرو
فتلقاها عمرو وقصير بالسيف وقتلها ولم يغن عنها حرصها
ولا نفقها شيئا وأصابا ما أصابا من مدينتها وعادوا الى العراق
وأنشأ عمرو يقول :

ألا ايها الغر المرجى ألم تسمع بخطب الاولينا
دعى بالبقة الوزراء يوما جذيمة يستشير الناصحينا
فطاوع أمرها وعصى قصيرا وكان يقول لو نفع اليقيننا

لقد خطب التي غدرت وخانت وهن ذوات غدر يزدهينا
نخطت في صحيفتها اليه ليملك بضعها اوان يدينها
فجاجها وقد جمعت جموعا على أبواب حصن معلمينا
وحكمت الحديد براحتيه فاضى قولها كذبا ومينا
وخبرت العصا الانباء عنه ولم ار مثل فارسها هجيننا
فبات نساؤه ثكلى عليه مع الابناء يعاين الانينا
فولى أنفه موسى قصير ليخدعها وكان بها ضنيننا
مخاللة ابنة الريان مكررا فاذهل عقلها الوافى الرصينا
وليت شعري كيف ساغ اعدرو أن يلوم الآن في شعره
نصحاء جذيمة وقد كان منهم ويعترف لقصير باصالة الرأي
وقد كان من الذين سفهوا قوله ولكن ربما كان طمعه في
الملك من بعد جذيمة هو الذي حمله على ذلك التحريض وفي
هذا الخبر من الحكم والعبر مالا يخفى على اللبيب : فلو أطاع
جذيمة قصيرا ما حل به ما حل ولو كان اقتصر على ملكه ولم
يطمع في ما في يد غيره ما غار على الريان ولا أضغن عليه قلب
ابنته حتى عملت على مكيدته والتنكيل به . ولولم تغتر الزباء

بتمويهات قصير — وهو من اعدائها — ولم تتخذ له وتسلم اليه
مقاليد أمور بلادها ما وقعت في هذه الورطة وما اضاعت
البلاد ولكن لا راد لحكم الله وقضائه فكما جعل الجور
والعسف والترف والفجور من أسباب تلاشي الامم وانقراضها
جعل أيضاً الغفلة والطمع والانخداع للاجانب والدخلاء
وتسليمهم البلاد من اعظم العوامل القاضية على الوطن والبلاد
فليتدبر المتدبرون

ولما توفي عمرو بن عدى تولى الملك بعده امرؤ القيس
الاول وعند موت هذا خلفه عمرو بن امرئ القيس المذكور
وكان عالي الهمة شديد البأس شاعرا فصيحاً وبوفاته انتقل الملك
الى اثنين من العمالة ثم رجع الى بنى عمرو بن عدى فتولى
منهم امرؤ القيس الثاني — ويلقب بالحرث لانه أول من عاقب
بالنار وصار هذا اللقب يطلق على أولاده من بعده — ثم بوفاته
تملك بعده النعمان بن امرئ القيس — وكان يلقب بالاعور —
بنى الخورنق والسدير وكردس الكراديس وكان أشد الملوك
نكاية في الاعداء: غزا الشام مراراً كثيرة واكثر من

المصائب في اهلها وسبي وغنم كثيرا من الاموال وكان صارما
 حازما ضابطا للملكه اجتمع له من الاموال والذخائر ما لم يجتمع
 لغيره من ملوك الحيرة وبعد ان عمر ثلاثين عاما في الملك
 صعد على مجلسه في قصر الخورنق وتأمل في الملك وما لديه
 من الخيرات والاموال فلم يعثر بها ولم تفتته بل قال : لا نصير
 في ملك آخره الى النقاد . ومن ثم زهد في الملك وأمر
 أصحابه ان يعزلوا بابه حتى اذا جن الليل التحف بكسائه
 وساح في الارض ولم يره احد بعد ذلك . وقيل ان هذا كان
 في سنة ٤٣٠ مسيحية . وتولى ابنه المندر مدة ثم مات وتولى
 بعده ابنه الاسود وكان مغوارا فاتكا انتصر على الشام واسر
 عدة من ملوكها وأراد ان يعفو عنهم فاعترضه ابن عم له يدعى
 أبا أذينة كان احد ملوك الشام قتل اخاه وقال له محرضا :
 ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ولا يسوغه المتدار ما وهبا
 واحزم الناس ما ان فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول منقضبا
 وأنصف الناس في كل المواطن من سقى المعادين بالكاس الذي شربا
 وليس يظلمهم من راح يضربهم بحمد سيف به من قباهم ضربا

والعفو إلا عن الأكرماء مكرمة من قال غير الذي قد قلته كذبا
 قتلت عمرا وتستبقى يزيد لقد رايت رأيا يجر الويل والحربا
 لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا
 هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرا وأوقدوا النار فاجعلهم لها خطبا
 إن تعف عنهم يقول الناس كلهم لم يعف حلما ولكن عفو رهبا
 هم أهلة غسان ومجدهم عال فان حاولوا مكا فلا عجا
 وعرضوا بفداء واصفين لنا خيلا وابلا تروق العجم والعربا
 يحابون دما منا ونحلبهم رسلا لقد شرفونا في الوري حلبا
 علام تقبل منهم فدية وهم لا نضة قبلوا منا ولا ذهبا
 فعفا عن بعضهم وقتل البعض الآخر ثم توفي بعد أن
 حكم عشرين سنة فتولى أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان الأعور
 وبموته صار الملك في بني لحم حتى صار في امرئ القيس
 الثالث وهو الذي بنى له سنار القصر المشهور وكافأه عليه بالقتل
 مخافة أن يبني لغيره مثله كما هو معلوم وفي ذلك قال المتلمس الشاعر
 جزاني أبو لحم على ذات بيتنا جزاء سنار وما كان ذا ذنب
 ويقال ان النصرانية كثرت في مملكة الفرس وظهرت

بالعراق في زمنه
ولما مات ملك ابنه المنذر سنة ٥٢٠ وكان يلقب بماء
السما وفي أيامه اراد كسرى « قباذ » أن يتدين بدين الزندقة
فلما أبى عليه ذلك ماء السماء عزله من ملك الحيرة وملك
موضعه الحرث ابن عمرو بن حجر الكندي الذي وافقه على
هذا الدين . وكان مذهب الحرث كاشتراكي زمننا يقول :
نحن نقسم بين الناس ونرد على الفقراء حقوقهم من الاغنياء :
ثم لما تمكن على ملك فارس كسرى أنوشروان بعد أبيه قباذ
طارد الحرث وأعاد المنذر الذي لم يلبث ان مات مقتولا خلفه
ثانيا الحرث سنة ٥٢٣ ولما مات سنة ٥٦٤ م استبد بالدولة
عمرو بن المنذر المتقدم وكان يقال له عمرو بن هند — نسبة لأمه
هند بنت الحرث بن عمرو الكندي — وكان مقداما شديدا
السلطان كثير المغازي تلقبه العرب بمضرط الحجارة لشدة
بطشه وكان قتل له أخ عند زرارة بن عدس الدارمي في مكان
اسمه أوارة وكتبوا خبره عنه فابلقه اياه عمرو بن ملقط الطائي
الذي كان بينه وبين زرارة شرفاتهن الفرصة وصار يحرض عمرا

بن هند على بنى دارم حتى نارت به الحمية وجمع اهل مملكته وسار
طالباً ثار اخيه وفعلاً وقع القتال بينهم وقتل كثير من بنى دارم
وفر منهم البعض وقتل عمرو اولادهم وجر بطون زوجاتهم
وأقسم أن يحرق منهم مائة بثار أخيه ثم سار يلتمس من فر
منهم ويلقى في النار من وقع في يده حتى أدرك تسعة
وتسعين رجلاً وتعذر عليه اتمام المائة فلما كان ذات يوم في
آخر النهار أقبل راكب يقال له عمار وكان من البراجمة — وهم
قوم من تميم — واتفق أن عمراً كان ألقى رجلاً في النار فسطع
الدخان وفاح القطار فظن ذلك مأدبة للطعام فأسرع إليها حتى
انأخ إلى عمرو فسأله عمرو من أنت قال: من البراجمة. فذهبت
مثلاً وأمر به فألقى في النار وصار ذلك عاراً لبنى تميم بحب
الطعام قال الشاعر

إذا مات ميت من تميم وسرك أن يعيش فجى بزاد
بخبز أو بالحجم أو بتمر أو الشيء الملفف في البجاد
تراه ينقب البطحاء حولاً لياً كل رأس لقمان بن عاد
ثم أن عمراً لما انتقم من بنى تميم داخله الزور حتى ظن

أنه لم يعادله احد في الدنيا فصادف ان قال ذات يوم لجلسائه
وكان دنا أجله : هل تعلمون أن أحدا من العرب من اهل
مملكتي تأنف أمه من خدمة أمي قالوا : ما نعرفه الا أن
يكون عمرو بن كاثوم . لانه من اشرافهم وهو سيد عظيم
فأرسل اليه يستزيره ويسأله ان يزيره أمه فأجابه بن كاثوم
الى ذلك واقبل من الجزيرة في جماعة من بني تغلب واقبلت أمه
ليلي بنت المهلهل بن ربيعة - اخي كليب وائل من أعز العرب -
وكان زوجها كاثوم من فرسان العرب المشهورين ولما بلغ
عمرو بن هند قدوم ابن كاثوم وأمهم امر بسرادق فضرب
بين الحيرة والفرات وأرسل الى وجوه أهل مملكته فصنع
لهم طعاما ثم دعا الناس اليه ووضعهم في باب السرادق وجلس
هو وعمرو بن كاثوم وخواص اصحابه في الداخل ودخلت
ليلي بنت المهلهل على هند أم عمرو في قبتها وكان ابنها قال لها
اذا فرغ الناس من الطعام فتجي خدمتك عنك واستخدمى
ليلي أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما امرها به ابنها ولما
فرغ الناس من الطعام قالت : يا ليلي ناوليني ذلك الطبق .

فألت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . فأعادت عليها فلما
ألت صاحت ليلى واذلاه يا آل تغلب فسمعها ولدها ابن
كلثوم فثار الدم في وجهه وقام الى سيف لعمر بن هند كان
معلقا في السراق ولم يكن سيف غيره فأخذه وضرب به
رأس عمرو فقتله ونادى في بني تغلب فأنهبوا جميع ما في
السراق واستاقوا نجايبه وسبوا النساء ولحقوا بالجزيرة وفي
ذلك يقول بعضهم :

لعمر ك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصاتا وامسك من ندمانه بالخنق
فكان عمرو كالباحث عن جثته بظلمه وبذا أضى ضحية

غروره وظلمه وتكبره وعتوه فسبحان مسبب الاسباب
اذا ما الظلوم استحسن الظلم مذهبا ولج عتوا في قبيح اكتسابه
فكاه الى صرف الزمان فانه سيبدى له مالم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا يرى النجم تها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لامال ولا جاه يرتجى ولا حسنات سطرت في كتابه

وقال له الجبار منه بفضله وصب عليه الله سوط عذابه
وبعد ان مات عمرو بن هند تملك اخوه قابوس بن المنذر
وامه هند ايضاً وكان ضعيفاً مهيناً مولعاً باللهو والشراب والصيد
اقام ثمانى سنوات ثم مات مقتولاً فتملك بعده المنذر بن المنذر
بن امرئ القيس اخو عمرو بن هند ايضاً وكان معتدلاً الزامة
صبيح الوجه كريماً ملك اربع سنين ثم مات فتولى الملك مكانه
ابنه النعمان بن المنذر بن المنذر بن ماء السماء المتقدم ذكره
سنة ٥٨٨ وكان يكنى بأبى قابوس وكان احمر ابرش قصيرا
دميماً سيئ الخلق عبد الاوثان والاصنام ثم تنصر^(١) وصادف

(١) روى أن النعمان بن المنذر خرج متصيداً ومعه عدى بن
زيد فمرا بشجرة فقال عدى : أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة
قال لا . قال فانها تقول :

من رأنا فليحدث نفسه	انه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها	ولما تأتي به صم الحيال
رب ركب قد أناخوا حولنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
والاباريق عليها قدم	وجياد الخيل تجرى بالجلال
عمروا الدهر باميش حسن	أمى دهرهم غير عجال

أن حقد على رجل من قومه يدعى عدى بن زيد فسجنه وأبى
اطلاقه فجعل عدى يقول الشعر وهو فى الحبس فمن قوله :

عصف الدهر بهم فانقضوا - وكذلك الدهر حالا بعد حال
ثم جاوز الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى : أتدرى ما تقول
هذه المقبرة . قال لا . قال فأنها تقول :
أهيا الركب المحبوسين على الأرض المجدونا
نكما أتم كذا كذا وكما نحن تكونونا
نقال الثعمان : قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا تتكلمان وانك
أما أردت عظمى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى نذكر به النجاة
قال : تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وحده فتركها وتنصر وأخذ فى
العبادة والاجتهاد . وقيل أن سبب تنصره هو أنه كان نادمه رجلان
من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود
فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بان يحفر لكل منهما حفرة بظهر الحيرة
ثم يجعلان فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين فتعمل ذلك بهما حتى اذا
أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فقدم على ذلك وركب حتى نظر
اليهما وأمر ببناء الغريين فبنا وجعل لنفسه يومين : يوم نعيم
ويوم يؤس . فأول من يطاع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل
شؤما أى سوداء وأول من يطاع عليه يوم يؤسه يعطيه رأس طبريان
أسود ثم يأمر به فيذبح ويقرى بدمه الغريان فلبث بذلك برهة من
دهره حتى مر رجل من طى اسمه خنظلة بن أبى عمرو كان أوى

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهوى النصيحة بالمغيب
أحظى كان سلسلة وقيدا وغلا والبيان لدى الطيب

النعمان في خبائه يوما خرج فيه الى الصيد وانفرد عنه أصحابه بسبب المطر
فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فاطعمه من لحمها وسقام
لبنا . فلما نظر اليه النعمان ساءه ذلك وقال له : يا حنظلة هلا آيت
في غير هذا اليوم . فقال : آيت اللعن لم يكن لي علم بما أنت فيه
فقال له : ابشر بقتلك . فقال له : والله قد آيتك زائرا لاهلي من
خيرك مأثرا فلا تكن ميرتهم قتلى . فقال : لا يد من ذلك فاسأل حاجة
أقضيها لك فقال تؤجاني سنة أرجع فيها الى أهلي وأحكم من أمرهم
ما أريد ثم أصير اليك فانفذ في حكمك فقال : ومن يكفل بك حتى
تعود فنظر في وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فانشد

يا شريك يا ابن عمرو يا أخا من لا أخا له
يا أخا شيبان فك اليوم رهنا قد أناله
يا أخا كل مصاب وحييا من لا حيا له
أن شيبان قيل أكرم الله رجاله
وأبوك الخير عمرو وشراحيل الحمالة
رفيك اليوم في المجد وفي حسن المقالة
فوثب شريك وقال : آيت اللعن يدي بيده ودمي بدمه وأمر
للمطائي بخمسائة ناقة وقد جعل الاجل عاما كاملا من ذلك اليوم الى
مثله من القابل . فلما حال الحول وقد بقي من الاجل يوم واحد

أتاك بأنتى قد طال حبسى ولم تسأم بمسجون حريب
 وبيتى مقفر الانساء أرامل قد هلكن مع النجيب
 يبادرن الدموع على عدى كشن خانه خرز الريب
 فهل لك ان تدارك ما لدينا ولا تغلب على رأى المصيب

قال النعمان لشريك : ما أراك الا هالكا غدا فداء لحنظلة . فقال
 شريك : فان يك هذا اليوم ولى فان غدا لناظره قريب . فذهب
 قوله مثلا . ولما أصبح وقف النعمان وكان يشتهي أنه يقتله لينجى
 الطائى . فلما كادت الشمس تغيب قام شريك مجردا فى ازاره على الطمع
 والسياف الى جانبه وكان النعمان أمر بقتله فلم يشعر الا براكب قد
 ظهر فاذا هو حنظلة قد تكفن وتحنط وجاء يناديه . فلما رآه
 النعمان قال ما الذى جاء بك وقد أفلت من القتل ؟ قال الوفاء .
 قال وما دعاك الى الوفاء ؟ قال ان لى دينا يمنعنى من الغدر . قال وما
 دينك . قال النصرانية ؟ قال فاعرضها على . فعرضها فتصر النعمان
 وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائى وقال :
 ما ادرى أيكما أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فعاد اليه أم
 هذا الذى ضمنه . وأنا لا اكون إلا م الثلاثة . فليتأمل المتأملون ولينظروا
 كيف كان العرب فى وقت جاهليتهم والى أى حال من الوفاء قد صرنا
 اليوم !! قال الميدانى وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون وبني النعمان
 فى حاضرة ملكه الكنائس العظيمة

فأني قد وكلت اليوم امرئ إلى رب قريب مستجيب
وكان عدي من أولاد نزار شاعرا فصيحاً يعرف
الفارسية ونبغ فيها وكان أول من كتب بالعربية في ديوان
كسرى فارتفع ذكره ولما تولى النعمان على الحيرة استدعاه
من المدائن مع اخوين له اسمهما أبي وعاصم فأكرمهم وأجزل
صلاتهم وزوج عدياً ابنته هنداً وولاه مملكته وكل شيء سوى
اسم الملك ثم حسده وجبسه كما تقدم وكان أبي إذ ذاك في
بلاد فارس فلما بلغه الخبر كلم كسرى في أمره وأرسل كسرى
بإنفاذه فتظاهر النعمان بتلبية الطلب ولكنه أخذ سرا إليه من
قتله ليلاً وفي الصباح أمر أعوانه بإطلاقه فأخبروه بأنه مات
فأظهر الأسف والتحسر ولكن لم يخف ذلك على كسرى
وأسرّ هاله كما أسرّها أهل عدي وما زالوا حاثين عليه حتى
تمكنوا من الإيقاع به بأن زينوا لكسرى أن يطلب من
النعمان نساء من أهله ليصاهرهن وكانت هذه حيلة منهم
لعلمهم علم اليقين أن العرب يضمنون بنسائهم على الأعاجم فلما
رفض النعمان غضب كسرى وأضغن قلبه عليه أهل عدي

فاستدعاه عنده يخاف النعمان وهرب مستنجدا باصهاره بجلي
 طي فأبوا نعرته خوفا من بطش كسرى فأقبل وليس في
 العرب من ينجده حتى نزل بذي قار - في بني شيبان بالقرب من
 البصرة - وقال أحد أصحابه ممن استجار بهم : عندي رأى لك
 لست أشير به عليك لادنك عما تريد من مجاورتي ولكنه
 الصواب . فقال هاته فقال : ان كل أمر يحمل بالرجل أن
 يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سواة والموت نازل بكل
 أحد . ولأن تموت كريما خيرا من أن تتجرع الذل أو تبقى
 سواة بعد الملك فامض الى صاحبك واحمل اليه هدايا ومالا
 وألق نفسك بين يديه فاما أن يصفح عنك فتعود ماسكا
 عزيزا وأما ان يصيبك فالموت خير من أن يتلاعب بك
 صعايلك العرب ويتخطأك ذئابها وتأكل مالك وتديش فقيرا
 أو تقتل مهورا . فاستحسن النعمان هذا الرأي وأودع هاني
 ابن مسعود أهله وماله ودروعه وذهب الى كسرى الذي لما
 بلغه تدومه أنفذ اليه من قيده وسجنه بخاقين ومات هناك .
 وقيل إنه ألقاه تحت ارجل النيلة فوظفته حتى مات . وتد نال

جزاءه الاوفى . وولى كسرى بعد النعمان اياس بن قبيصة الطائي على الحيرة سنة ٦١١ للمسيح وكان فصيحا جوادا مشهورا بالشجاعة علما بأيام العرب ووقائعهم وبعث اليه كسرى أن يرسل الى هاني بن مسعود يأمره بتسليم ما استودعه النعمان فأبى هاني أن يسلمه ما عنده فغضب كسرى لذلك وأرسل من يقابل هانيا بذى قار وهناك حصلت حرب بين العرب والعجم انهزم فيها الاخيريون شر هزيمة وهو أول يوم انتصفت فيه العرب وتناولت فيه اعناقهم وهو من أعظم ايامهم وقد أكثر شعراؤهم من ذكره وكان ذلك سنة ٦١١ للمسيح وبموت اياس بن قبيصة سنة ٦١٧ خلفه من يقال له زارديه ثم الاسود بن المنذر أخو النعمان ثم المنذر بن النعمان في سنة ٦٣٤ وهو المنذر الخامس الملقب بالغرور واستمر على ملك الحيرة الى أن قتل بالبحرين يوم جواش وهو آخر الملوك اللخمية الذين كانوا عمالا للاكسرة على عرب العراق كما أسلفنا القول ثم أتى بعد المنذر المذكور خالد بن الوليد تخفق فوق رأسه راية الاسلام فتغيرت البلاد وتخلصت من ظلم

الظالمين وجور الجائرين وفساد المفسدين والايام دول
ملوك غسان من السنة ٢٠٠ تقريباً الى السنة ٦٣٦ مسيحية
ومن ملوك العرب أيضاً الفسائية ملوك الشام وأصلهم
من اليمن من قبيلتي الازد والخزرج من ولد كهلان بن سبأ
بن قحطان هاجروا من بلادهم بسبب سيل العرم الى الشمال
الغربي وتماذكوا أرض حوران والبلقاء ونزلوا على ماء بقرب
دمشق يقال له غسان فاشتهروا به كما سبق القول حتى غاب
اسمه عليهم فقبل لهم آل غسان وأخرجوا عرباً كانوا قبلهم
من الشام يقال لهم الضجاعة ثم تغلبوا على الشام وملكوها
ودام ملكهم نحو أربع مائة سنة وعدد ملوكهم ٣٢ ملكاً
ويسمى مؤرخو الاسلام العرب المنتصرة ويعرفون أيضاً
بملوك غسان ودانوا بال نصرانية وكانوا عمالاً لقيصرية الروم
في الشام ونسبتهم للقيصرية كنسبة ملوك الحيرة الى ملوك
الفرس وكانوا أشبه شئ بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين
فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية
تحت شروط معلومة فيؤدون الجزية ويمدّون الرومانيين بالجند

من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصاً في حروبهم مع الفرس أو
لعلهم كانوا من قبيل أصحاب الاقطاعات والمتعبدين
وكان العالم قبيل الاسلام تنازله دولتان عظيمتان: الفرس
في الشرق والرومان في الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما
فيستعين الفرس بالمانذرة ملوك الحيرة وتستعين قيصر الروم
بالغساسنة فتولد بين تينك القبيلتين التريبتين المسيحيتين
ضغائن توارثها الابناء عن الآباء وكثيراً ما كانت تضطرم
الحرب بينهما حتى كاد يبيد أحدهما الآخر والنزاع بين الفرس
والروم قديم وكأنه طبع في بين المشرق والمغرب فقد كانت
الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس
والرومان والآل بين أوروبا وأهل الشرقتين الاقصى والادنى
وكانت عاصمة الفرس المدائن وعاصمة الرومان القسطنطينية
فقطضوا أجيالاً متوالية وهم بين حرب وصلاح
وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالي الروماني المقيم
بدمشق بأمر امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم في
القسطنطينية فتد الاوامر الامبراطورية من الامبراطور الى

والى دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان وكان كرسى حكومة
الغسانين تارة فى عمان بالبتاء وطورا فى تدمر وتارة فى
بصرى عاصمة حوران فى ذلك العهد. وأول من ملك منهم
جذنة بن عمرو بن ثعلبة دعا من كان قبله بالشام من الرومان
والعرب الى طاعته فأجابوه وبني عدة مصانع ومن ملوكهم
عمرو بن الحرث وكان شديد التكبر ذميا تبيع السيرة أنشأ فى
دمشق وضواحيها عدة قصور شامخة منها قصر القضاء وقصر
منار وصور فى بعض هذه القصور مجالسه وجلساء دولته
وأشكال صورته فكانت قصوره منزهات لا مثيل لها وكان
رسم نفسه فى كل ليلة جارية عذراء من السبايا التى تصيبها
خيله المغيرة فى البلاد وكان ذلك دأبه حتى وقعت عنده فى السبي
اخت عمرو بن الصعق فلم يشعر إلا وأخوها قد وقف باباه
وهو يقول : زلزالا كان فقتلته

يا أيها الملك المهيب أمتارى صبحا وليلا كيف يختلفان
هل تستطيع الشمس أن يؤتى بها ليلا وهلا بالصباح يدان
فاعلم وأيقن ان ملكك زائل وكما تدين تدان عقد رهان

فوقعت هذه الايات في قلبه وأثرت فيه وراجع نفسه
فارتجعت عن غيرها وقال الله قد أمنك على من لك عندي وأمن
كل الناس على من وقع لهم من السبايا وابطل تلك العادة من
ذلك اليوم. وعندي أن رجوع هذا الملك للحق وتأثره بالنصيحة
وتغلبه على نفسه من أعظم الصفات وأكرم الخصال والفضائل
ومن ملوكهم جنة الاصغر بن المنذر الاكبر وكان
يلقب بالحررق لانه احرق الحيرة لما أغار على أهلها ومنهم
الحرث بن جبلة تملك من سنة ٥٢٩ لسنة ٥٧٢ ميلادية أوقع
بني كنانة وكان كثير المغازي والغارات على قبائل العرب
كرما جوادا كثير المواهب حتى قيل إنه لم يجتمع من الشعراء
بباب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع ببابه ويقال إن
حسان بن ثابت الانصاري الشاعر المشهور - الذي عمر ستين
سنة في الجاهلية وستين في الاسلام - كان منقطعاً اليه
وله فيه مدائح كثيرة وكان ابتداء ملكه في زمن النعمان بن
المنذر ملك الحيرة فكانت بينهما مغامرة في الشرف وروى
أنه قال يوماً لحسان بن سبيل الاختبار بلغني أنك نسبت إلى

النعمان رفعة شأن وفضلته على فقال : وكيف أفضله عليك
 فوالله لقد الك أحسن من وجهه ولاملك أشرف من أبيه
 ولا بوك أشرف من جميع قومه ولشمالك أجود من يمينه
 ولحرمانك أنفع من نداء ولقليلك أكثر من كثيره ولثمادك
 أشرع من غديره ولكرسيك أرفع من سريريه ولجدولك
 أغور من بحرته ولأيومك أطول من شهره ولشركك أمد من
 حوله ولحولك خير من حقه ولزندق أوري من زنده ولجندك
 أعز من جنده وانك من غسان وانه من حلم فكيف أفضله
 عليك وأعدله بك فقال : يا ابن الفريعة - وهو اسم أم حسان -
 هذا لا يسمع الا في شعر . فقال :

نبئت أن أبا منذر يساميك لا حرث الاضغر
 قد الك احسن من وجهه وأملك خير من المنذر
 ويسرى يدك على عسرها كيمنى يديه على المعسر
 وكان جوستانيان قيصر الروم وقتها يحبه ويكرمه حتى
 لقبه بلقب الملوك وكان في عصره من الشعراء النابغة وليبد
 وامروء القيس ولما مات ملك بعده النعمان بن الحرث وكنيته

ابو كرب اجتهد اكثر من اجداده في نشر النصرانية في
بلاده وكان عادلا شجاعا فاضلا كثير الخير قليل الشر حسن
الصورة والسيرة يحب العلماء ويقدمهم على اشراف الناس
وتوفي النعمان في بعض مغازيه قتيلا سنة ٥٨١ ميلادية
وآخر ملوك غسان جبلة بن الايهم تولى سنة ٦٣٦ كان
طويل القامة نحيف الجسم يلبس اشياب النماخرة بنى مدينة
جبلة بين طرابلس واللاذقية وكان اسلم في ايام الخليفة الثاني
سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين افتتح الشام ثم
خرج الى مكة حاجا بمائتين وخمسين رجلا من قومه فلما قرب
من المدينة قد أعناق خيله قلائد من الفضة والذهب ولبس
التاج ولما بلغ سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدومه
تلاه ورحب به ورفع مقامه حتى اذا كان يوم الطواف بالبيت
والناس يطوفون وهو من جملتهم اذ وطئ اعرابي من بني
فزارة طرف ازاره فانحل عنه الازار فغضب جبلة من ذلك
ولطم الفزارى لطمه هشم بها انفه فتملق به الرجل حتى قدما
الى عمر رضى الله عنه وشكا الفزارى حاله اليه فقال عمر لجبلة:

دعه يلطمك كما اطمته فقال جبلة ألا يفضل ملك على سوقة ؟
 قال عمر : كلا فان الاسلام سوّى بينكما . فغضب جبلة من
 ذلك وصبر الى الليل حتى اجتمع بفلمانه وخرج بهم الى الشام
 ومنها سار الى قيصر ملك الروم حتى هلك وبذا انقرض ملوك
 غسان وأصبحت بلادهم عمالة اسلامية

ملوك مفرقونه بجزيرة العرب — جئنا على ذكر الدول
 الثلاث الكبرى التي كانت حاكمة على اطراف بلاد العرب أي
 مملكة اليمن ومملكة العراق ومملكة الشام . وما خلا هذه الدول
 الكبيرة كان في بلاد العرب عدة ممالك صغيرة مستقلة
 بأمرها ككندة ومعدّ وكلاب وغيرهم وقد وجد في بعض
 ملوك هذه الممالك من اشتهر بالحكمة والعدالة الا أنه لم يبق
 شيء يذكر من أخبارهم ولم يصلنا منها الا اشتغالهم بمجاربة
 بعضهم بعضاً وسنتكلم على بعضهم

ملوك كندة — تنسب قبيلة كندة لثور بن غنير من بني
 قحطان — وقيل له كندة لانه كندأباه أي حجد نعمته — أسست
 مملكة نجد من سنة ٤٥٠ ميلادية وأول من أسسها حجر بن

عمرو الملقب بآكل المرار من ولد كندة المذكور وكانت
 كندة قبل أن يملكها حجر بغير ملك فأكل قويمهم ضعيفهم
 فلما تملك سدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من
 اللخمين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل ولقب
 بآكل المرار لانه كان بلغه أمر أغضبه فاستشاط وصار يأكل
 المرار وهو نبات صر الطعم اذا أكلته الابل تقلصت مشافرها
 فتبيل له ذلك وقيل لان أمه قالت عنه : كأنه جمل قد أكل
 المرار . لبغضها له .

وملك بعده ابنه عمر وتلاه ابنه الحارث وكان معاصرا
 لملك الفرس كسرى قباد بن فيروز وظهر في أيام قباد رجل
 يقال له مردك دعا الناس الى الزندقة فوافقه قباد وكان عمال
 الفرس في الحيرة وفي الانبار بنى خلم وهم ملوك الحيرة من
 العرب المنتصرة وكان العامل منهم لقباد اذ ذاك المنذر ابن
 ماء السماء فدعا قباد المنذر الى الدخول معه في مذهب مردك
 فأبى فدعا الحارث بن عمرو الكندي فأجاب فطرد المنذر
 وولى الحارث كما مر ذكره عند الكلام على ملوك الحيرة

فلما أفضى الملك الى كسرى أنوشروان سنة ٥٢٦ م قتل مردك
وكل اتباعه وولى المنذر قعر الحارث فجرد عليه كسرى فرسانا
من بني تغلب وبهرا واياد فنزل أرض كلب بين الحجاز والعراق
فانتهبوا ماله وهجأته وساقوا معهم ٤٨ نفساً من أهله الى
المنذر فضرب رقابهم . أما هو ففجأ بنفسه ورجأ الى بني كلب
الى ان مات ويقال انهم قتلوه وكان للحارث هذا خمسة بنين
وهم حجر وشرجيل ومعد يكرب وعبد الله وسلمة واتفق
وهو عامل لقباذى الحيرة ان القبائل فى نجد وما والاها - وفيهم
بنو أسد وغطفان وبكر وحنظلة ودارم وتغلب والنمر بن قاسط
وغيرهم - اختلفوا فيما بينهم فجاء اشرافهم الى الحارث يحكمونه
على أن يولى عليهم أبناءه فأجاب دعوتهم وولى كلا من ابنائيه
على قبيلة أو أكثر من هذه القبائل فكان حجر على بني أسد
وغطفان فوضع عليهم الاتاوة الجزية فى الجاهلية فقبلوها فى أول
الامر ثم انتقضوا عليه وأبو دفعها وكان حجر اذ ذاك فى تهامة
فبعث اليهم الجابى فضربوه وجرحوه فجرد عليهم جندا من
رجال اخوته فاعمل فيهم العصا وأباح أموالهم وقادهم الى تهامة

فصبروا على الضيم وتأصروا وقالوا: والله لئن قهركم هذا ليحكمن
عليكم حكم الصبي فما خير عيش يكون بعد قهر وأتم بحمد الله
أشد العرب فتوتوا كراما . وساروا حتى تمكنوا من حجر
فقتلوه شر قتلة بنجر طويل لا محل له هنا وكان لحجر هذا
غلام اسمه امرؤ القيس أمه فاطمة أخت كليب ومهلل ابني
زهير التغلبيين وكليب هو الذي كانت تقول العرب فيه :
أعز من كليب . وبمقتله هاجت حرب بكر وتغلب . وكان
امرؤ القيس زكي النؤاد شاعرا منلقا وكان ملوك العرب في
تلك الايام يأمنون من الشعر أن يقولوه هم أو يقوله أولادهم
وكان امرؤ القيس كلفا به حتى نسي منصب والده ومنزلته
من السيادة والقوة فطرده والده وآلى على نفسه أن لا يقيم
معه فكان امرؤ القيس يسير في احياء العرب ومعه جماعة
من لفيئ القبائل من طيء وكنب وغيرهم وفيهم المغنون والندماء
والشعراء فيطوفون احياء العرب فاذا لقوا غديرا او روضة
نزل وذبح الذبائح لرفاقه وخرج للصيد فتصيد وعاد فأكل
وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم فلا يزال كذلك أياما ثم

يمتقل الى مكان آخر ولما قتل أبوه كان في مكان يقال له دمون
 في ارض اليمن مع نديم له يستقيه الحمر ويلاعبه بالنرد فجاءه
 الرسول بنخبر والده فلم يلتفت الى قوله بل أمسك نديمه وقال
 له : اضرب فضرب حتى اذا فرغ من غنائه قال له : لم أشأ
 أن أفسد عليك دستك . ثم سأل الرسول عن امرأته فأخبره
 فقال : الحمر على النساء حرام ولا أدهن بدهن ولا أغسل
 رأسي من جنابة حتى اقتل من بني اسد مائة وأجزع نواصي
 مائة . واعتم بالعمامة السوداء وكان امرؤ القيس اذ ذاك في
 نحو العشرين من عمره فارتحل الى بكر وتغلب في شرقي نجد
 — وبنو تغلب أخواله لان أمه منهم كما تقدم — واستنجد بهم فبشوا
 له العيون والارصاد على بني اسد وكان بنو اسد مقيمين في
 بني كنانة فعلموا بذلك فارتحلوا في بعض الليالي وبنو كنانة
 لا يعلمون وكانت العيون قد انبأت امرؤ القيس بأن بني اسد
 في كنانة فحمل بنو بكر وتغلب حتى جاء الحى وهجم على أهله
 ووضع السلاح فيهم وهو يقول : يا لثارات الملك يا لثارات
 الهمام . فخرجت اليه عجوز من بني كنانة فقالت : أبيت اللعن

لسنا لك بشار: نحن من كنانة . فعلم أنهم فروا فتعقبهم ولم
يذكرهم ثم غادر بكرا وتغلب واستنصر ازد شنوءة فأبوا أن
ينصروه وقالوا: بنو أسد اخواننا . فنزل بملك يقال له مرثد الخير
من بني حمير وكانت بينهما قرابة فاستمده على بني أسد فأمدّه
بخمسمائة رجل من حمير ثم مات مرثد قبل رحيل امرئ
القيس بالجيش وخافه رجل من حمير يقال له قرمل بن الحميم
فأظهر رغبته عن نصرته فهم امرؤ القيس بالانصراف فحبل
قرمل وانفذ معه الرجال وتبعه اخلاط من العرب ومستأجرين
منهم فسار بهم الى بني أسد ويقال انه صرف في طريقه بمكان يقال له تباله
فيه صنم تعظمه العرب اسمه ذو الخصلة فاستقسم عنده بقداحه
فأصاب أن لا يذهب فجمع القداح وكسرها وضرب بها وجه
الصنم وسار حتى أتى بني أسد فظفر بهم واخذ بشار ابيه فشكوا
أمرهم الى المنذر فبعث جندا في طلبه من أياد وبهراء وتنوخ فلم
يظفروا به فأمدّهم كسرى بجيش من الاساوره فسرّحهم المنذر
في طلبه فخاف انصار امرئ القيس الحميريون وتفرقوا عنه فنجبا
هو وبعض أقاربه والتجأ الى الحارث ابن شهاب من بني يربوع

وكان مع امرئ القيس خمس أدرع كانت لبني آكل المزار
 ملوك كفرة يتوارثونها ملكا عن ملك . فلم يكادوا يقيمون
 عند الحرث حتى بعث المنذر اليه أن يسلمهم أو يحاربهم فاخرجهم
 ونجا امرؤ القيس ومعه ابنته هند والأدرع والسلاح ومال
 كان بقي معه فخرج على وجهه يستنصر القبائل فجاء سعد بن
 الضباب سيد بني إياذ — وسعد هذا أخو امرئ القيس من
 أبيه لأن أمه كانت تحت حجر أبي امرئ القيس فطلقها وهي
 حامل فتزوجها الضباب فولدت سعدا على فرسه ومن عادة
 العرب أن ينسبوا المولود إلى الفرس الذي يولد عليه — فأقام
 امرؤ القيس عند أخيه هذا أياما ثم تحول عنه إلى أرض طيء
 في شمال نجد عند رجل من بني جديلة اسمه المعلى وأقام هناك
 زمنا طويلا ثم ارتحل إلى غيرهم وما زال يرحل من حى إلى
 آخر بأدرعه وسلاحه وماله فرارا من المنذر حتى وصفوا له
 السموأل ابن عدياء الأسرائيلي المشهور بالوفاء صاحب حصن
 الأبلق بتياء والحصن بناه عادياء جد السموأل واحتفر فيه
 بئرا وكانت العرب تنزل فيه ضيوفاً يأكلون ويشربون أياما

ويعلمون فيه سوقا فوفد امرؤ القيس على السموأل بابتته هند
وبضعة من أهله فضرب السموأل قبة انزل فيها هنداً وانزل
الرجال في مجلس له براح فأقام عنده اعواماً على الرحب والسعة
والمندر لا يزال يطلبه ويبحث عنه فأشار بعضهم على امرئ
القيس ان يلتجئ الى قيصر الروم يستنصره على المندر وكانت
بين الروم والفرس عداوة كما لا يخفى وكان عامل الروم على
الشام الحارث بن ابي شمر الغساني الاكبر فتقدم امرؤ القيس
الى السموأل ان يتوسط له عند الحارث ليوصله الى القيصر
— امبراطور الرومانيين — ففعل وسار امرؤ القيس ومعه رجل
يدله على الطريق واستودع السموأل ابنته هنداً وسائر بنيه وأدركه
وماله وكان قد بلغ المندر نزول امرئ القيس عند السموأل
فوجه الحارث بن ظالم في خيل للقبض عليه ثم علم بخروجه
الى القيصر فأمره ان يأتي بادرأه وماله فوصل الحارث بن
ظالم الى حصن الابلق فنعه السموأل من الدخول واقفل
الحصن دونه فضرب الحارث اطنابه خارج الحصن وكان
للسموأل ابن خرج للصيد في صباح ذلك اليوم فلما رجع قبض

الحارث عليه وقال للسموأل — وقد اطل من فوق السور —
 اعرف من هذا؟ قال نعم هذا ابني: قال افتسلم ما عندك لامرئ
 التيس أم اقتله؟ قال شأنك به فليست اخفر ذمتي ولا اسلم مال
 جارئ! فنصح له ان يسلم الادرع اثلا يقتل الغلام فأبى فتناول
 سيفاً وضرب به وسط الغلام فقطعه قطعتين وانصرف عنه
 وفي ذلك يقول السموأل

وفيت بادرع الكندي اني اذا ما ذم اقوام وفيت
 واوصى عاديا يوما بأن لا تهدم ياسموأل ما بنيت
 بني لي عاديا حصنا حصينا وماء كلما شئت استقيت
 اما مروء التيس فانه سار حتى انتهى الى القسطنطينية وفي
 اثناء سيره مل رفيقه فقال امروء القيس

تقطع اسباب الليانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
 بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصر
 فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ما كنا ونوت فنعذرا
 فلما وند على القيصر استقبله واكرمه لما عرف من نسبه
 وشرفه وأخبره امروء التيس بخبره وما جاء من أجله فأعجبه

بجيش وقوة ولكن بنى اسد ما افكوا يراقبون حركاته
وسكناته فلما علموا بوفاة علي القيصر بعثوا رجلا منهم اسمه
الطاح لينسند عليه امره - وكان امرؤ القيس قتل أخاه - فجاء
القسطنطينية مستخفيا فلما علم بما لاقاه من النجدة وشى به
لدى بعض رجال الدولة واتهمه أنه هوى بنت القيصر وقال
فيها اشعارا الى غير ذلك فيقال ان القيصر لما بلغه ذلك بعث
الى امرئ القيس بحلة منسوجة بالذهب جعل فيها سما يتصل
منها الى بدنه وقال له انى بعثت اليك بحلتى التى كنت البسها
تكرمة لك فاذا وصلت اليك البسها باليمن والبركة واكتب
الى بخبرك حيثما نزلت فلما وصلت اليه لبسها فتقطر بدنه وصار
يحمل فى محفة ولذلك قال :

لقد طمخ الطامح من بعد أرضه ليلبسنى من رأيه ما تلبسنا
فبدلت قرحا داميا بعد صحة فيالك من نعمى تحولت أبؤسا
وما زال امرؤ القيس سائرا حتى وصل انقرا فى آسيا
الصغرى فاشتد به المرض وعجز عن المسير فأقام هناك وقد
أيقن بدنو الاجل ويقال إنه شاهد فى سفح جبل اسمه عسيب

بانقرا قبر الامراة من بنات الملوك ماتت هناك ودفنت فيه
فأنشد :

اجارتنا ان الخطوب تنوب واني مقيم ما اقام عسيب
اجارتنا انا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب
غان تصلينا فالترابة بيننا وان تصر مينا فالقريب غريب
ثم مات ودفن هناك وعاد الجند الى التسطنطينية فلما
بلغ السموأل خبر وفاته سلم الادرع والمال وكل ما خلفه
امروء القيس الى عصبته وكانت وفاته سنة ٥٣٠ مسيحية وقيل
سنة ٥٤٠ وبموته وبموت أبيه من قبل انهزمت بنو كندة وكان
آخر العهد بهم

وكان امروء القيس حسن الصورة جميل الخلقة تزوج
مرارا ولكنه كان شديد الغيرة على بناته فاذا ولدت له ابنة
وأدها فلما رأى ذلك نساؤه غيبن بناتهن في أحياء العرب
وبلغه ذلك فتبعهن حتى قتلهن ولم يبق الا هند المتقدم ذكرها
وأما شعره فانه جمع الى فصاحة الجاهلية وبلاغتها رقة أهل
الحضر . ولما ظهر الاسلام كان حديث امرى القيس متداولاً

في احياء العرب اقرب عهد من هذه فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بشعره قال : هو رجل مذكور في الدنيا شريف فيها مذس في الآخرة خامل فيها يجيئ يوم القيامة ومعه لواء الشعراء الى النار . وكان مبتكرا في الشعر له فيه الاختراعات الحسنة وقد مر ذكره عند التكلم على أصحاب المجلات ومن شعره في معانيه

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد ازمنت صرعى فاجلى
أغرّك منى ان حبك قاتلى وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
وانك قسمت النواآد فنصته قتيل ونصف في حديد مكبل
فان تك قد ساءت منى خلية فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
وما ذرفت عينك الا لتضربى بسهميك فى أحشاء قلب متل
ومن ملوك العرب المنفرقين أبضا - عمرو بن لحي بن

حارثة من ولد كهلان بن سبأ كان ملكا فى الحجاز شائع الذكر فى الجاهلية واليه تنسب خزاعة فيقال انها من سلالة وكان جلوسه على سرير الملك سنة ٢٠٧ مسيحية وهو أول من أتى بالاصنام الى مكة من أرض الشام واقامها فى البيت الحرام

ودعا الناس الى تعظيمها والتترب اليها والتوسل بها وكان
ينكر بعث الاجسام وهو القائل :

حياة ثم موت ثم حشر حديث خرافة يأم عمرو
ومنهم أيضاً زهير بن حباب بن هبل قيل له الكاهن
لصحة رأيه وهو من اهل اليمن واحد من اجتمعت عليه قضاة
وأطاعته غزوات كثيرة وكان شجاعاً سعيداً في غزواته
وفد على أبرهة الاشرم الحبشي فأكرمه وفضله على من
أتاه من العرب وقلده امارة بني بكر وتغلب ابني وائل واستمر
زهير اميراً عليهم حتى خرجوا عن طاعته فغزاهم وتتل فيهم
وكانت جموع العرب تحارب معهم وجرى له مع المذكورين
حروب يطول شرحها واخيراً انتصر عليهم وهزمهم وأسر
كليبا ومهلهلا ابني ربيعة وجماعة من فرسانهم ووجوهم وغزا
ايضاً بني غطفان حينما جعلوا لهم حرماً مثل حرم مكة وولوا
سدانته بني مرة بن عوف وانتصر عليهم واسرهم واخذ فارساً
منهم في حرمهم فقتله وعطل ذلك الحرم
وقد عمر زهير عمراً طويلاً فلما أسن استخلف ابن أخيه

عبدالله بن عليم لانه لم يكن له ولد فقال زهير يوما الا ان
الحى ظاعن فقال عبد الله ألا إن الحى مقيم فتال زهير من
هنا المخالف على فقالوا ابن أخيك فقال : اعدى المرء للمرء
ابن أخيه وانشأ يقول :

الموت خير للفتى فليهلك وفيه بقية
من ان يرى الشيخ الكبير اذا تهادى فى العشية
من كل ما نال الفتى قد نلته الا التحية
وقال أيضا :

لقد عمرت حتى ما أبالى اختفى فى صباح ام مساء
وحق لمن أتت مئتان عاما غايه ان يحل من الثواء
ثم شرب الخمر صرفا حتى مات

ومنهم كليب وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير كان
سيد بنى ربيعة فكانوا لا ينزلون ولا يرحلون الا بأمره وكان
عزيزا مهيبا بينهم لا توقد نار مع ناره ولا ترد ابل مع ابله
ولا يحتبى فى مجلسه ولا يتكلم الا ان يسأل وكان يلقى كلبا
صغيرا فى اطراف مراعيه فاذا اقبل الرعاة وسمعوا صوته

تأخروا عنها وقالوا هذا كليب وائل فكثرت استعمال ذلك حتى صار لقباله وكان مسكنه بتهامة ثم داخله زهو شديد وبنى على قومه فصار يحمى عليهم مواقع السحاب فلا يرعى في حماه أحد ويقول وحش ارض كذا في جوارى فلا يصاد ويبقى كذلك الى أن رأى يوما بجوار ابله ناقة لرجل من بني جرم اسمه سعد بن شمر فأنكرها ورماها بسهم أصاب ضرعها فوات حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دما ولبنا فلما رآها صاح فخرجت البسوس — بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة وكانت جارة الجرمي — ونظرت الى الناقة فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت واذلاه وانشأت تقول:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لا ياتي
ولكنتني أصبحت في دار غريبة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغر بنفسك وارحل فانك في قوم عن الجار اموات
فلما سمع جساس قولها اسكتها وصار يتربص لكليب
حتى باغته يوما وقتله ورجع الى قومه وفرسه يركض تحته

وقد بدت ركبته فلما نظره أبوه مرة قال لقومه قد اتاكم
جساس بدهية: ما رأيته قط بادی الركبتين الا اليوم ثم سأله
عما فعل فقال طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدا لها رقصا. فسأله
ومن طعنت لأمك الشكل؟ قال قتلت كلييا. قال بئس والله
ما جئت به قومك ثم ان مرة دعا قومه الى نصرته فأجابوه
وكان همام ولده الثاني ومهمل اخو كليب في ذلك الوقت
يشربان الخمر مع بعضهما فبعث مرة جارية من عنده تخبره
الخبر سرا وتأمره بالحضور خوفا عليه من القتل فلما انتهت
اليه الجارية أشارت اليه وأخبرته بما صار فسأله مهمل عما قالت له
الجارية - وكان بينهما عهد ان لا يكتم احدهما شيئا عن الآخر -
فذكر له الخبر فقال له مهمل: إست اخيك اضيق من ذلك
ولكن إشرّب فاليوم خمر وغدا أمر. واقبلا على شرابهما
فشربا فلما سكر مهمل خاف همام منه وانصرف الى أهله
وساروا الى جماعة قومهم من بني بكر وظهر أمر كليب فشقت
النساء عليه الجيوب وخرجت الا بكر وذوات الخدور من
البيوت يندبنه وأخيرا اجتمع مهمل على قومه من تغلب وشمر

جساس وجرت بين الفريقين عدة وقائع قتل فيها من الفريقين خلق كثير واستمر الحال على ذلك الى أن كان المهمل راجعاً من اليمن الى ديار قومه وكانت منفردا ليس معه أحد فلقية عوف ابن مالك من البكرين وكان نازلاً بنواحي مدينة يثرب فأخذه فكث في أسره ما شاء الله ومات . هكذا قيل : وقيل بل كان قد أسن وله عبدان يخدمانه فخرج بهما يريد سفراً حتى اذا نزل في بعض القلوات نام تحت ظل شجرة وكان العبدان ملاً من خدمته ولطول بلائه لهما غرماً على قتله وأحس بذلك مهمل ولم يجد بداً من الخلاص فقال لهما اذا اتيتما الحى فقولوا هذا البيت

من مبلغ الاقوام ان مهمل الله دركما ودر بيكما
فقتلاه ورجعاً لحيه فسألها أهله أين سيدكما قالا مات
بأرض كذا فدفناه بها واديا الشعر الذي قاله لهما فقالوا ما هذا
شعر مهمل لانه لا معنى له وفكرت فيه بنت له تسمى سلمى
فقالت والله ما كان أبى ردى الشعر ولا سفساف الكلام
وانما أراد به أن يخبركم ان العبدان قتلاه وهو يريد

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا أضى قتيلا في الفلاة مجندلا
 لله دركما ودر بيكما بن يريح العبدان حتى يقتلا
 فضربوا العبدین ذاقرا بقتله فقتلوهما فيه وبذا انتهت
 الحرب بين بنى تغاب وبنى بكر المشهورة بحرب البسوس
 نسبة الى من كانت السبب في اضطرامها بعد أن دامت بين
 القوم اربعين سنة من سنة ٤٩٠ لسنة ٥٣٠ مسيحية فكم من
 نفس بريئة قتلت ومن دماء سفكت ومن روح زهقت
 وقبائل ضعفت ! وما منشأ كل ذلك سوى الظلم والاسترسال
 في البنى والغلو في الانتقام والكن قدر فكان
 ومن ملوك العرب قيس بن زهير بن خزيمه العبسي
 كان من دهاة العرب وكان يقال له قيس الراى لصحة رأيه
 ووفور حكمته استولى على ملك بن زهير بعد قتله في بنى عامر
 حتى وقعت الحرب بين بنى عبس وفزاره بسبب سباق الخيل
 كما مر في غير هذا الفصل فلاحق بنى النمر بن قاسط وكان
 قد افترق وساءت حالته فاقام بينهم وتنصر وما زال عندهم الى
 أن مات . والى هنا نتنصر في ذكر ملوك العرب فاننا لو

حاولنا ذكرهم جميعاً او ذكر كل القبائل القحطانية التي سكنت
جزيرة العرب لما استطعنا لذلك سبيلاً ويلزم لذلك مجلدات
فالاقتصار أولى

﴿ الفصل الرابع ﴾

(طبقة العرب الباقية)

العرب المستقرّة

أسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة — مصاهرته لبني جرهم بن
قحطان — عمارة البيت الحرام بمكة — أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة
الكعبة — فضل قریش على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها —
اغارة الحبشة على مكة — واقعة الفيل — ولادة النبي صلى الله عليه وسلم .
رضاعه ونسبه ونشأته وتربيته وحالته وسيرته بين قومه الحين بعثته — مجمل
أحوال العالم في ذلك العهد

اسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة ومصاهرته
لبني جرهم — روى ان ابراهيم عليه السلام استمر دهرًا
طويلاً لا يولد له ولد فوهبت له زوجته سارة جارية لها
اسمها هاجر وهبها اياها عزيز مصر حين وفد عليه ابراهيم

وزوجته في خبر ليس هذا محل ذكره وقالت له حين وهبته
 إياها: انى حرمت من الولد فلعل الله ان يرزقك منها ولد اتقر
 به عينك. فأحبها ابراهيم لجمالها وعقلها ودينها فلما حانت باسما عيل
 وولده أخذت سارة الغيرة وقالت لزوجها: ان الله تبارك وتعالى
 جعل صداق عليك رضاي وطاعتي وأنا أمرك ان تحمل هذه
 الجارية وابنها الى بلد لا ماء فيه ولا زرع فتسكنهما فيه . قال
 افعل ذلك فأمر الله تعالى ابراهيم بالمسير الى مكة فصاروا
 وانزلها هناك والبيت يومئذ ربوة حمراء مشرفة على ما سواها
 ولم ينزل ابراهيم عن مطيته فنادته هاجر: يا نبي الله الى من
 تكلنا؟ قال الى الله تعالى واستودعكما إياه. فقالت له: الله أمرك
 بهذا؟ قال نعم قالت: اذا لا يضيعنا. فرجع ابراهيم الى الشام ولما
 ولى قال — كما ورد في القرآن الكريم —: «رب انى اسكنت من
 ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة
 فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات
 لعلهم يشكرون» ثم ان هاجر أقامت عريشة وكان معها وعاء فيه ماء
 فنفد الماء وعطشت هي وولدها عطشا شديدا واخذت تتردد بين

الصفاء والمروة مهرولة بين الميلىن الاخضرين الموجودين للآن
 — والهرولة باقية للآن فى السحى من مناسك الحج تذكاراً لما
 حصل من هاجر فى ذلك الحين — ثم تضرعت الى الله تعالى
 فانفجرت لها عين زمزم فأخذا يشربان منها زمنا وكانت بنو
 جرهم — وهو الذى كان ولاده أبوه قحطان على الحجاز كما قدمنا —
 بواد قريب من مكة فلما شاهدوا الطير تحوم حول الوادى بعد
 ان كانت لا تأوى اليه قالوا ما لزمته إلا وفيه ماء فجاؤا الى
 اسماعيل وأمه فأخبرتهم بخبرها فقالوا لولا أن هذا الغلام كريم
 على الله تعالى ما نبع له الماء من هذا المكان واستأذنوا منها أن
 ينقلوا بأهلهم فيقيموا معها وان هذا الغلام متى اراد اخرجهم
 من هذا المحل خرجوا منه واشتروا له عليهم المواساة فى
 أموالهم ورثاسته عليهم عند ادراكه فانتقلوا جميعا وابتنوا
 المنازل والبيوت ونشأ اسماعيل مع أولادهم وكانت لغتهم
 العربية الصحيحة — وهى لغة أولاد بنى معد التى نزل بها القرآن
 الشريف — فتعلمها منهم ثم لما بلغ الأربعين بعث الى العماليق
 وجرهم وقبائل اليمن وكانوا يعبدون الاوثان فأمن بعضهم

وذهب كثير من العلماء الى أن اسماعيل عليه السلام هو الذبيح وان ذلك كان في شعب من مكة وأنه فدى بكبش وذهب آخرون الى أن الذبيح كان اسحاق .

وقد صاهر اسماعيل بنى جرهم وولد له من رعدة بنت مضاى اثنا عشر ذكراً وبنت ومات بمكة ودفن ما بين الميزاب والحجر الى جنب قبر أمه هاجر

عمارة البيت الحرام بمكة — كان ابراهيم يزور ولده اسماعيل عليهما السلام من وقت لآخر ولما زاره آخر مرة أمره الله تعالى ببناء البيت الحرام وأرسل له السكينة—وهي ريح خجوج—فسار معها ابراهيم حتى انتهت الى موضع البيت فبنى ابراهيم وساعده اسماعيل وكانا كلما بنيا دعوا الله « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فلما ارتفع البنيان وضعف ابراهيم عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم ولما فرغ من بناء البيت أمره الله تعالى بالآذان كما ورد في قوله تعالى : وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل

ضامراً يأتين من كل فيج عميق . وانصرف ابراهيم الى الشام
ومات هناك

أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة الكعبة وفضل قريبه
على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها — اختلف
المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبنى اسماعيل
فمن قائل ان الملك كان في جرهم ومفتاح الكعبة وسدانتها
مع بنى اسماعيل ومن قائل ان قيذار — أحد اولاد اسماعيل
الاثني عشر — توجه اخو له جرهم وملكه عليهم بالحجاز . وقد
كانت سدانة البيت الحرام ومنافيتهم في بنى اسماعيل بلا خلاف
حتى انتهى ذلك الى نابت من ولد اسماعيل فتغلب عليه بنو
جرهم وأخذوها منه وبقيت فيهم حتى بغوا واستحلوا حرمة
البيت وظلموا من دخل مكة من الحجاج وغيرهم وظهر فيهم الزنا
والفساد فسلط الله عليهم الرعاف وأضعفهم . ثم اجتمعت خزاعة
لما خرجت من اليمن ونزلت بمكة وأخرجت جرهما من الحرم
وبقيت ولاية البيت وسدانة الكعبة في خزاعة الى أن أخذها
منها قصي — الجلد الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم — وبعد أن

صار في يد قصى ولاية البيت ومفتاح الكعبة جمع قبائل
قريش وكانت متفرقة في البوادي وأسكنها الحرم وكانت
تدعى قبل التجميع النضر بن كنانة وسماها قريشاً من التقريش
وهو التجميع وقال بعضهم إنما سميت قريشاً لدابة في البحر
هى أعظم دوابه خطراً لا تظفر بشئ من دواب البحر إلا
أكلته فسميت قريش بهذا الاسم لأنها كانت أعظم العرب
بمكة وقال بعضهم أيضاً ان هذا الاسم مأخوذ من التجارة
لمعاطاة أهل قريش التجارة زمن الجاهلية .

وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المتدى
بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارة يجتمعون فيها للمشاورة
في الامور المهمة وهو الذى بنى المسجد الحرام بجبل المزدلفة
وكان يسرج عليه أيام الحج فسماه الله مشعراً وأمر بالوقوف
عنده وتنتهى قبائل قريش الى فهر بن مالك . وكان قصى
يعشر من دخل مكة من غير أهلهما فاجتمع لقريش في ذلك
الوقت الرئاسة على قومهم وأطاعتهم العرب واجتمع لهم ما لم
يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف في ذلك الوقت وهى الحجابة

والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة: فالحجابه هي سدانة البيت الشريف أى تولية مفتاح بيت الله . والسقاية اسقاء الحج كلهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج . وأما الرفادة فهي اطعام سائر الحجاج فكانت تمد لهم الاسمطة فى أيام الحج . وأما الندوة فهي الشورة فكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم من العرب وأهل الرئاسة من بلغ من العمر أربعين سنة فما فوق ولا يعتد عقد نكاح من قريش الا بها . أما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقالون عندها . والقيادة امارة الجيش ورئاسة الحرب

فكانت هذه هي مناصب الشرف فى الجاهلية وانتهت الى عشرة أبطن من قريش وكلهم من أولاد قصى الذى أسس وحدتهم وجمعهم وأوجد لهم هذه الوظائف وبقيت لهم فى الاسلام كذلك والعشرة ابطن هم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجميع وسهم

ولما كبر قصي وكان ابنه عبد مناف ساد قومه وانتهت
اليه الرئاسة في حياة أبيه شكا اليه عبد الدار ولده الثاني ضعه
في قومه فاعطاه دار الندوة وحجابه الكعبة واللواء والسقاية
والرفادة. أما اللواء فبقي في بنيه إلى أن جاء الاسلام فأبطله
وأما الرفادة والسقاية فإن بني هاشم وبني عبد شمس وبني
المطاب وبني نوفل أولاد عبد مناف أجمعوا على أخذهما من
بني عبد الدار لشرفهم عليهم ففترقت قريش مع الفريقين
فكان بنو زهرة وبنو أسد وبنو تميم وبنو الحارث مع عبد
مناف وكان بنو سهم وبنو جمح وبنو مخزوم وبنو عدى مع
بني عبد الدار وتحالف كل فريق مع حزبه وتهايأوا لالتال ثم
انتهوا إلى الصلح على أن يكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف
فكانتا بعده في هاشم ابنه ثم للمطاب أخيه ثم لابني طالب
ثم أعطاهما لأخيه العباس وأما دار الندوة فبقيت لعبد الدار
وولده من بعده حتى جعلت دار الإمارة بمكة ثم دخلت الحرم
فيما بعد وأما الحجابة فبقيت في بني عبد الدار إلى الآن وهم
بنو شيبه بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزيز بن عثمان بن

عبد الدار — ويقولون أن أول عداوة بين أمية بن عبد شمس
وبين أخيه هاشم هو أنه لما كان لهاشم السقاية والرفادة
حسده أخوه المذكور على سيادته وإطعام الطعام ونافره
فتحاكما إلى الكاهن الخزاعي بعسفان على خمسين ناقة والجلاء
عن مكة عشر سنين ف قضى الكاهن لهاشم فأخذ الابل
ونحرها وأطعمها الناس ورحل أمية إلى الشام عشر سنين
فكانت أول عداوة بينهما

ولنقتصر هنا أيضاً على ما ذكرنا من قريش وبطونها
أذ لا يسعنا مهما طولنا أن نأتي على ذكر كل القبائل العدنانية
فعدها يجمل عن الحصر والاقتصار على ما أوردنا أولى

اغارة الحبشة على مكة وواقعة الفيل — سبق لنا عند
ذكر تغلب الحبشة على القوم بأن أبرهة الأشرم ملك الحبشة
أغار على مكة المشرفة يريد هدم الكعبة وكان بنى كنيسة
بصنعاء اليمن لما كان مستولياً عليها وأراد أن يصرف إليها
الحاج فخرج رجل من بنى كنانة فقعدها فيها ليلاً وقضى حاجته
بها فأغاضه ذلك وحلف ليهدم الكعبة فخرج ومعه جيش

عظيم وفيه المشهور وأثنا عشر فيلا غيره فلما قرب من مكة خرج لهم أبو رغال الماعون وهو من عرب قريش ليخون وطنه ويدل أعداءه على طريقة الدخول لمكة فكان هو أوّل من مات وأوّل من خان من العرب ولذلك رجعت العرب قبره كما يرجه للآن كل الحجاج حتى صار ذلك من مناسك الحج . فانظر بأى عين كان العرب ينظرون الى رذيلة الخيانة التى تأبأها طباعهم ! وفى رمى الجمار هذا اشارة خالدة الى الابد لهذه الخيانة عبرة لمن يعتبر ! ثم ان أبرهة لما اشرف على مكة شن الغارة على اطرافها كما هى العادة فسأقت خيل له مائتين بعيرا لعبد المطاب - جد النبي صلى الله عليه وسلم - وكان هو الامير وقتها فهم اهل الحرم لقتاله ثم عرفوا انهم لا طاقة لهم به فتركوه وبعث أبرهة الى أهل مكة يقول لهم : إني لم آت لحربكم وإنما جئت لهدم هذا البيت فان لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فقال عبد المطاب لسفيره : والله لا نريد حربه وما لنا به من حاجة هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم صلى الله عليه وسلم فهو يحميه ممن يريد هدمه .

ثم خرج عبد المطلب الى ابرهة وكان عبد المطلب جسيما وسميا
 جليلا ما رآه أحد الا أحبه وكان محاب الدعوة فليل لا برهة
 هذا سيد قریش الذي يطعم الناس في السهل ويطعم الوحش
 والطير في رؤس الجبال فلما رآه احبه واجلسه معه على سريره
 ثم قال لترجمانه قل له سل حاجتك فقال: حاجتي أن يرد الملك
 على إبلتي. قال له أبرهة: قد كنت اعجبني حين رأيتك ثم زهدت
 فيك حين كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير وتترك بيتا هو دينك
 ودين آبائك قد جئت لهدمه فلم تكلمني فيه؟! فقال عبد المطلب
 إني أنا رب الابل اما البيت فله رب يحميه. فرد أبرهة على
 عبد المطلب ابله ثم انصرف الى قریش فأخبرهم الخبر وامرهم
 بالخروج من مكة الى الجبال ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة
 ودعا الله تعالى قائلا:

لاهم ان العبد يمنع	رحله فامنع رجالك
وانصر على آل الصليب	وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبيهم	ومحالمهم ابدا محالك
ولئن فعلت فانه	أمر تتم به فعالك

أنت الذي ان جاء با غ نرتجيك له فذلك
 لم أستمع يوما بأر جس منهم ينفو قتالك
 جروا جموع بلادهم والفيل كي يسبوا اعيالك
 عمدوا حماك بكيدهم جهلا ومارقوا اجلالك
 ان كنت تاركهم وكه بتنا فأمر ما بدا لك
 ثم ارسل حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش
 الى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها . فحينئذ
 جاء برهان الله سبحانه وتعالى وحتمت كلمته وبينما شمر أبرهة
 لدخول مكة وهدم البيت وقدم فيه محمود (١) امام جيشه
 إذ فجأهم ما قص الله تعالى في سورة الفيل من ارساله الطير
 الالبابيل عليهم ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول
 وتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل نهل وأصيب أبرهة
 حتى تساقط انامله انملة انملة وقدموا به صنعاء وهو مثل فرخ
 الطائر فما مات حتى انصدع قلبه عن صدره

(١) نوع من الفيلة عظيم الحلقة انقرض الآن اسمه بالافرنكية

Mammoth وحرفته العرب الى محمود

وفي هذه السنة — أى سنة الفيل — ولد النبي صلى الله عليه وسلم كما سيجيء ان شاء الله تعالى . قال بعض العلماء ان مرض الجدري كان أول ظهوره بين العرب في جيش أبرهة هذا ولعل قول الله في التنزيل اشارة الى هذا المرض كما ظنه بعضهم والله أعلم

مولده صلى الله عليه وسلم ونسبه ورضاعه ونسأته وتربيته
وصالته وسيرته هيى بعثته — ولد عليه الصلاة والسلام حين
طلوع فجر يوم الاثنين ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ مسيحية وهو
تاسع ربيع الاول من عام الفيل السالف ذكره من أبوين
كريمي العنصر عظيمي الجاه: فهو محمد بن عبد الله بن عبد
المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم الملقب
بكلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك
بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر
بن نزار بن معد بن عدنان ونسبه الى عدنان متفق عليه بلا
خلاف انما الخلاف في عدة الآباء الذين بين عدنان واسماعيل
أما أمه فهي آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهره بن حكيم

بن مرة تجتمع مع عبد الله أبيه في حكيم بن مرة . فبعد الله
 من قصي بن حكيم وأمنة من زهرة بن حكيم
 وكان مولده عليه الصلاة والسلام بمكان بمكة يسمى
 الشعب في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ولما
 ولد سنى محمدا رجاء ان يحمد ولم يكن هذا الاسم شائعاً بين
 العرب بل الهاميا

وقد اصطفاه الله من اطهر العشائر وأطيب الاعراق
 منتقلا من أصلاب اشراف الرجال الى ارحام شريفات النساء
 بعقد النكاح ولم يصبه شئ من سفاح الجاهلية وكان أبوه قد
 مات قبل مولده بشهور غير تارك له شيئاً يذكر من المال
 والغم وبركة الحبشية المكنية بأُم أيمن ثم توفيت أمه وعمره
 ست سنوات فكفله جده عبد المطلب ثم مات عنده وعمره
 ثمانى سنوات من بعد أن أوصى به الى عمه أبى طالب فأحسن
 أبو طالب كفالاته وعزز وصايته واحبه حباً شديداً حتى كان
 لا ينام إلا إلى جانبه ولا يخرج الا معه اما رضاعه صلى الله
 عليه وسلم فكان على عادة العرب بان يرضعوا المولود من غير

أمه لاعتقادهم ان ذلك ادعى الى نجابة الرضيع — وهذه العادة
 باقية ولكن لا لهذا الغرض بل للرفاهة والراحة من عناء
 الرضاع — وقد عرض على كثير من نساء العرب في أول
 الامر لارضاعه فأبين قائلات: ماذا عسى أن يكون من أمه
 وجدته الينا: انما يكون الاحسان من الاب؛ فاخذته حليمة
 السعدية بنت أبي ذؤيب ومضت به الى بلادها عند سعد
 فأقامت به أربع سنوات ثم عادت به الى مكة
 وكان الرسول عليه السلام في مدة كفالة عمه مثال
 القناعة والبعد عن السفساف التي تشغل بها الاطفال
 عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان اذا اقبل وقت
 الاكل جاء الاولاد يخطفون وهو قانع بما يسره الله له .
 ولما بلغ اثنتي عشر سنة سافر به عمه الى الشام في تجارة
 فراه راهب من الاحبار يقال له بحيرا فتهرس فيه شأنا عظيما
 في المستقبل وقال لابي طالب: أنه لنبي كريم واني لاظنه
 الذي بشر به عيسى عليه السلام في انجيله بلفظ « فارقيط أو
 بار قليطس » — التي معناها محمود لا المعزى كما يقولون —

فان زمانه قد قرب . كما انبأ عن ذلك دانيال في نبوته (١) وينبئني ان يتحفظ عليه خشية ان يقتله اليهود . فرده أبو طالب الى مكة . وكان النبي عليه السلام وهو صغير يرعى الغنم لاهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخارى في صحيحه ولعمر الحق ما في ذلك من عار عليه فانه إن يرع غنما فقد رعاها الانبياء من قبله وهذه من أبلغ الحكم لتربية النفس فان الانسان اذا استرعى الغنم وهي اضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللفظ فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذب أولا من

(١) جاء في الاصحاح الثانى عشر لدانيال « طوبى لمن ينتظر ويباغ الى الالف والثمائة والخمسة وثلاثين يوماً » وقد أخبرنى من يوثق بقوله ان فى هذه الجملة غلطاً فى الترجمة اذ فى الاصل العبرانى ما يفيد « طوبى لمن ينتظر ويباغ الى ايام الالف والثمائة والخمسة والثلاثين » أى الى أيام سنة ألف وثلثمائة وخمسة وثلاثين وهى المدة التى بين دانيال وظهور انبى عليه السلام وقد كان لهذا الامر مباحث طويلة بين من أخبرنى والقسيس الشهير اسحق تيلر الذى لا يزال موجوداً حياً وعرض هذه المسئلة على ما سمعت على جمعية تصحيح تراجم الكتب المقدسة بلوندره

الحدة الطبيعية والظلم الغزيرى فيكون فى اعدل الاحوال
ثم لما شب عليه الصلاة والسلام تعاوى التجارة ولم يتعلم علما
ولا سحررا ولم يشتغل بشئ من ذلك ولا بشعر ولا اجتمع
على أحد من الحكماء فى صغره ليقال إنه تلقى عنه ما دعى
الناس اليه من التوحيد كما يزعمه المكابرون من غير أهل
الاسلام: فهو أمى ربى كما يربى غيره من أبناء قومه اليتامى الفقراء
يدلك على ذلك اطباق الامم على اختلاف اديانهم وأوطانهم
ولغاتهم على انه امى وعدم اتهم قریش له بقراءة كتاب أو
حفظ تاريخ ولم يسمع ذلك عنهم مع أنه تعرض لتسفيه احلامهم
وتزييف عبادتهم وتقبیح عوائدهم ودفعهم عن معبوداتهم
الباطلة باشد ما يكون من التريع والتوبيخ ولم يتجرأ واحد
منهم على نسبة ما يقوله الكتاب أو لمعلم غاية ما قالوه بعد
انتشار دعوته ان سالمان للفارسی يعلمه مع انه ما صحبه الا بعد
الدعوة بكثير على انه كان فارسی العبارة لا يحسن العربية والنبي
لم يتعلم الفارسية حتى يحسن الاخذ عنه قال الله تعالى: «لسان
الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين» وما أخرهم عن

نسبته الى معلمين إلا علمهم بأنه تربي بين ايديهم لم يخط بقلم
ولا قرأ في كتاب ولا صحب كاهنا ولا جبرا ولا عالما بالسير
والاخبار. وكان أكثر ما يقولون انه ساحر او كذاب وهذان
وصفان لا يستلزمان سبقي تعلم قراءة او كتابة ولطالما وقع
لهم معه وقائع تستدعي الكتابة فكان يستدعي غيره ليكتب
ولم يقل له احدهم اكتب بيدك فانك متعلم لست بأمي. وحينما
بلغ العشرين من العمر وكلت اليه خديجة بنت خويلد الشخوص
الى الشام في تجارة لها مع غلامها ميسرة وكانت من شريقات
العرب موصوفة بالعقل والحزم والثروة فقبل وسافر ورجع
ولما قدم مكة أخبرها ميسرة بما حققه فيه من الامانة ويمن
الطالع فعرضت عليه ان يتزوجها فاجابها صلى الله عليه وسلم
وعرض امرها على اعمامه فقبلوا وذهب معه حمزة بن عبد
المطلب عمه حتى دخل على عمها عمرو بن اسد وخطبها منه
فقبل واجتمع اعمامه صلى الله عليه وسلم وسائر مضر وعقدوا
له عليها وكان عمره اذ ذاك خمسا وعشرين سنة وهي في الاربعين
من العمر ورزقه الله كل أولاده منها الا ولده ابراهيم فانه

من مارية القبطية التي بعث بها اليه المقوقس نائب مصر ثم
توفيت خديجة قبل هجرته بثلاث سنين
وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم حربا يقال لها حرب
الفجار وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس
وليس هذا محل ذكر اسبابها ولا ذكر تفصيلاتها وكان
عمره أربع عشرة سنة وكان اذا حضر صلى الله عليه وسلم
غلبت كنانة واذا لم يحضر انهزمتم: قال صلى الله عليه وسلم في
حرب الفجار « حضرته مع غموقي ورميت فيه بأسهم وما
أحب اني لم أكن فعلت »

وعند منصور قريش من حرب الفجار في شوال عقد
حلف الفضول وهو أشرف حلف في العرب وأحق بالفخار
مما عداها من المحالفات التي كانت العرب تعقدها فيما بينهم
للتناصر ولتعضيد بعضهم ضد آخرين . وكان حلف الفضول
لشرف موضوعه ونيل الغرض المتصود منه يكاد أن يكون
أساساً لسياسة وطنية وتمهيدا للمواد التمدنية وأول من دعا
الى هذا الحلف في شهر ذي القعدة بعد الفجار الزبير بن عبد

المطلب — عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق أبيه — فاجتمع اليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى في دار عبد الله بن جدعان التيمي من وجوه قريش وتحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها أى على أن يردوا الحقوق التى أخذت ظلماً الى أربابها وان يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه شريعاً كان أو ضعيفاً وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الاسلام لاجبت » أى لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لاجبت لان نصر المظلوم حق والاسلام انما جاء لاقامة الحق . فانظر هذه المكرمة التى اتخذها العرب أيام الجاهلية وهم سكان جبال وقفار ما قرؤا كتاباً ولا عرفوا مدينة ولا خالطوا أئماً مؤذبة؛ وهل يوجد فى الجمعيات الانسانية التى تفتخر بها أوروبا الآن جمعية مثل هذه التى تأخذ المظلوم من الظالم وتحفظ الحقوق لأهلها وتكف يد الاستبداد عن كل ذى روح ؛ كل جمعية انسانية بعد هذه لا تساويها فى

الدرجة كيفما علت مراتبها وشرفت مقاصدها ولو وجدت
 جمعيات كهذه الآن لآبادت خلقت كثيرا !!! وحدث أنه لما بلغ
 صلى الله عليه وسلم نحو الخامسة والثلاثين من عمره جاء سليل
 جارف صدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان
 أصابها من قبل فارادت قريش هدمها ليرفعوها ويستقفوها
 فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمساكنها في
 قلوبهم فقال لهم الوليد بن المغيرة: هل تريدون بهدمها الاصلاح
 أم الاساءة؟ قالوا بل الاصلاح. قال ان الله لا يهلك المصلحين.
 وابتدأ بالهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس اسماعيل
 عليه السلام ثم ابتدؤا في البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها
 مهر بنى ولا بيع ربا وجعل الاشراف من قريش يحملون
 الحجارة على أعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل
 ولما أرادوا وضع الحجر الاسود اختلفوا فيمن يضعه وتناقشوا
 في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا
 الخصام أربع ليال وكان أسن رجل من قريش اذ ذاك أبو
 أمية بن المغيرة فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من

ترضون بحكمه. فقالوا نحل الامر لاول داخل. فكان هذا
الداخل هو النبي صلى الله عليه وسلم فاطمان الجميع له لما
يعودونه فيه من الامانة وقالوا: هذا الامين رضينا. فلما أخبروه
الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم
وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فاخذوه
وموضعه فيه وهكذا انتهت هذه المشكاة التي كثيرا ما كان
أمثالها سببا في انتشار حروب هائلة بين العرب. ولا يستغرب
من قریش تنافسهم هذا لان البيت قبة العرب وكعبتهم التي
يحجون اليها وهو أول بيت وضع للناس بشهادة القرآن
الكریم قال الله تعالى: «ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة
مباركا وهدى للعالمين: فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن
دخله كان آمنا»

سيرته في قومه قبل بعثته — كان عليه الصلاة والسلام
أحسن قومه خلقا وأصدقهم رأيا وحديثا وأرجحهم عقلا
دأب البشر مديم الصمت لين الجانب قليل اللغو بعيدا عن
النحس والاخلق التي تدنس الرجال عظيم الامانة حتى سموه

الامين وشهد له ألد أعدائه النضر بن الحارث حيث يقول —
والفضل ما شهدت به الاعداء —: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا
أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم
في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر! لا والله ما هو
بساحر. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا: هل
كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال لا: فقال
هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.
وتدحفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرده
الشريف بضدها وبغضت إليه الاوثان بغضا شديدا حتى ما
كان يحضر لها احتفالا أو عيدا مما يقوم به عبادها قال عليه
السلام: «لما نشأت بغضت إلى الاوثان وبغضت إلى الشعروم
أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول
الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى
أكرمني الله برسالته: قلت ليلة لغلام كان يرعى معي لو أبصرت
لي غنمي حتى أدخل مكة فاسمر كما يسمر الشباب فخرجت
لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدنوف

والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنى
فتمت فما أيقظاني الامس الشمس ولم أقض شيئاً ثم عراني مرة
أخرى مثل ذلك « وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على
النصب وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه
شيوعاً عظيماً وعاش في قومه أربعين سنة قبل أن يرسله الله
تعالى ما ضبطوا عليه كذبة ولا رأوه وقع في مكروه ولا تلبس
بمعصية ولا تعدى على أحد ولا تعرض لجار ولا طمع في مال
ولا تطالع لجاه ولا زاحمهم في نادى لهو ولعب ولا شاركهم
في شئ من عوائدهم ولا بخل بعتاء ولا حكم بغير حق ولا
أثار فتنة ولا وشى بأحد ولا نهم على أحد ولا أفسد بين اثنين
وذلك كله من الصفات التي يحلى الله بها أنبياءه ليكونوا على
تمام الاستعداد لتلقى وحيه فهم معصومون من الأدناس قبل
النبوة وبعدها: أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي
سيسند إليهم. وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم. وقبل أن يبلغ
الأربعين من العمر كان يحتل بغار حراء في كل سنة شهراً
فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد فلما كمل له أربعون سنة أتاه

الله الوحى على رأسها كما سيحى . وكان يعبد الله تعالى على دين آبائه وهو دين ابراهيم عليه السلام ولا يعترض على ذلك بما يأخذه بعض السذجة من ظاهر قوله تعالى : « ووجدك ضالا فهدى » فانه ليس المقصود من ذلك الضلال عن التوحيد أو فى العبادة ^(١) ولم يكن ذنوبيا عبدا لشهواته كما يرميه بعض متعصبى الفرنج فمن الثابت أنه قضى جل عمره الى ما بعد بعثته بدون أن يتزوج بغير خديجة ولا يقال ان الرجل بعد أن يشيب ويسن يميل الى الشهوات والنساء أكثر مما كان شابا قويا ! بل لا بد لزواجه بغير خديجة بعد بعثته من حكم لا تفوت على كل منصف غير ذى غرض . كما انه كان يأكل من شغل و نتيجة عمله لا من مال زوجته اذ لم يرمه بذلك أحد مطلقا من قومه وخصومه الذين ربي فيهم ونشأ بينهم ولو علم أهل مكة أن خديجة كانت تنفق عليه وتطعمه لغيروه بذلك وعدوه من دواعى احتقاره وعدم اعتباره

(١) انظر تفسير هذه الآية الشريفة فى تفسير جزء عم الذى

طبعه حديثا فضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حالا .

لان الركون الى ثروة المرأة لم يكن مألوفاً عند العرب كما هو
 مألوف عند الاورباويين الآن ولم يسمع من أهل مكة قول
 في هذه القضية فهو ولا شك زعم باطل اذ من المعلوم أنه بنى
 امره على الزهد والاقتصاد وعدم التوسع في المعيشة فلذلك
 كان يقنع بميسور العيش وما زاد عن نفقته ينفقه ولا يتركه
 يبيت عنه ومن كانت هذه صفته كان أبعد الناس عن التطلع
 لمال الغير والطمع فيما بأيدي الناس من النعمة وسيان عنده
 أيسرت زوجته أو أعسرت. الا ترى انه اخذ زوجات بعدها
 كان ينفق عليهن وليس لاحداهن شيء يذكر من المال
 والمتاع؟ فهو في نزاهة نفس وغنى قلب لا يذكر في جانبه احتياجه
 لمثر او لمثرية. وفي ما تقدم من القول وما قال سفيان والنضر
 بن الحارث ما فيه الكفاية

مجموع أهوال العالم في ذلك العهد — كانت الامة
 العربية كما سبق القول قبائل متخالفة في النزعات خاضعة
 للشهوات خفر كل قبيلة في قتال أختها وسبك دماء ابطالها
 وسبي نساءها وسلب اموالها تسوقها المظالم الى المعامع وتزين

لهم السيئات فساد الاعتقادات وكانت تمنعها انفتها وعزتها
من ان تطأطى لرئيس او تخضع لاحد وقد دخل جزيرة
العرب كل الاديان من نصرانية ويهودية ومجوسية وزندقة
ووثنية فزادت في التفرقة والتنازع والوحشة بينهم. وبلغ العرب
من الجلالة حداً صنعوا اصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما
جاءوا أكلوها. وبلغوا من تضعيف الاخلاق وهنأ قتلوا فيه
بناتهم تخلصاً من عار حياتهن او تنصلاً من نفقات معيشتهم.
وبلغ النجس منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة كانت
ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة وانفصمت
عراها عند كل طائفة وعلت الشجاعة بين كل فريق وآخر
وظهر الفساد بين العباد وزاد الشرك بالله الواحد التهار حتى
صار فى الكعبة نحو الثمائة وستين صنماً يعبده العرب أفلم
يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم
يوحى اليه رسالته وينجيه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه
من كشف تلك الغم التي أظلت رؤس جميع الامم؟
ولم يكن احتياج العرب لذلك المؤدب والمهذب والهادى

بأعظم من احتياج باقى البلاد لنفس ذلك فقد كان العالم أجمع محتاجا للإصلاح وتقويم اعوجاجه وتعديل مزاجه إذ كانت دولتا العالم — دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب — فى تنازع وتجادل مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة واموال هالكة وكانت همّة الاهالى قد سئمت من كثرة جور كل من الدولتين على الرعايا وعسفهم الفاحش الذى لم تقف عند حد فزادتا الضرائب زيادة لا تطاق حتى أثقلت الظهور وكلت همّة الاهالى منها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتياط لسلب الغافل وتبع ذلك انه استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذلة والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الامن على الارواح والاموال بينما زاد رؤساؤهم انهماكا على الذات والشهوات والفسق والعصيان . غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كاشباح اللاعبين يديرها من وراء حجاب ففقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن افراد الرعايا انهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم هو كما الشأن فى

العجاوات مع من يقتنيها . ضلت السادات في عقائدها
وغلبتها على الحق والعدل شهواتها وساد الجهل وعميت البصائر
وبعد الكل عن الصراط المستقيم وزاد العيث وعم الفساد
وبالجملة فقد كانوا جميعاً

عموا عن الخير واعتادت نفوسهم فعل القبيح وظنوا أنه حسن
وأضف الى ذلك ما كانت عليه إذ ذاك دولة الروم من
الاختلاف في الدين وتشعب الملة العيسوية الى الفرق المختلفة
في العقيدة المتعادية أشد العداوة حتى كان كل فريق يحاول أن
يسود مذهبه على ماعداه فزادت الفتن واشتدت الاحن وعم
الاضطراب والاضطهاد وسالت الدماء باسم الدين المتبرء مما
يعملون : هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم ومعتقداتهم
وذلك كان شأنهم في معاشهم : عبيد أذلاء حيارى في جهالة
عمياء . أفلم يكن من رحمة الله وعدالته بأولئك الاقوام كذلك
ان يهديهم الى الصراط المستقيم ويخرجهم من الظلمات الى النور
وينقذهم من الذل والاستعباد وينجي العالم اجمع من الشر الذي
تولاه بنى يرسله هدى ورحمة للعالمين ؟

نعم كان ذلك له الحمد وله الشكر على ما أنعم وتفضل
وأرسل محمدا نبيا للعالم كافة لا كما يزرعه الجاهل بنص الكتاب
من أنه لم يرسل الا للعرب خاصة

الباب الثاني

(في العرب بعد الاسلام)

الفصل الاول

الوحي — ابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام — اذى قرش
للنبي واصحابه — الهجرة للحبيشة — اشتداد الاذى به صلى الله عليه وسلم
واصحابه — الهجرة للمدينة — الانصار والمهاجرون — غزواته عليه الصلاة
والسلام — دعوته الملوك والامراء للاسلام — حجة الوداع — خطبته
الاخيرة — وفاته صلى الله عليه وسلم — سيرته بعد الرسالة

الوحي وابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام

قلنا في الباب السابق ان النبي صلى الله عليه وسلم كان
قبيل ان يبلغ الاربعين من العمر يخلت بغار حراء في كل سنة
شهر فلما كمل له اربعون سنة اتاه الوحي على رأسها وأول

ما بدى به الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا
 جاءت مثل فلق الصبح في الوضوح لا برموز وكنيات كالرؤيا
 التي كان يراها النبي دانيال وغيره من الانبياء. ولما مضى عليه ستة
 شهور وافاه جبريل بالغار في شهر رمضان وقال له: اقرأ. فقال:
 ما أنا بقارئ فكررها عليه جبريل مرتين وفي الثالثة قال له:
 «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق وربك
 الاكرم الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم» فقال بسم الله
 الرحمن الرحيم وعندها كشف عن بصيرته وحق قول الله
 فعلم ما لم يكن يعلم. ولما رجع الى خديجة أخبرها الخبر
 فقالت له: والله لا يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتقرى
 الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر. ثم انطلقت
 به الى ابن عمها - ورقة بن نوفل وكان ممن لهم اطلاع
 على كتب الاقدمين وكان شيخاً كبيراً قد عمى -
 فأخبرته خبز ما رأى فقال له ورقة: «هذا الناموس الذي
 أنزله الله على موسى يا ليتني اكون حياً اذ يخرجك قومك»
 فقال صلى الله عليه وسلم: اوخرجني هم؟ قال: نعم لم يأت رجل

بمثل ماجئت به الا عودى وإن يدركنى يومك أنصر لك نصراً
 مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفقر الوحى عن النبى صلى
 الله عليه وسلم مدّة اختلف فى مقدارها لينذهب روعه ولتشاق
 نفسه ثم نزل عليه قوله تعالى: يا أيها المدثر قم فأنذر. ثم تابع الوحى
 بعد ذلك فكانت نبوته فى سورة الفلق ورسالته فى سورة المدثر.
 وأول ما فرض عليه من أحكام الاسلام الانذار والدعاء الى الله
 بالتوحيد والتبرء من الاوثان ثم فرضت عليه الصلاة فأناها جبريل
 وعلمه الوضوء والصلاه ركعتين. وأقام صلى الله عليه وسلم يدعو
 الله سرّاً قبل أن يؤمر بالاعلان فكان لا يظهر الدعوة إلا لمن
 يثق به فتبعه أناس من النساء والرجال منهم خديجة زوجته
 وعلى بن أبى طالب وهو صبي لم يبلغ الحلم وأبو بكر وزيد بن
 حارثة مولاه رضوان الله عليهم أجمعين وجميعهم كما هو واضح
 من أهله واخص اصدقائه اى ممن وقفوا بأجمعهم — كما كان
 لا بد منه — على أسرار حياته فلم يكن يمنعهم مانع من أن يظهروا
 تلك الاختلاقات التى لم تزل تفترى عنه ويذيعها فى العالم بلا
 انقطاع بعض الجبهة المتعصبين لو كان لا يخلقونه اثر من الصحة.

وكان صلى الله عليه وسلم قبل الاعلان يخرج ومعه على بن أبي
 طالب مستخفين من الناس الى شعاب مكة ويصليان فاذا
 أمسيا رجعا فعثرا عليهما أبو طالب يوما وهما في صلاتهما فقال
 للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك
 تدين به؟ فقال: أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين
 رسله ودين أبينا ابراهيم بعثنى الله رسولا الى العباد وأنت
 أى عم أحق من بذات له النصيح ودعوته الى الهدى
 وأحق من اجابنى اليه وأعاتنى. فأجابهُ أبو طالب أنه لا يستطيع
 ان يفارق دين آبائه ولكنه وعده بان لا يخذله ما بقى. ثم
 أخذ العتلاء من العرب يتسابقون الى الاسلام نأسلم عثمان
 بن عفان وطاحه والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي
 وقاص وكان قد دعاهم أبو بكر رضى الله عنه بعد اسلامه ثم
 أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح وعبيدة بن الحارث وسعيد
 بن زيد بن عم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعمار
 بن ياسر وكثير غيرهم ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالبلاغ
 واظهار الدعوة فى قوله: فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين.

فقام يدعو الله جوراً ويقيم الصلاة علانية وترتب على ذلك
 معاداة قومه له واشتدادهم عليه بالأذى فنزل عليه قوله تعالى :
 وأنذر عشيرتک الأقربين . فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بنى
 هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل وبنى عبد شمس أولاد عبد
 مناف وقال لهم : « ان الرائد لا يكذب اهله والله لو كذبت
 الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم
 والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول الله اليكم خاصة والى
 الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون
 ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احساناً وبالسوء
 سوءاً وانها لجنة ابدأ أو لنار ابدأ » فتكلم القوم كلاماً ليناً إلا
 عمه ابى لهب وكان خصماً لدوداً له فانه قال : خذوا على يديه
 قبل ان تجتمع عليه العرب . فقال ابو طالب : لنمنعه ما بقينا ثم
 انصرف الجمع وكان فعله هذا عليه الصلاة والسلام نفاذاً لما
 أمر به من ربه فى الآية السابقة وحرصاً على اسلام أهل
 بيته ثم قام عليه الصلاة والسلام مجاهراً غير مكترث بما يلاقيه
 من الأذى والمعاداة مرتباً دعوته على ما أمر به فى قوله تعالى

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم
 بالتي هي احسن » فكانت دعوته لا تخرج عن البلاغ الحسن .
 ولا يمكن ان يتصور فيه غير ذلك لانه عليه الصلاة
 والسلام جبل على الكمالات وأدب بأحسن الآداب
 ولا عجب فمؤدبه مولاه وحق له ان يفتخر بقوله: أدبني ربي
 فأحسن تأديبي .

أذى قريش النبي واصحابه والهجرة للحجبة — ومع هذا
 فقد استهزأ به كثيرون اذا مر بهم ومعه أصحابه يقولون: هذا
 محمد وملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر !
 ويصفرون خلفه مصفقين ومنهم من يقول: أما وجد الله من
 يبعثه غيرك ان ههنا من هو أسن منك وايسر ؟ ! ومنهم من
 يقول له: أما كملت اليوم من السماء ؟ ! ومن يقول: هذا ساحر . ومن
 يقول: هذا كاهن . ومن يقول: هذا مجنون . ومن يقول: كذاب
 ومن أخذه الخنق والغيط الى ايذائه بالقاء القاذورات والنجاسات
 على بابه ولم يفهم أذى أصحابه السابقين الى الاسلام : فانهم
 أذوهم واهانوهم بكل اصناف الالهانة ولقد عذبوا المستضعفين

منهم بعد ان حاولوا مثل ذلك مع من اسلم من العشائر العظيمة
ومن له قوة تمنعه منهم فتركوهم ومالوا على المستضعفين من
كل القبائل فكانوا يعذبونهم بالحبس والضرب والجوع
والعطش ورمضاء مكة المحرقة والناركي يفتنوه عن دين الله
الحق ففهم من يفتن اشدة البلاء وقلبه يطمئن بالايان ومنهم
من ينجو بعد العذاب الشديد ومنهم من يموت شهيداً! وكلوا
مراراً عمه أباطالب — الذي أخذ على نفسه حمايته — وطلبوا منه
ان يخلي بينهم وبينه او يكفه عما يقول فحاول أبو طالب ان يرجع
النبي عن خطته فظن الرسول ان عمه خاذله فقال: والله يا عم
لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك
هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه. فقال له
أبو طالب: اذهب يا ابن أخي وقل ما احببت والله لا أسلمك.
ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة
كما أودى اصحابه بما لا يمكن تصويره من انواع الأذى
والتعذيب حتى اشفق النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وأمرهم
بالهجرة الى الحبشة بقوله لهم: لو خرجتم الى ارض الحبشة فان

فيها ما - كما لا يظلم عنده احد حتى يجعل الله لكم فرجا مما
 اتم فيه فخرجوا الى الحبشة مخافة وفرارا الى الله بدينهم وكان
 فيمن خرج عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة النبي صلى الله
 عليه وسلم في السنة الثانية من اظهار الدعوة ثم عادوا بعد
 شهرين لما لم تحل لهم العيشة في الغربة ولما بلغهم من اسلام
 أهل مكة كذبا ولكنهم لما حضروا لم يستطيعوا دخول مكة
 الا في جوار او اختفاء واقاموا بها على الأذى حتى هاجروا
 ثانية الى الحبشة وكانوا أكثر منهم قبل

استمرار الأذى بالرسول وأصحابه — ولقد استعمل

المشركون جميع طرق التهديد والوعيد والتحاييل والاقناع فلم
 ينجدهم نفعا بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم وزاد النبي
 ثباتا وإخاما لهم . ولكم ارسلوا له عليه الصلاة والسلام وفودا
 يقصد إرجاعه فباؤا بما يسيء المشركين ويزيدهم حنقا فيرمون
 وفودهم بأنهم خدعوا او سحرهم محمد . ثم عرضوا عليه بعد
 ذلك ان يشاركهم في عباداتهم ويشاركونه في عبادته فأنزل
 الله تعالى في ذلك « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

ولا أتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أتم عابدون
 ما أعبدكم دينكم ولى دين» فأيسوا منه وطالبوا بعد ذلك أن ينزع
 من القرآن ما يغيظهم من ذم الاوثان والوعيد الشديد فيأتى
 بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جواباً لهم «قل ما يكون لى
 أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى الىّ». ولما
 رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم
 وضائق بهم الحيل ورأوا عزة النبي صلى الله عليه وسلم بمن
 معه وعزة أصحابه بالحبشة واسلام عمر بن الخطاب واسلام
 غمزة رضى الله عنهم أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم
 وبنى المطلب ان لا يناكحهم ولا يبايعوهم ويقطعوا عنهم
 الاسواق ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة حتى
 يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك
 صحيفة علقوها فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبعة من
 مبعثه فأنحاز بنو هاشم الى أبى طالب وخرج من بنى هاشم
 أبو لهب فإنه انحاز لقريش وكانت امرأته على رأيه فى عداوة
 النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تتم عليه وتفسد القلوب من

جانبه فسامها الله تعالى : حالة الخطب . وانخذل عنهم بنو عميه
عبد شمس ونوفل بن عبد مناف وكان بنو هاشم محصورين
في الشعب لا يخرجون إلا من موسم الى موسم حتى جهدوا
وكان لا يصل اليهم أحد إلا سرّاً وكان اعداؤهم يمنعون التجار
من مبايعتهم . وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع
المسلمين أن يهاجروا للحبيشة حتى يساعدوا بعضهم على الانتداب
فهاجر معظمهم ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرًا
بن العاص وعمار بن الوليد بهدايا الى النجاشي ليسلمهم المسلمين
فرجعوا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي الا إلهانة لما خاطباه
به من خفر ذمته في قوم لا ذوا به . أما بنو هاشم فكثروا في
الشعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجرد والبلاء لا
يصلهم شيء من الطعام الا خفية حتى قام خمسة من أشرف
قريش يطالبون بنقض الصحيفة الظالمة واتفقوا على ذلك ليلاً
فلما أصبحوا غدا أحدهم فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال :
« يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطاب
هلكي لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه

الصحيفة. «ثم أن النبي أخبر عمه أبا طالب أن الله ساطط الأربعة على الصحيفة فلم تدع فيها غير اسم الله تعالى الذي كانت قريش تستفتح بها كتابها - وهو انظر اللهم باسمك - فانطلق أبو طالب في عصابة حتى اتوا المسجد فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا النبي فقال أبو طالب: إنما أتيت في امر هو نصف فيما بيننا وبينكم: ان ابن أخي أخبرني بأمر فان كان الحديث كما يقول فلا والله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا. وان كان الذي يقول باطلاً دفننا لكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم. واخبرهم الخبر فارتضوا به وفتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال فقالوا هذا سحر من ابن اخيك وزادهم ذلك بغياً ثم مشى في نقض الصحيفة قوم من قريش واخرجوا بني هاشم وبني المطلب من الشعب وذلك في السنة العاشرة من مبعثه صلى الله عليه وسلم

وبعد ما خرج بنو هاشم من الحصار بالشعب بقليل توفيت خديجة فزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً واتقد زاد حزنه ان توفي بعدها بقليل أبو طالب عمه

حتى سمي هذا العام بسنة الحزن وكانوا يؤرخون به ولما
 حضرت أبا طالب الوفاة جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم وقال
 يا معشر قريش « أتم صنوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم
 السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع البال واعلموا أنكم
 لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ولا شرفاً إلا
 أدر كتموه فاكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم اليكم الوسيلة
 والناس لكم حرب وعلى حربكم ألد واني اوصيكم بتعظيم هذه
 البيئة فان فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش ونبأة للوطاة صلوا
 ارحامكم ولا تقطعوه فان في صلة الرحم منسأة للاجل وزيادة
 للعلم واتركوا البنى والعقوق فبهما هلكت القرون قبلكم
 وأجيبوا السائل واعطوا الداعي فان فيهما شرف الحياة والمات
 وعليكم بالصدق في الحديث وادوا الامانة فان فيهما محبة للخاص
 ومكرمة في العام . واني اوصيكم بمحمد خيراً فإنه الامين في
 قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما اوصيتكم
 به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنان
 وایم الله كأنی انظر الى صعالیک العرب واهل الوبر في

الاطراف والمستضعفين من الناس قد اجابوا دعوته وصدقوا
كلته وعظمو امره فحاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء
قريش وصناديدها اذناناً ودورها خراباً وضعناؤها ارباباً
واعظمهم عليه احوجهم اليه وانفرهم منه احظام عنده قد
محضته العرب ودادها واصنت له فؤادها واعظمت له قيادها.
دونكم يا معشر قريش وكونوا له ولاية ولحزبه حماة والله لا
يسلك احدكم سبيله الارشد ولا يأخذ احد بهديه إلا سعد
ولو كان لنفسى مدة أو لاجلى تأخير اكففت عنه الهزاهز
ولدفعت عنه الدواهي « ثم توفى وبوفاته نالت قريش من النبي
صلى الله عليه وسلم ما لم تكن نالته في حياته فهاجر الى الطائف
في شوال سنة عشر من البعثة وهو مكروب مشوش الخاطر
مما لقي من قريش ومن قرابته وعترته خصوصاً من ابى لهب
وزوجته من الهجوم والسب والتكذيب فخرج الى الطائف
مع مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الاسلام
أو ان يناصروه ويقوموا معه على من خانوه من قومه
لانهم كانوا اخواله فلم يجد منهم ذلك . ومع استدامة اهل

مكة على أذاه كان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ويدعو الناس الى دين الله وقبل الهجرة بسنة أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى^(١) ولما أصبح قص على قریش ذلك ووصف لهم البيت المقدس وأعطاهم علامات وأمارات تحققوا من صدقها وإكتمهم طمس على بصائرهم فلم يجدوا طريقة الا أن يرموه بالسحر وكذبوه

(١) اختلف في الاسراء هل كان بالجسد والروح أو بالروح فقط. على أن لا شئ يمنع من قبول أن الاسراء كان بالجسد والروح نعم ان الطبيعيين ينكرون صعود الاجسام الثقيلة الى الجو واختراعاتها الافلاك لوقوفهم عند المحسوسات ونحن لا ننكر على الله تعالى الذي رفع مثل سيدنا عيسى عليه السلام أن يسرى بمحمد خصوصاً إمد علمنا أن الكواكب أجرام متحيزة في مراکزها غير مرتكزة على شئ ولا معلقة بشئ فالذى رفعها وسيرها مع فرط نخامتها لا يعجزه رفع جسم صغير جداً بالنسبة اليها كيف ونحن نرى الاجرام الثقيلة ترتفع الى الجو بالبخار المخلوق لله تعالى فاذا وقع الشئ بأثر من آثار الله تعالى كيف يتمتع وقوعه بأمره ومشيتته. لا يقف في ذلك الا من أضله الله تعالى وسلبه نور الهداية فبقى متخبطاً في ظلمات الغواية ومن يضل الله فما له من هاد

وازداد بعض خصومه تردا عليه وطغيانا ولكن الاسلام
كان قد فشا في قريش وفي التباثل . وبينما كان الرسول عليه
السلام في بعض المواسم عند عقبة الجمرة سنة احدى عشرة
من النبوة اذ لقي رهطا من الخزرج وكانوا ستة وقيل ثمانية
أراد الله بهم خيرا فجلسوا معه فدعاهم الى الاسلام ورأوا
امارات الصدق عليه لائحة فأجابوه وصدقوه واسلموا وقالوا
انا تركنا قومنا - الاوس والخزرج - بينهم من العداوة والشر ما
بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه
المقابلة في الموسم المقبل فرضى بذلك - وهذا ابتداء اسلام
الانصار - وفي السنة التالية جاءه اثنان عشر رجلا منهم عشر من
الخزرج واثنان من الأوس فاجتمعوا عند العقبة فبايعهم
وعاهدوه على ان يمنعوه بما يمنعون به نساءهم ولما انصرفوا
راجعين أرسل معهم ابن أم مكتوم - وهو ابن خال خديجة -
ومصعب بن عمير الى المدينة ليتلوا على أهلها القرآن ويفقهانهم
في الدين فكان يسلم بسماع القرآن أناس كثيرون حتى أسامت
كل بيوت الانصار إلا بيت أمية بن زيد . وفي السنة الثالثة

عشر من البعثة قدم اليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا من الانصار وامراتان في أيام التشريق بالعقبة وبايعوه بيعة العقبة الثانية وجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه العباس بن عبد المطلب فقال العباس لهم : « يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا فمن هو على مثل ما رأينا فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وانه قد أبى إلا انحيازا اليكم واللاحق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتوه اليه وما نفوه ممن خالنه فأتتم وما تحلمتم من ذلك. وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن دعوه في بني عشيرته فانه منهم لم يمكن عظيم. » فقالوا : قد سمعنا ما قلت والله لو كان لنا في انفسنا غير ما نطقنا به لقلناه ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله. وعند ذلك قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام : خذ نفسك ولربك ما أحبيت. فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال : أبايكم على ان تمنعوني مما تمنعون به انفسكم ونساءكم وابناءكم متى قدمت عليكم . فأخذ

البراء بن معرور - كبيرهم والمتكلم عنهم - يده وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع به أزرنا. فبايعوا رسول الله صلى الله عليه. وقال بعضهم: يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال عهداً وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا؟! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منهمكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »

الهجرة للمدينة والانصار والمهاجرون - ولما تم أمر البيعة بين النبي وبين أهل المدينة على الصورة المتقدمة وبقي أصحابه في ضنك من ايداء المشركين شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استأذنوه في الهجرة فمكث أياماً وخرج الى أصحابه يوماً مسروراً وأخبرهم ان الله اختار له يثرب دار هجرة وأمر من يريد من أصحابه الخروج بأن يخرج اليها فصار القوم يتجهزون ويرحلون من مكة سراً إلا عمر بن الخطاب فانه أعلن بالهجرة ولم يمنعه أحد من المشركين. ولما قدموا المدينة أنزلهم الانصار في دورهم وواسوهم ولم يبق بمكة

إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلى رضى الله
عنهما . ثم لما رأت قريش ان رسول الله صارت له شيع
واصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج شيعة أصحابه من
المهاجرين اليهم تحذروا خروجه واجتمعوا فى دار الندوة
واجتمعوا على قتله واختاروا لذلك نفرا من كل القبائل كي يتفرق
دمه فى القبائل كلها فيأمنون قتال قومه . فاجتمع القوم على
بابه يرصدونه حتى ينام فيشربوا عليه مرة واحدة ويقتلوه
ولكن الله أوحى اليه بالهجرة وبأن لا يبيت تلك الليلة فى
فراشه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بذلك وأمره
ان ينام محله وغطاه ببرده كي لا يقع الشك فى وجوده اثناء الليل
فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده
فامتثل على - وكان أوّل من شرب نفسه ونزل فيه قوله تعالى
« ومن الناس من يشرب نفسه ابتغاء مرضاة الله » - وخرج رسول
الله وقد أخذ الله على ابصار القوم فلم يره احد وثر على رؤسهم
ترابا فى يده وهو يتلو « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن
خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ثم انصرف حتى

وصل الى دار أبي بكر وأخبره الخبر فرافقه الى غار ثور
واختفيا فيه. أما الذين يرصدون الباب لما استيقظوا من نومتهم
هجموا على النائم ولكنهم زادوا تعجباً واستغرباً حينما
وجدوا امامهم علياً بدل النبي فسألوه عن محمد صلى الله عليه
وسلم فقال: لا أدري ولست عليه حارساً! فشق على المشركين
خلاصه من أيديهم وجدّوا في طلبه من الأودية والجبال
وبعثوا في أثره من يقتله أو يأتيهم به. وهنا يستغرب الانسان
من صدق اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم واخلاصهم له فما
بإيه أحد وخذله أو هم بخيانة ضده بل جميعهم تحملوا الأذى
والمكره الشديد من أجله وكانوا كلما ازداد القوم تعذيباً
لهم ازدادوا هم تعلقاً به صلى الله عليه وسلم! فرضوان الله على
هؤلاء الاصحاب الذين لم يسبق لفائهم في التاريخ مثل! وأين
من وفائهم وفاء الخواريين مثلاً وهم اصحاب عيسى عليه السلام
ومنه من انكره ومن دل عليه اعداءه ومن خذله! فلم نسمع
ان أحد اصحاب عيسى استمر معه كما استمر مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم اصحابه بل ولا ان من بينهم من قدم نفسه فداءً

له كما عمل على رضى الله عنه . وبالجملة فان كل شئ للنبي صلى
 الله عليه وسلم حتى أصحابه ووفائهم له وصدقهم في محبته وعهده
 كان خوارق عادات ومعجزات بينات يحار فيها عقل كل
 لبيب ولا ينكرها إلا كل مكابر . واننا لو تدبرنا ذلك لعلمنا ان
 أولئك الاصحاب الكرام كانوا على يقين تام من صدقه ومن أن
 ما أتى به حق لا مرية فيه ومن أن وعده إياهم بالنجاة مقطوع
 بصحته وإلا فلا معنى لهذا الاستسلام الاعمى والطاعة لهذا
 الخد مع ما يعلمه الكل في حالة العرب !!! ولنرجع
 لما كنا عليه من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام فلقد
 أسلفنا أنه أخذ ابا بكر واختفيا بغار بجبل ثور وان
 المشركين لما علموا بفساد مكرهم وانهم انما باتوا يحرسون
 علياً بن ابي طالب لا محمداً بن عبد الله هاجت عواطفهم وأرسلوا
 في طلبه من كل جهة وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد او يدل
 عليه وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذي فيه طلبتهم
 بحيث لو نظر احدهم تحت قدميه لنظر من فيه فبكى أبو بكر
 فقال له عليه السلام: لا تحزن ان الله معنا . فأعشى الله أبصار

المشركين عنهما واراد الله ان ينسج العنكبوت على باب
 الغار فزاد التوم حيرة واستبمدوا أن يكونا دخلاه والعنكبوت
 ناسج عليه وفاتوا الغار وظلوا في طريقهم مجدين البحث
 على غيرهم . فأقام النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر
 في الغار ثلاث ليال ولما انقطع الطلب خرجا وسارا متبعين
 طريق الساحل وفي الطريق لحقهم سراقة بن جعشم فدنا
 من الرسول واراد الايقاع به فساخت قوائم فرسه
 وانتهى الامر به ان انقلب من عدو عتيد الى طالب أمان
 من خصمه الذي كان يطارده وينوى قتله فنجاه الله من كيد
 وكيد المشركين . ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم الى ان وصل
 بلدة قباء وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول
 وهذا أول تاريخ جديد لظهور الاسلام بعد ان مضى عليه
 ثلاث عشرة سنة وهو مضيق عليه من مشركي قریش (١)

(١) أجمع الكل على أن الهجرة كانت يوم اثنين واختلفوا
 في أي الاثنين كانت فزعم بعضهم أنها في اليوم الثاني من ربيع الأول
 وزعم آخرون أنها في اليوم الثامن منه كما قال غيرهم أنها في اليوم

وأقام رسول الله عليه الصلاة والسلام بقاء بضعة عشرة
ليلة أسس فيها مسجد قباء وصلى فيه بمن معه من الانصار
والمهاجرين الذين وفدوا عليه بمجرد سماعهم بخبر قدومه وهم
آمنون مطمئنون ثم تحول عليه السلام الى المدينة والانصار
محيطون به متقلدين سيوفهم فكان على أهل المدينة يوما
سعيدا لم يره أحد فرحين بشئ فرحهم برسول الله وخرج
النساء والولا تد يضربن بالدفوف ويقلن

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع
وكان الناس يسرون وراء رسول الله ما بين ماش
وراكب يتنازعون زمام ناقته كل يريد أن يكون نزيله فيقول
دعوها فانها مأمورة وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة في بني

الثاني عشر منه والمتفق عليه الثامن ولا يجوز أن يكون الثاني ولا
الثاني عشر لانهما ليسا بيوم اثنين من أجل أن أول ربيع الاول في
تلك السنة كان يوم الاثنين وذلك تقلا عن رسالة للمرحوم محمود باشا الفلكي

سالم بن عوف فنزل وصلّاها وهذه أوّل جمعة له صلى الله عليه وسلم. ولم تزل الناقة سائرة حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار — وهم أخواله الذين تزوّج منهم هاشم جدّه — فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي ايوب الانصارى وذلك محل مسجده الشريف. فقال عليه السلام: «ههنا المنزل ان شاء الله: رب أنزلى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين» فاحتمل أبو ايوب رحله ووضعه في منزله وتنافس الانصار في إكرامه عليه الصلاة والسلام وصار كل يود لو أن يكون عليه السلام في داره أو ان يضيف مهاجراً! وبلغ التنافس عندهم في ذلك حد أن حكموا القرعة بينهم فما نزل مهاجري على انصارى إلا بقرعة! ومن يتأمل الى هذه المحبة التي يستجيل ان تكون إلا بفضل من الله ورحمته يعلم كيف انتصر هؤلاء الاقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدة!! وكان الانصار يؤثرون اخوانهم المهاجرين على أنفسهم وهذا اعلى درجات الاخوة فان رسول الله عليه السلام — ليكن بينهم الاخاء — آخى بين المهاجرين والانصار فكان كل انصارى ونزليه

أخوين في الله. ومن العبث ان نكلف القلم بأن يوضح ان هذه
 الاخوة كانت ارقى بكثير من الاخوة العصبية بل نكل ذلك
 للاجساس الاسلامي فانه افصح منطقاً من القلم! وبالجملة فتلك
 قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً من اجسام
 متفرقة وعسى ان يوفق الله مسلمي عصرنا هذا إلى هذا الاخاء
 أو إلى بعضه حتى يسودوا كما ساد المتحدون من قبل! وكان هناك
 الاخاء على المواساة والحق وان يتوارثوا بعد الموت دون ذوى
 الارحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين: « تأخواني الله
 اخوين اخوين » ودام هذا الميراث الى ان نسخه الله بقوله:
 « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله »

ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيداً بن حارثة
 وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله فقدموا بفاطمة وأم
 كلثوم - بنتيه عليه السلام - وسودة وزوجه وأم أيمن زوج زيد
 وابنها أسامة. أما زينب فنعها زوجها ابو العاص بن الربيع وخرج
 مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأم رومان زوج أبيه وعائشة
 أخته وأسماؤ زوج الزبير بن العوام وكانت حاملاً بأبنها عبد الله

وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة . ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيراً منهم الحمى فقال عليه السلام : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة واشد وبارك في مدها وصاعها وانقل وبائها إلى الجحفة » فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون في المدينة بسلام . ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته وهذا أصل القنوت . ثم شرع عليه السلام في بناء مسجده في مبرك ناقته أمام محلة بني النجار وكان محله مربداً للتمر لغلامين يتيمين فاشتراه منهما وكانا أرادا أن يهباه إياه فأبى عليه السلام إلا أخذه شراء وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين في العمل وبني بجانبه حجرتين إحداهما لسوده والاخرى لعائشة زوجته — ولم يكن عليه السلام متزوجاً غيرهما إذ ذاك بعد وفاة خديجة — وصارت الحجرات تبنى بجوار المسجد كلما جاءت زوجة . ثم سنَّ الله الأذان لتنبية الغافل وتذكير الساهي للصلاة حتى يكون الاجتماع عاماً وكان بلال

أول مؤذن في الاسلام.

هذا وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمسركى قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير فانهم اظهروا للعداوة والبغضاء حسداً من بعد ما تبين لهم انه الحق وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤسائهم ان تكون النبوة في ولد اسماعيل فكفروا بما انزل الله بغيا مع أنهم يرون ان رسول الله محمد آلم يأت الا مصداق لما بين يديه من كتب الله التي انزلها على من سبقته من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !! وتدتين الهدى لآحاد رؤساء قينقاع - وهو عبد الله بن سلام - فتركه هواه واسلم بعد ان سمع القرآن . وبعد ان كان اليهود يعدونه من اعظم رؤسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم اسلامه !! ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم في اطفاء نوره وكان يساعدهم على مقاصدهم هذه جماعة من

عرب المدينة اعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم ولا يخفى ان ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لان أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً. والاساس الذي كان عليه عليه السلام ان يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ولكنه مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الانصار واكن لم يعهد انه ولى رجلاً ممن عهد عليه النفاق لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملاً فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لاضرار المسلمين. وهذا مثال لامراء الاسلام يدلهم على انهم لو عهدوا بهم الاعمال الى أصحاب النفاق لعاد عليهم وعلى الاسلام بالضرر الذي لا تخفى عوائبه على أحد كما حصل مراراً مما يئن منه المسلمون حالاً في كل البلاد! وبالجملة فقد قبل الرسول من المنافقين ظواهرهم وعقد مع اليهود عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحداً وان دهمه بالمدينة عدو ينصرونه

وأقرهم على دينهم. ومن ذلك يعلم انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقاتل لحد ذلك الوقت أحداً على الدخول في الدين، وبعد الهجرة اذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم الا ان يقولوا ربنا الله» ثم أمرهم بذلك أيضاً في قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» ولما تمالأ على المسلمين قوم من غير أهل مكة أمر الله بقتال المشركين كافة ولما نقض اليهود العهد وساعدوا المشركين في حروبهم مع المسلمين أمر الله بقتالهم بقوله « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ». فبناء

على ذلك قد ابتدأ القتال على المبادئ الآتية :

١ — اعتبار مشركي قريش محاربين لانهم بدأوا بالعدوان

فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن

الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

٢ — متى رأى من اليهود خيانه وتميز للمشركين قوتلوا

حتى يؤمن جانبهم

٣ — متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت

قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام

٤ — من بدأ بعداوة من أهل الكتاب قوتل حتى يدعن

بالاسلام أو يعطى الجزية

٥ — كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحسابه والاسلام

يقطع ما قبله

غزواته عليه السهرم — وعملاً بهذه المبادئ رأى النبي

صلى الله عليه وسلم ان يبدأ بمصادرة تجارة قريش وهي مترددة

بين مكة والشام وغيرها ليكون في ذلك إضعاف لقوتهم المالية

فيكون ادعى للخذلان في ميدان القتال فأرسل عمه حمزة في

ثلاثين رجلاً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حملة أبو
 مرثد حليف حمزة ليعترض عيرا القريش آية من الشام فيها
 أبو جهل وثلثمائة من كبار المشركين ولما التقى بهم كاد أن
 يكون قتال بين الطرفين لولا أن حجز بينهما مجدي بن عمرو
 الذي شكره النبي عليه الصلاة والسلام على عمله لما كان من
 قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم. ثم أرسل أيضاً بعد ذلك
 عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين فارساً من المهاجرين
 ليعترض عيرا القريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ
 فكان بينهم الرمي بالنبال ثم خاف المشركون أن يكون
 للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين
 إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا
 أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين

وممن توفي من المهاجرين في بحر هذه السنة—وهي الاولى
 من الهجرة—عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه
 وسلم من الرضاع اسلم قديماً وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر
 عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ويوضع على قبره حجراً

قال : أتعلم به قبر أخي وأدفن اليه من مات من أهلي . وهذا
كان القصد من وضع الاحجار على المقابر . ولثنتي عشرة
ليلة خلت من صفر السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم من المدينة بعد ان استخلف عليها سعد ابن عباد
ليعترض عيرا القريش في طريق مكة ولكنه رجع بدون أن يلقى
حرباً لأن العير كانت قد سبقته وفي هذه الغزوة صالح بن حمزة
على انهم آمنون على انفسهم ولهم النصر على من رامهم وان عليهم
فصرة المسلمين اذا دعوا ثم رجع الى المدينة بعد مضي خمس
عشرة ليلة . ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه ان عيرا
لقريش آية من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش
والفان وخمسمائة بعير فصار اليها في مائتين من المهاجرين
وذلك في ربيع الاول وكان يحمل لواءه سعد بن أبي
وقاص فلما بلغ بواط وهو جبل بينبع وجد العير قد فاتته فرجع
كذلك ولم يلق كيداً وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من
الحذر على انفسهم والاجتهاد في اخفاء اخبارهم عن اهل المدينة
وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها

— فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها
 مثقال فصاعدا إلا بعثت به في تلك العير — وكان رأسها أبو
 سفيان بن حرب فخرج لها الرسول في جمادى الأول ومعه
 مائة وخمسون من المهاجرين واستخلف على المدينة أبا سلمة
 بن عبد الأسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائراً حتى بلغ
 العشيرة وهي موضع بطريق ينبع فوجد العير قد مضت
 وحالف في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم ثم رجع عليه السلام
 إلى المدينة ينتظر هذه العير حيثما ترجع وبعد رجوعه بقليل
 جاء كرز بن جابر النهري وأغار على سرح المدينة وهرب
 فخرج الرسول في طلبه واستخلف على المدينة زيداً بن حارثة
 الأنصاري وحمل لواءه علي بن أبي طالب فسار حتى بلغ
 سفوان — وهو واد من ناحية بدر — وفات كرز فلم يلق
 حرباً . وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها
 ثمانى رجال عليها عبد الله بن جحش وأمره بالكشف خبر
 عير لقريش ستمر من نخلة فسار عبد الله إلى أن وصل
 نخلة وهناك مرّت بهم عير قرشية تريد مكة فحمل المسلمون

عليهم في أول يوم من رجب فقتلوا عمراً بن الحضرمي وأسروا
عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان واستاقوا
الغيروهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا
ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم فلما قدموا المدينة وشاع
أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم وعاتبهم قريش واليهود بذلك
عنهم المسلمون وقال لهم عليه السلام ما أمرتكم بقتال في
الأشهر الحرم فأنزل الله : « ويسألونك عن الشهر
الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر
به والمسجد الحرام وأخرج أهله منه أكبر عند الله والفتنة
أكبر من القتل » وقد طلب المشركون فداء أسيرهم فقال
عليه السلام حتى يرجع سعد وسبّة فلما رجعا قبل عليه السلام
الفدية في الأسيرين فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن
إسلامه وبقي مع المسلمين وأما عثمان فلحق مكة كافراً
وفي هذه السنة أمر عليه السلام بتحويل القبلة إلى
الكعبة بعد أن مكث مدة يستقبل بيت المقدس وقد أكثر
اليهود من التنديد على الإسلام لهذا التحويل وما دروا أن

لله المشرق والمغرب يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم. وفي
 شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم رمضان على المسلمين
 وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل
 شهر. ولا تفوت الليب حكمة الصوم فانها تلين النفس وتهذب
 الاخلاق فتسهل على الانسان بذل الصدقات ولذلك أوجب
 الله عقب الصيام زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس
 ونية خالصة. وفي هذا العام فرضت زكاة الاموال وهذه هي
 النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم
 الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء. والليب العاقل البعيد عن التعصب
 يحكم لاول نظرة ان هذا النظام مع عدم إضراره بالاغنياء
 مقلل لمصائب الفقر التي ألحّت كثيرين من الفقراء بالبلاد
 الاجنبية ان يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادئ غاية في
 القبح لتقويض دعائم العمران وأركان المدنية كما يفعله
 الاشتراكيون والنهيليست وغيرهم من الفرق الكثيرة التي
 نسمع لها كل يوم اسماً جديداً

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة غزا غزوة بدر

فكانت الدائرة فيها على أبي جهل وقومه وهم تسعمائة وخمسون رجلا والنبي وأصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وفيها نزل قوله تعالى : اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة الآية . وقد قتل من المشركين كثيرون منهم عقبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الذين كانوا بككة من أشد المستهزئين بالمسلمين . وقد استشار عليه السلام أصحابه بشأن الاسرى فأشار عمر بقتلهم حتى يعلم أنه ليس في قلوب المسلمين مودة للمشركين ووافقهم على ذلك سعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى ان تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى ان الله يهديهم بك فيكونوا لله عضداً . فقال عليه السلام : إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : فمن اتبعني فانه مني ومن عصاني

فانك غفور رحيم . وان مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا
تذر على الارض من الكافرين ديّاراً . ورأى عليه السلام رأى
أبى بكر بعد ان مدح كلا من صاحبين لأن الوجهة واحدة
وهى اعزاز الدين وخذلان المشركين . ثم قال لأصحابه : أتم
اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم الا بفداء وقد بلغ قريشاً
ما عزم عليه الرسول فى أمر الاسرى فناحت على القتلى شهراً
ثم أشير عليهم من كبارهم ان لا يفعلوا كي لا يبلغ محمداً وأصحابه
جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا ان لا يبكوا قتلاهم حتى
ياخذوا بثأرهم وتراضوا فيما بينهم ان لا يعجلوا فى طاب الفداء
لئلا يتغالى المسلمون فيه فلم يلتفت بعضهم الى ذلك وبعثوا فى
فداء أسراهم — وكان من أربعة آلاف الى ألف درهم ومن لم
يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة
من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداؤه — وهذه الغزوة هى
التى أعز الله بها الاسلام وقوى أهله مع قلة المسلمين وكثرة
عدوهم فهى آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالاسلام ولذلك
قال الله متمنياً على عباده بهذا النصر : « ولقد نصركم الله ببدر

وأتم أذلة . « . فهي أعظم الغزوات إذ قد قتل فيها من صناديد
 قريش من كانوا الأعداء للإسلام ودخل الرعب في
 قلوب باقي العرب فكانت للمسلمين هبة بها يكسرون
 الجيوش ويهزمون الرجال فلا جرم أن شكرنا الله تعالى على
 هذه العناية وما أحرى المسلمين بأن يتخذوا هذا اليوم عيداً
 يشكرون فيه الله على ما أولاهم من نعمة النصر . ولقد أظهر
 يهود بني قنقاع التغيظ والحق من هذا النصر المبين وأبدوا
 مكنون ضمايرهم فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة
 سيدة من نساء الانصار ندعاه عليه السلام رؤساءهم وحذرهم
 عاقبة البنى ونكث العهد فقاتلوا : يا محمد لا يفرّئك ما لقيت
 من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولو لقينا لتعلمن أنا نحن
 الناس : وكانوا أشجع اليهود فأنزل الله « قل الذين كفروا
 ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في
 فتنين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم
 مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك
 لعبرة لأولى الأبصار » . وعند ما تظاهر اليهود بالعداوة

وتحصنوا بخصومهم سار اليهم عليه السلام وقتلهم حتى
انهزموا شر هزيمة وطلبوا منه الأمان على أن يخرجوا من
المدينة ولهم النساء والذرية والمسلمين الاموال . فقبل ذلك
عليه السلام . ثم كانت غزوة السويق وسببها ان أبا سفيان
ذكر قتلاه ببدر وآلى على نفسه انه لا يمس الطيب والنساء
حتى يأخذ بثأرهم فبعث رجالاً الى المدينة قتلوا بعض الانصار
وخرج هو في مائتي رجل فجند النبي صلى الله عليه وسلم في
طلبهم فلما أحسوا به هرب أبو سفيان وتبعه ثومته والقوا
جرب السويق فأخذه المسلمون ولذا سميت غزوة السويق .
وفي هذه السنة سن الله للعالم الاسلامي سنة عظيمة بها يتمكن
أبناء البلدة الواحدة من المسلمين أن يجددوا عهود الأخاء
ويقووا عروة الدين الوثقى وهي الاجتماع في يومى عيد الفطر
وعيد الاضحى وكان عليه السلام يجمع المسلمين في صعيد واحد
ويصلى بهم ركعتين تضرعاً الى الله أن لا يفصم عروتهم وأن
ينصرهم على عدوهم ثم يخطب فيهم حاضاً على الائتلاف ثم
يصافح المسلمون بعضهم بعضاً . ثم غزا غزوة أحد في شهر

شوال للسنة الثالثة من الهجرة وكان عدد المشركين ثلاثة
آلاف وخلفهم هند امرأة أبي سفيان في نسوة يضربن
الدفوف وينحن على قتلى بدر ويحرضن القوم على الاخذ
بالبثر وكان عدد المسلمين ألف رجل فقتل من المشركين
اثنا وعشرون ومن المسلمين سبعون فيهم حمزة وفي هذه
الغزوة شج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكنت شفقتاه وجرح
على وأبو بكر وكانت هند وضواحبها يمثن بالشهداء فجذ عن
الانوف والآذان وتخذن منها قلائد وبقرت هند بطن حمزة
ولاكت كبده ونزل في هذه الغزوة قوله تعالى: ليس لك من
الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون .. وقد
كان يقاتل مع قريش بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمه
ومعهم ابو عامر الراهب الاوسى وكان فارق المدينة كراهية
في الرسول عليه السلام ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج
معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة وقد لحق بالمسلمين
في هذه الغزوة خسائر جمة ومات منهم كثيرون وذلك لما
خالف الرماة وصايا النبي صلى الله عليه وسلم إذ أوقفهم خلف

الجيش على ظهر الجبل وقال : لا تبرحوا : إن رأيتونا ظهرنا
عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتوهم ظهروا علينا فلا تبرحوا . ولما
دارت رحى الحرب بين الفريقين كانت الدائرة على المشركين
فانطلق الرماة يتهبون اسلابهم ناسين ان ما قاله لهم الرسول
لا بد وان يكون لحكمة عرفوها فيما بعد . فلما رأى الاعداء
تفرق المسلمين انطلق أحد رؤسائهم ببعض الجيش وأتى
المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بديارهم فلما رأوا ذلك البلاء
دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من
غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً وأشاع أحد
المشركين أن محمداً قد قتل فدخل الفشل بالمسلمين وانهمزم
جماعة منهم وتوجهوا المدينة ولكنهم استحووا أن يدخلوها
فرجعوا وثبت رسول الله ومعه جماعة كانوا يتلقون عنه رمى
النبال - وقد أصابه عليه السلام في هذه الغزوة شدة عظيمة
تحملها بما أعطاه الله من الثبات - وكان أبو عامر الراهب قد
حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول في حفرة
فيها فأغشى عليه وخدشت ركبته فأخذه على يده ورفعته

طلحة بن عبيد الله - وهما ممن ثبت معه - حتى استوى قائماً فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله وشج وجهه عليه السلام كما أسلفنا وجرحت وجنتاه ثم سار الى الشـمـب فجاءت له فاطمة وغسلت دمه . ولقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون به كثير من الجراحات لان الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل لارسل فوجد بطلحة ست وسبعون جراحة وشلت يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة . وقد فرح المشركون بذلك ورجعوا الى مكة . وفي هذه الحادثة عبرة لمن يعتبر : فسبب هذا الابتلاء عصيان أمر الرسول والتنازع قال الله تعالى في ذلك : « واقصد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بأذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » ولما رجع الرسول المدينة نادى في أصحابه بالخروج خلف العدو وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس .

مخافة أن يشن المشركون الغارة على المدينة ويتموا إنتصارهم
 فكان ذلك وخرجوا واللواء معقود لم يحل نأعطاه علي بن
 أبي طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى
 وصلوا مكاناً يدعى حمراء وهو على ثمانية أميال من المدينة في
 طريق مكة . وقد كان ما ضنه الرسول حقاً فان المشركين
 تلاوموا على ترك المساعدين من غير شن الغارة على المدينة حتى
 يتم لهم النصر فأمروا على الرجوع ولكن لما بالغزم خروج
 الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمر
 وألقى الله الرعب في قلوبهم فقهروا من سيرهم الى مكة . وظفر
 عليه السلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر الذي كان
 يحرض المشركين على قتال النبي — وكان أسير في بدر وأطلقه
 الرسول بعد أن عاهدته على أن لا يساعد ولا يبين على قتاله —
 فأمر بقتله فقال : يا محمد أقنني وامنني على ودعني لبناقي وأعذك
 عهداً أن لا أعود امثل ما فعلت فقال عليه السلام : لا والله
 لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدمت محمداً مرتين : لا يلدغ
 المؤمن من حجر مرتين . وضرب عنقه . وفي هذه السنة

حرم الله الحمر والميسر فكان من وراء ذلك أن نجت الامم
الاسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع
اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين وغيرهم وكانت احدى
الأسباب في اضطراب المجتمع الانسانى وظهور مذهب
الفوضويين مما تجهله الامم الاسلامية ولكن ربما لا يمر زمن
إلا وتعرفه هي أيضاً لا بتعادها عن الدين وانهماك كثير من
أفرادها وشبانها على الذات والمسكرات بفضل المدنية والحرية
اللتين هادتتا بهما أوروبا المتمدنة وتمن علينا بهما !! وفى السنة
الرابعة غزا بنى النضير من اليهود الذين تجمعوا على قتاله صلى
الله عليه وسلم وشدد عليهم الحصار حتى طلبوا الخروج
فأخرجهم بأمتعتهم إلا السلاح فأم بعضهم خير وأم البعض
الشام . وفى السنة نفسها كانت غزوة ذات الرقاع مع جموع
غطفان وغزوة بدر الثانية مع أبى سفيان ولم يكن فيها حرب
ثم جاءت السنة الخامسة وفيها غزا غزوة الخندق المسماة بغزوة
الأحزاب لتحزب قبائل العرب كقريش وكنانة وغطفان
وقبائل نجد وبنى قريظة فدارت الدائرة على آلافهم المجتمعمة

وفيها نزل قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها .
وفيها أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم بأن عادة التمرس أن يطوقوا مدنها بخندق حين يحاصرها العدو إبقاء هجومه وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه وحفر خندقاً حول المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين . وفي هذه السنة غزا بني قريظة وحاصروهم خمسين وعشرين ليلة في شهر ذي القعدة وسبوا منهم سبعائة رجل يزيدون أو ينقصون . وفي السنة عينها أو في سنة ست غزا بني المصطلق وقتلهم على ماء لهم يسمى المريسيع وقتل وسبوا وغنم . وسببها أن الحارث بن ضرار - سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على المسلمين في أحد - كان أخذ يجمع الجموع لحرب النبي فسمع الرسول بذلك فخرج له وتقاتلوا بعد أن عرض النبي عليهم الاسلام فلم يقبلوا وحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد كانت الدائرة فيها على بني المصطلق وأسر المسلمون كثيراً منهم ومن نساءهم . ففرقهم النبي على المسلمين ومن ذلك

يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم فان بنى المصطلق من
أعز العرب داراً فأسر نساءهم بهذه الحال صعب جداً فأراد
عليه السلام أن يجعل المسلمين يمتنون على النساء بالحرية من
تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية فقال
المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا . فنوا
عليهم بالعق وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة
الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين
بعد ان كانوا عليهم . وقد حصل في هذه الغزوة نادرتان لولا
أن صاحبتهما حكدة رسول الله لعادتا بالتهريق على المسلمين (١)

(١) فأولاهما أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف
للخزرج فضرب الاجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه
الخزرج واستصرخ الاجير بالمهاجرين فعلت الشعاء وكادوا يقتلون
لولا أن خرج عليهم رسول الله فأخبروه الخبر ثم كلم المضروب حتى
أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة فلما بلغ عبد الله بن أبي
هذا الخصام غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت
كالיום مذلة أو قد فعلوها نأفرونا في ديارنا والله ما نحن والمهاجرون
الا كما قال الاول سمن كلبك يأكلك اما والله لن رجعنا الى المدينة

وهما من مضار المنافقين الذين يدخلون بين الامم مظهرين
الحبة لهم وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فتى راوا باباً

ليخرجن الاعز منها الاذل ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما
فعلتم بأنفسكم أحللتوهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم أما والله لو
أمسكتهم عنهم بأيديكم لتحولوا الى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم
حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتهم أطفالكم وقتلتم وكثروا فلا
تتفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده. وكان في مجلسه شاب حديث
السن قوى الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير
وجهه وقال : يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت ؟ فقال : والله
يا رسول الله لقد سمعته . قال : لعله أخطأ سمعك ؟ فاستأذن عمر
الرسول في قتل ابن أبي أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن
ذلك . وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ !
ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يتصد
بذلك عليه السلام اشغال الناس عن التكلم في هذا الموضوع فجاءه
أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت فقال :
أو ما بلغك ما قال صاحبكم : زعم انه ان رجع الى المدينة ليخرجن
الاعز منها الاذل . قال : أنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت هو
والله الذليل وأنت العزيز . ثم سار عليه السلام بالناس سيراً حثيثاً
حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الارض
حتى وقعوا نياماً وكلهم رجال من الانصار عبد الله بن أبي في أن

لها ولجوه فتعوذ بالله منهم . وفي هذا العام — على ما عليه
الاكثر — فرض الله على المسلمين حج البيت الحرام من

يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر وهنا نزل على
الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بن أبي واخوانه وصدقت
زيد بن أرقم ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي استأذن
رسول الله في قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون
عنده من ذلك أضغان وأحقاد فأمره عليه السلام بالاحسان الى أبيه
(النادرة الثانية) وهي أفضع من الاولى وأجلب منها للمصائب
وهي رمى عائشة الصديقة — زوج رسول الله — بالافك فاتهموها بصفوان
بن المعطل السلمي وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه السلام
ليلة بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت
الحيش فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد
لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدتها فحسبها ابتغاؤه
فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون فاحتملوا هودجها ظانين انها فيه
فلما جاءت منزل الحيش بعد ان وجدت عقدتها لم تجده أحد فغلبتها
عينها فنامت وكان صفوان بن المعطل يسير وراء الحيش يفقد
ضائعته فأصبح عند منزلها فعرفها لانه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع
فاستيقظت باسترجاعه وسرت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها
من غير أن يتكلم بكلمة ثم انطلق يقودها الراحلة حتى وصل
الحيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا في

استطاع اليه سبيلاً وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى . وفي السنة السادسة خرج

عائشة وصفوان والذي تولى كبر الافك عبد الله بن أبي ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الافك وهي لا تشعر بشيء . وكانت تعرف في رسول الله رقة اذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله كيف حالكم بما جعلها في ريب عظيم فلما نقهت خرجت هي وأم مسطح بن أثانة — أحد أهل الافك — للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح . فقالت عائشة : بئس ما قلت أنسين رجلاً شهيد بداراً فقالت : يا بنتاه أولم تسمي ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض في بيت أبيها فأذن لها فسألت أمها عما يقول الناس فقالت يا بنية : هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها . فقالت : سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وفي خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل . فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة : أهلك أهلك ولا نعلم عايمهم الا خيراً . وقال على بن أبي طالب : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وعل الجارية تصدقت . فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة

صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والانصار وكانوا
أنفا وربما نة وساق الهدى قاصداً مكة وبلغ ذلك قريشاً فبعثت

وقال لها : هل رأيت من شيء يريبك ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق
ما رأيت عليها أمراً قط أغمضه غير انها جارية حديثة السن تنام عن
عجبتها فتأتى الداجن فتأكله . فقام عليه السلام وصعد المنبر والمسلمون
يجمعون . وقال : من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ؟ والله
ما علمت على أهلي الا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الا
خيراً وما يدخل على أهلي الا مئى . فقال : سعد بن معاذ : أنا يا رسول
الله أعذرک منه فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من
اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . فقام سعد بن عبادۃ الخزرجي
وقال : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من
من رهطك ما أحبيت أنه يقتل . فقام أسيد بن حضير وقال لسعد بن
عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين
وكادت تكون فتنة بين الاوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل
من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا أما عائشة فبقيت حزينة كئيبة
لا يهنأ لها عيش ولا يهدأ لها بال . وبينما هي مع أبويها اذ دخل عليه
السلام فسلم ثم جلس فقال : أما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا
وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألمت بذنب فاستغفري
الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه فتقلص دمع
عائشة وقالت لا بويها : أجيبا رسول الله . فقالا : والله ما ندري ما

اليه عمرو بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فقال له : أن
قريشاً عاهدوا الله أن لا تدخل عليهم مكة عنوة ورجع لهم
فقال : جئت كسرى وقيصر في مالكما فوالله ما رأيت ملكاً

نقول . فقالت : انى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى
استقر في أنفسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى
ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لا تصدقونى فوالله لا
اجد لى ولكم مثلاً الا أبا يوسف قال : « فصر جميل والله المستعان
على ما تصفون » . ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاو
رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من
سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة وأوها « ان الذين
جاؤا بالافك عصبه منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكل امرئ
منهم ما اكتسبت من الآثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم »
فسرى من رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها
أمها : قومى فاشكرى رسول الله . فقالت : لا والله لا أشكر الا الله
الذى برأنى . وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالافك
ثمانين جلدة وهى حد القاذف وكانوا ثلاثة جنة بنت جحش ومسطح
بن أثانة وحسان بن ثابت . وكان ابو بكر ينفق على مسطح بن أثانة
لقربته منه فلما تكلم بالافك قطع منه النفقة فأزول الله « ولا يأتل
أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والينامى والمساكين

في قومه مثل محمد في أصحابه . وبعث صلى الله عليه وسلم
 عثمان بن عفان ليخبر أبا سفيان وأشرف مكة أن الرسول لم
 يأت محارباً وإنما أتى زائراً معظماً البيت فقالوا له : إن أحببت
 أن تطوف بالبيت فطف فقال لا إلا أن يطوف رسول
 الله . فحبسوه وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم قتلوه
 فدعا من معه الى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة
 قال الله تعالى : لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت
 الشجرة . ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار اهل الرأي
 منهم بالصلح فبعثوا الى النبي صلى الله عليه وسلم سهل ابن
 عمرو فأجابه الى ما طلبت قريش من وضع الحرب على
 شروط^(١) ونحر هديه وحلق رأسه وفعل مثله صحبه وعادوا

والمهاجرين في سبيل الله وليعفووا وليصفحوا الا تجون أن يغفر الله
 لكم والله غفور رحيم » فقال : أبو بكر بنى نحب ذلك يا رسول
 الله واعاد النفقة على مسطح

(١) وهذه هي الشروط وتسمى بصلح الحديبية نسبة الى
 المكان الذي عقدت فيه

١ — وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات

وفي شهر المحرم من السنة السابعة غزا خيبر وصالحه أهلها على
أن يساق بهم بنصف الثمار ويخرجهم متى شاء ففعل وفيها كل صلى

٢ — من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من

المسلمين لا يلزمون برده

٣ — أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ثم يأتي العام المقبل

فيدخلها بأصحابه بعد أن يخرج منها قريش فيقيم فيها ثلاثة

أيام ليس مع أصحابه من السلاح الا السيف في القرب والقوس

٤ — من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل

فيه ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه

ولما قبل النبي هذا الشرط داخل المسلمين منه أمر عظيم

وقالوا : سبحان الله كيف نرد اليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون

من جاءهم مرتدأ؟ فقال عليه السلام : ان من ذهب منا اليهم فأبعده

الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. أمه

الامر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً

على قلوبهم لان الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت

أمين وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضى الله عنه : وهل

ذكر أنه في هذا العام؟. وكتب شروط الصالح بين الطرفين وكان

الكاتب على بن أبي طالب فأملأه عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم

فقال سفير قريش : اكتب باسمك اللهم فأمر الرسول أن يكتب

ذلك ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال السفير : لو نعلم

الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التي اهدتها اليه زينب بنت
الحرث اليهودية أكلة لم تزل تعاوده الى وفاته وتفل في عين

انك رسول الله ما خالفناك ا كتب محمد بن عبد الله فأمر عليه السلام
عائياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع علي وتوقف فمحاها
النبي بيده وكتبت نسختان لكل من الطرفين نسخة وهذه هي أول
مهادنة دواية ظهرت في العالم وبعد كتابتها قال النبي صلى الله عليه
وسلم املئ: سيكون لك مثل هذه الواقعة. وقد حصل بالفعل له مثل
ذلك حين كتابة شروط التحكيم بينه وبين معاوية

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل في قيوده
وكان من المسلمين المتنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة
ليحموه فقال له الرسول: اصبر واحتسب فان الله جاعل لك وللمن
معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً انا قد عقدنا بين القوم صلحاً
وأعطيناهم وأعطينا على ذلك عهداً فلا تغدر بهم. وكذلك رد الى
قريش أبو بصير رضى الله عنه حين فر وأرسلت في طلبه اثني
ن ولكن أراد الله تعالى أن أهل قريش طلبوا أنفسهم ابطال هذه
الشروط وأعطوا للنبي الحق في امساك من جاءه بأن اجتمع المسلمون
الذين بمكة وفروا لجهة الشام واتحدوا مع جمع من الاعراب وقطعوا
الطريق على تجارة قريش كما قطعوا عنهم الامداد فاستغاثت قريش لمنع
ذلك برسول الله فقبل منهم ابطال هذا الشرط وأزاح الله عن المسلمين
هذه الغمة التي صعب عليهم تحملها في الحديبية حيناً أمرهم عليه

على وكانت رمداً فبرئ واعطاه الراية فقاتل اهل الحصن حتى فتح الله عليه بقلع بابه ثم انصرف صلى الله عليه وسلم الى وادى القرى فحاصره وفتحه عنوة وفي هذه السنة كانت عمرة القضاء التي خرج لاجلها صلى الله عليه وسلم في ألفين من أصحابه وأدوها وفي السنة الثامنة أسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة بن عبد الدار وفيها كانت غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين ونال المسلمون الفتح فيها على يد

الصلوة والسلام برد أبي جندل وعلموا أن رأى الرسول أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان في أمر تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين تخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر: ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الامور ما أراد . وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه وتعالى في أولها (انا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وفي الحقيقة انه ترتب على هذه المهادنة — التي لم تعجب المسلمين في مبدأ الامر — دخول كثيرين في الاسلام اذ لما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً التقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام أحداً الا دخل فيه

خالد بن الوليد بعد أن استشهد من قواد المسلمين ثلاثة هم
 زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . وفي
 هذه السنة خرج صلى الله عليه وسلم باثني عشر الفا من
 المهاجرين والانصار وطوائف غيرهما الى قرب مكة قاصدا
 فتحربا لتتقض قريش العهد والله مقربة من مكة ركب العباس
 عمه الى مكة ليخبر أشرفها فيأتوا الى النبي صلى الله عليه وسلم
 ويستأمنوه فوجد أبا سفيان فأتى به واسلم ثم امر النبي الجنود
 لتدخل مكة فدخلوها يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان واطمان
 الناس وطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت وصلى فيه وكسر
 الاصنام قائلا : قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان
 زهوقا . ثم ارسل السرايا لتدعو من هم حول مكة الى الاسلام
 وكانت منها سرية خالد بن الوليد التي نزل بها على ماء بني
 جذيمة ولكونهم أبوا الاسلام قاتلهم وقتل منهم ولما بلغ
 ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن امر بالقتال . قال :
 اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد ثم أرسل عليا بمال أدى به
 دية القتلى وبقي معه مال دفعه اليهم تطييبا لخواطرها وفي هذه

السنة كانت غزوة حنين وكان النبي في اثني عشر ألفاً من أصحابه فنالوا النصر المبين وأعجب المؤمنون فيها بكثيرتهم حتى قال أحدهم: لن تغلب اليوم عن قلة؛ فنزل قوله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم. وتجمع المشركون من ثقيف بالطائف بعد هزيمتهم في حنين فسار إليهم النبي وحاصره أياماً وقتلهم بالمنجنيق وظهر عليهم وغنم شيئاً كثيراً بلغ على ما يقولون أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ففرقها صلى الله عليه وسلم على مسلمي الفتح فطمعن أهل مكة فوجد الانصار في نفوسهم فدعاهم قتال صلى الله عليه وسلم: اوجدتم يا معشر الانصار على لعنة من الدنيا ألفت بها قوماً ليسلموا ووكاتكم الى اسلامكم أما ترضون ان يذهب الناس بالخير والشاه وترجعون برسول الله الى رحالكم؟ أما والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأاً من الانصار ولو سلك الناس شعباً لسلكت شعب الانصار اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار. واطلق النبي صلى الله عليه وسلم السبي وكانت عدته ثمانية آلاف وفي هذه

الغزوة اسلم مقدم هوازن مالك بن عوف واستعمله النبي صلى
 الله عليه وسلم على قومه ومن اسلم من تلك القبائل . ثم جاءت
 السنة التاسعة وفيها كاتب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك
 والتميصرة ودعاهم الى الاسلام فبعث الى النجاشي ملك الحبشة
 عمر ابن أمية بكتاب فقبله و إلى المقوقس — عامل الروم على
 مصر — حاطب بن ابي بلتعة بكتاب فأكرم المقوقس حاطباً
 ورده بلطف واهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة وحملاً
 وجاريتين احدهما مارية التبطية — والدة ابراهيم بن النبي صلى
 الله عليه وسلم — والى قيصر الروم دحية بكتاب فاحترمه
 واعتذر عن الاسلام تهيب شعبه ونفرتهم منه والى كسرى —
 ملك النرس — عبد الله بن حذافة بكتاب فزقه كسرى وكتب
 الى عامله باليمن ان يرسل النبي اليه وبلغ النبي ذلك فدعا عليه
 فساط الله على كسرى ابنه شيرويه فقتله . وكتب شيرويه الى
 عامل اليمن وكان اسمه باذان بأن لا يتعرض الى النبي صلى الله
 عليه وسلم في شيء فأسلم باذان وجمع من فارس . وبعث الى
 الحارث بن أبي شمر الغساني شجاع بن وهب الأسدي

بكتاب تقرأه وقال : أنا سائر اليه ندعا عليه النبي صلى الله
عليه وسلم فأباد الله ملكه . والى هودنة ملك اليمامة سايط بن
عمرو فقال : ان جعل الامر لى بعدد سرت اليه وأسلمت
ونعمرتة وإلا حاربته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم
اكفنيه . فمات بعد قليل والى المنذر ملك البحرين العلاء بن
الحضرمي فأسلم وأسلمت معه عرب البحرين . وفي آخر هذه
السنة غزا النبي صلى الله عليه وسلم الروم فى تبوك وكانت
جيوش الاسلام ثلاثين ألفاً وتمت هذه الغزوة بالصالح وصالح
المسلمون أهل أذرح ودومة الجندل . وبعد عودته صلى الله
عليه وسلم وفدت عليه الوفود الاسلام من بلاد العرب تماماً
ونزل قوله تعالى : اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس
يدخلون فى دين الله أفواجا... الآية . ثم بعث النبي صلى الله
عليه وسلم علياً بكتاب الى اليمن فأسلمت همدان كلها بعد
سماه فى يوم واحد ثم تابعت سكان الاطراف والشواطىء
لتدين بالاسلام حتى طبق الدين الانحاء وملا تلك الارحاء
كل ذلك فى تمام السنة العاشرة من الهجرة . ثم حج النبي صلى

الله عليه وسلم — بعد ان عمم بغزواته انتشار المسلمين في البلاد
 العربية — حجة المشهورة بحجة البلاغ لتبليغه المناسك للمسلمين
 فيها وهي حجة الاسلام المنزل فيها قوله تعالى: اليوم اكملت
 لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً.
 ويقال لها حجة الوداع لتوديع النبي صلى الله عليه وسلم فيها
 للمسلمين وكان صلى الله عليه وسلم في تسعين ألفاً أو مائة
 وأربعة عشر ألفاً من المؤمنين وبعد ان علم الناس مناسكهم
 وارشدهم الى سنن حجهم خطب فيهم خطبته الشهيرة على
 عرفات وهو على ناقته القصواء فقال فيها: ان الحمد لله نحمده
 ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن
 سيئات اعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا
 هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد
 ان محمداً عبده ورسوله. اوصيكم عباد الله بتقوى الله واحتمكم
 على طاعة الله واستفتح بالذي هو خير. أما بعد ايها الناس
 اسمعوا مني أئين لكم فاني لا ادرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي
 هذا في موقفي هذا. ايها الناس ان دماءكم واموالكم عليكم

حرام الى ان تأتوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في
 بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد . فمن كانت عنده امانة
 فليؤدها الى الذي ائتمه عليها . وان ربا الجاهلية موضوع وان
 اول ربا ابداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء
 الجاهلية موضوعة وان اول دم ابداً به دم عامر بن ربيعة
 بن الحارث بن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير
 السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر
 ففيه مائة بعير فمن زاد فهو من اهل الجاهلية . ايها الناس ان
 الشيطان قد يئس ان يعبد في ارضكم هذا ولكنه رضى ان
 يطاع فيما سوى ذلك مما تحمرون من اعمالكم . ايها الناس انما
 النسيء زياده في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً
 ويحرمونه عاماً ليواطؤا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار
 كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور
 عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات
 والارض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو
 القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان

ألا هل بلغت اللهم أشهد . أيها الناس ان لنسائكم عليكم حقاً
وان لكم عليهن حقاً : لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم ذيركم
ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين
بفاحشة فان فعلن فان الله اذن لكم أن تعضوهن وتمجروهن
في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فان انتهين وأطعنكم
فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وانما النساء عندكم عوار
لا يملكن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن
بكافة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً . أيها
الناس انما المؤمنون اخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن
طيب نفس ألا هل بلغت اللهم أشهد . فلا ترجعوا بعدي
 كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض فاني قد تركت فيكم
 ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهل بيتي ألا هل
بلغت اللهم أشهد . أيها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد
كلكم لا دم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم ليس
لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ألا هل بلغت . قالوا : نعم
قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس ان الله قسم

لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لو ارث وصية في أكثر من الثلث والولد للاراش وللماهر الحجر من دعى الى غير أبيه او تولى الى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هذه هي خطبة الوداع ولو اردنا شرح ما حوته من الحكم والتشريع لازم لذلك مجلدات وليس هنا موضعه وفاته عليه السلام - وبعد ان فرغ صلى الله عليه وسلم من حجه عاد الى المدينة فأقام بها الى أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة ثم اعتراه مرضه الذي توفي به. ولم تنفاته عليه الصلاة والسلام عنايته وشفقته على المسلمين حتى في مرضه. من ذلك أنه خرج في حال مرضه يوماً مسنداً بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب قاصداً المسجد فصعد المنبر فحمد الله. ثم قال: أيها الناس من كنت جلست له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني.

ونزل فصلی الظاهر ورجع الى المنبر فعاد الى مقالته فادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه بدلها . ولما اشتد عليه مرضه استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة أم المؤمنين فأذن له . وتأخر عن الصلاة بالناس ثلاثة أيام قال في أول يوم منها مروا أبا بكر فليصل بالناس . فماتت عائشة : انه رجل رقيق وانه متى يقم مقامك لا يطيق ذلك فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت : مثل ذلك فقال صلى الله عليه وسلم انكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فصلی أبو بكر بالناس ثلاثة أيام بعدها توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتي عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول ٨ يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية فغسل وكفن في ثلاثة أثواب وحنر له تحت فراشه صلى الله عليه وسلم ودفن في قبره ليلة الاربعاء وله ثلاثة وستون سنة قرية وثلاثة أيام وتوفي عليه الصلاة والسلام مستريح البال والضمير إذ أتم العمل الذي كان دائماً يفكر فيه وقام بالمهمة التي عهدا اليه ربه سبحانه وتعالى خير قيام فألف بين قلوب محتزنة وأهواء

متشقة وأمم متفرقة وقبائل متباعدة بحيث أصبحوا بعد
 النفرة بنعمة الله اخوانا وأوجد وحدة قومية وجامعة دينية
 بين اقوام لم يعهدوها بل ولم يتخيلوها من قبل وأسس حكومة
 يصح ان تقول فيها إنها دستورية شوروية ملكية جمهورية
 امبراطورية في آن واحد وما احراها ان تدعى بالحكومة
 الابوية كما لا يخفى على كل منصف وأسس ديناً هو خاتمة
 الأديان لأنه يأمر المتدين به ان يعمل لدنياه كأنه لا يموت
 أبداً ولا آخرته كأنه يموت غداً فهو دين جمع بين حاجيات
 الدنيا وحاجيات الآخرة وهذا هو السبب الذي ساعد
 بالاكثر على انتشاره بالسرعة والسهولة التي عجب لها كل
 انسان وادهشت كل مناظر . لان الأديان المنزلة من قبله
 كانت إما اليهودية وهي دين دنيوى محض يقضى بأن يعامل
 كل انسان الآخر بمثل ما يعامله به السن بالسن والعين بالعين
 وإما النصرانية وهي دين أخروى محض يوجب على صاحبه
 ان يتحمل كل شئ ويصبر على كل مكروه ويأمر من يضرب
 على خده اليسار ان يدير لضاربه خده اليمين وان يترك الدنيا

ويزهد فيها كل الزهد الخ .
 ولا يخفى ان عاقبة السير على مقتضى كل من الدينين لا
 تؤدى الى تأسيس حكومة نظامية ثابتة الاساس قوية الاركان
 ولقد عرف سيدنا عيسى عليه السلام كل ذلك فقال : لا تظنوا
 انى جئت لالقي بينكم سلاماً بل سيفاً . ولا يمكن فى الحقيقة
 ونفس الامر ان يكون إلا ما تنبأ به . فأوجد الله الاسلام
 جامعاً بين الدينين يأمر بالتصاوص والعزو ويكلف الناس
 بالعمل للدنيا والآخرة وجعل المسلمين أمة وسطاً فهو دين
 يطابق كل زمان وكل مكان يقبله العقل ويوافق كل ذوق سليم
 ولذلك قبله عقلاء العرب وتبعهم فى ذلك جم غفير من الاقوام
 الآخرين وما زال ولن يزال ينتشر بسرعة غريبة بدون
 مبشرين ولا مرسلين مما جعل الفرنج يتخوفون من نتيجة
 ذلك الانتشار ويبحثون عن السر فيه ويجهدون فى ايقاف
 تياره ولكنهم عبثاً يحاولون ذلك اذ انى لهم ان يقفوا فى سبيله
 وهو ما صادف قلباً إلا تمكن منه ولا يسع أحداً ان ينزعه
 منه بشهادة كثيرين من الباحثين فى هذا الموضوع وافاضل

علماء الفرنج قلا جرم اذا كان الاسلام خاتمة الاديان وحسبنا
دليلاً على أن مرجع العالم كله اليه والى مبادئه ما نراه من
افتقار العالم أو بعبارة أخرى افتقار الدول العريقة في التمدن
كما تسمى نفسها الى الرجوع الى بعض أحكامه من حين
آخر وإلا أليس في محاولة إدخال الطلاق والخدمة العسكرية
الجزيرية في القوانين الأوروبية الحديثة رجوع الى مبادئ
الدين الاسلامي الذي طالما رماه بعض المتعصبين الجاهلین
بالهمجية والتوحش؟ وأليس في تلك الحقوق والامتيازات التي
تطلبها نساء الفرنج ويسمى في تقريرها لهن بعض متشرعي
أوروبا رجوع كذلك لما منحه ذلك الدين منذ ثلاثة عشر
قرناً لزميلاتهن المسلمات؟ وأليس ما نراه الآن بين دول أوروبا
المسيحية التي يأمرها دينها بتحمل الضير والصبر على الذل
والمكره وعدم المقاتلة حتى مع أعدائهم من تلك الحروب
التي تنشبها استحقان لما ورد في الدين الاسلامي ورجوع
اليه مع أنهم يستقبحون ذلك من المسلمين لو جاء منهم
ويعمدونه توحشاً وهمجية؟ ولو تدبروا الامر لوجدوا الاسلام

لم يفرض الجهاد إلا لاعلاء كلمة الله والحق التي هي أساس كل مدنية ومصدر الانسانية وشتان بين هذا المقصد ومقصد حشد الجيوش وازهاق النفوس لاغتصاب البلاد واستعباد الانسان للأغراض الدنيوية المحضة كما هو شأن تلك الدول المتعدنة والكنهم لغايات في النفس ممن ينظرون للآذى الذى فى عين غيرهم ولا ينظرون للاخشبة التى فى أعينهم !!!

سيرته عليه السلام بعد بعثته لحين وفاته - كان صلى الله عليه وسلم بشهادة ربه جل وعلا على خلق عظيم ولا يدفع السيئة بالسيئة وكان شديد الرأى وافر الحلم لباسه السكينة وشعاره البر والتقوى ومعقوله الحكمة وطبيعته الصدق والوفاء وخلقه العفو والمعروف وسيرته العدل وشريعته الحق وامامه الهدى وملته الاسلام استكمل الاوصاف الجبلية والكسبية من كمال خلته وقوة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه وقوة حواسه وشرف نسبه وعزة قومه وكرم أرضه وقوة جأشه وتخلقه بالاخلاق العلية وكان راجع الرأى يعلم

ذلك من تديره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة
والخاصة وما أفاضه على العالم من العلوم وقرره من الشرع من
غير سبق تعلم. فأعجب به من أمي بلغ في العلم الغاية القصوى
كما يعلم من جوامع كله وحكم حديثه وقضايا أحكامه وأخباره
عما في التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء
وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسة الأنام
وذلك فضل الله كما قال: «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان
فضل الله عليك عظيماً» وكان قليل النوم قليل الغذاء لم يمتلي
بطنه شبعاً قط لا يسأل أهله طعاماً ولا يشتهي إن أطعموه
أكل وما سقوه شرب يجلس للأكل مستوفزاً مقعياً ويقول:
«انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»
لم يبق جوده في يده شيئاً من المال فقد فتح عليه في حياته
بلاد الحجاز واليمن وكل جزيرة العرب وما تاخما من أطراف
الشام والعراق وجلبت إليه أخماسها وجزيتها وصدقتها وسيقت
إليه الغنائم وهداه بعض الملوك بالتحف وما استأثر بشيء من
هذا ولا أمسك منه درهما ولا ديناراً بل صرفه في جهته

وأغنى به غيره وقوى به المسلمين . وقال : ما يسرنى أن لى
أحدًا ذهبًا بيت عندى منه دينار الا ديناراً أرصده لدينى .
وكان يلبس ما وجدته ويلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن
والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخصوصة
بالذهب ويرفع منها لمن لم يحضره . قد جبال على مكارم
الأخلاق بجود إلهى وفضل ربانى . وكان يؤلف بين الناس
ولا ينفرهم ولو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله وكان
يكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم
قد وسع الناس خلقه وبسطه فصار لهم أباً وصاروا عنده فى
الحق سواء يجيب دعوة الحر والعبد والامة والمساكين ويعود
المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ويبدأ من لقيه
بالسلام وأصحابه بالمصافحة ما رؤى قط ماداً رجله بين أصحابه
يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة
التي تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه
ويدعوهم بأحب أسمائهم تكريماً ولا يقطع على أحد حديثه
وكان يكره نقل أحاديث الناس اليه ونهى عن ذلك . فقال :

لا يبلغني احد منكم عن احد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن
أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . يصل ذوى رحمه من غير أن
يؤثرهم على من هم أحق منهم . يتواضع بين أصحابه تواضع
احدكم لرفيقه ويجلس حيثما انتهى به المجلس وفي بيته يكون
في مهنة اهله . وكان مجلسه مجلس حلم وعلم وحياء وخير وأمانة
إذا تكلم أطرق جاسأؤه كأن على رؤسهم الطير لا يجب
التوسع في المآكل والمشارب والفرش زهداً في الدنيا
وزخرفها ولذائذها . وكان خوفه من ربه على قدر علمه به تعالى
قد أبان طريقته المثلى في جوامع كلمه حيث قال : « المعرفة رأس
مالي والعقل اصل ديني والحب اساسي والشوق مركبي
وذكر الله انيسى والثقة اكزى والحزن رفيق والعلم سلاحى
والصبر رداً والرضا غنيمتى والعجز نخري والزهد حرفتى
واليقين قولى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى
وقرة عينى فى الصلاة وثمرة فؤادى فى ذكره وغمى لاجل
أمتى وشوقى إلى ربى عز وجل » يعظم النعمة وان دقت وما
انتصر لنفسه قط من مظلمة ظلمها ما لم تكن حرمة من

حرّمت الله تعالى ولقد صبر على معاداة قريش ومقاساة
 تحاميلها واذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم إلى
 أن اظفره الله عليهم وحكمه فيهم وهم لا يشكون في استئصاله
 شأفهم فما زاد على أن عفا وصفح يوم فتح مكة وقال: ما تقولون
 أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: أقول
 كما قال أخى يوسف لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم
 اذهبوا فأنتم الطلقاء. وكان يجالس المرضى وذوى العاهات
 ويؤاكلهم ويكلم كل قبيلة باغتها ويكتب إلى ملوك العرب
 ورؤساء القبائل والاقبال باغاتهم ويكرم الوفود على أى دين
 كانوا ويجادل بالحسنى وينظر مع ملاحظة الآداب. وهو
 يصمت عند تناول السفهاء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
 وبالجملة فقد كان على جانب عظيم من اللين يطعم الطفل أن
 يتعد في حجره ويعبت في رداءه وله هبة في القلوب كأنه
 ملك محاط بمجنود واعوان دخل عليه في بيته رجل فأخذته
 الهبة فارتعد فقال له: هوّن عليك فانما أنا ابن امرأة تأكل
 القديد. وهذا منتهى الحلم ومكارم الاخلاق وكان مع ذلك

شجاعاً بطلاً أظهر من البسالة وحسن التدبير في حروبه ما
شهد له به الأعداء قديماً وحديثاً وكل ذلك ولا شك بثوفيق
من الله سبحانه وتعالى

الفصل الثاني

القرآن وكونه معجزاً — الدين الاسلامي أو الاسلام — انتشار الاسلام
بسرعة عجيبة لم يسبق لها مثيل في التاريخ

القرآن وكونه معجزاً — القرآن هو الكلام العربي المنزل
على محمد صلى الله عليه وسلم المتحدى بأقصر سورة منه المنقول
تواتراً وهو من معجزاته عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما
كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على اهل زمانه
وتهالكوا عليه وتفاخروا به كالسحر في زمن موسى والطب
في زمن عيسى والموسيقى في زمن داود وكان زمن نبينا صلى
الله عليه وسلم زمن فصاحة وبلاغة كانت معجزته القرآن
المجيد الذي عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم عن معارضته مع
كونهم أحق بها إن أمكنت لكثرة اشتغالهم بما يناسب

ذلك وكما لهم فيه وفراط اهتمامهم بالمعارضة وتوفر دواعيهم وقد
تحدى عليه السلام بما فيه من الأعجاز ودعاهم الى معارضته
والايتان بسورة من مثله فنكوا عنه وعجزوا عن الايتان بشيء
منه . قال بعض العلماء : ان الذي أورده عليه السلام على
العرب من الكلام الذي عجزهم عن الايتان بمثله اعجب في
الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه
والإبرص لانه أتى اهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء
البيان والمتقدمين في اللسان بكلام مفهوم المعنى عندهم وكان
عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى
لانهم لم يكونوا يطعمون فيه ولا في إبراء الأكمه والإبرص
مما لا يتعاطون علمه وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح
والبلاغة والخطابة فدل على ان العجز عنه انما كان ليصير علماً
على رسالته وحجة لنبوته وقد ورد من الاخبار في قراءة النبي
صلى الله عليه وسلم لبعض ما نزل عليه على المشركين الذين
كانوا من اهل الفصاحة والبلاغة وإقرارهم بأعجازه وجل
كثيرة فمنها ما روى عن محمد بن كعب قال حدثت ان عتبة

بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس في نادى قريش ورسول
 الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده في المسجد : يا معشر
 قريش ألا أقوم الى هذا فأعرض اليه أمورا لعله ان يقبل
 منا بعضها ويكف عنا ؟ قالوا بلى يا أبا الوليد . فقام عتبة حتى
 جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فيما
 قاله عتبة وفيما عرض له عليه من المال وغير ذلك فلما فرغ قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم :
 قال فاسمع مني . قال افعل . فقال : بسم الله الرحمن الرحيم حم
 تنزيل من الرحمن الرحيم ... حتى بلغ قرآنا عربيا فمضى رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يقرأها فلما سمعها عتبة أنصت لها
 وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه حتى انتهى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة فسجد فيها ثم قال :
 سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت فأنت وذاك ! وقام عتبة الى
 أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد
 بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس اليهم قالوا ما وراءك يا
 أبا الوليد ؟ قال إني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط !

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش
أطيعوني خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكون
لقوله الذي سمعت نبأ. قال فاجابني بشيء والله ما هو بسحر
ولا بشعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل
من الرحمن الرحيم حتى بلغ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة
عاد وثمود فأمسكت فيه وناشدته الرحم ان يكف وقد علمت
أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب خفت ان ينزل بكم العذاب.
وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة— وكان زعيم قريش في
النصاحة— أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم اقرأ على فقرأ عليه
ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى النربى الى آخر
الآية قال أعد فأعاد صلى الله عليه وسلم فقال والله ابن له
حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمشر وإن أسفله لمغدق
وما يقول هذا بشراً ثم قال لقومه والله ما فيكم رجل أعلم
بالاشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بأشعار الجن والله ما يشبه
الذى يقول شيئاً من هذا وأنه ليعلمو وما يعلى. وروى عن رجل
من بنى سلمة قال لما أسلم فتيان بنى سلمة قال عمرو بن الجوح

لابنه أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل فقراً عليه: الحمد
 لله رب العالمين الى قوله الصراط المستقيم فقال ما أحسن هذا
 وأجمله! أو كل كلامه مثل هذا قال يا أبت واحسن من هذا.
 وقال بعضهم ان هذا القرآن لو وجد مكتوباً في مصحف في
 فلاة من الارض ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول
 السليمة أنه منزل من عند الله وان البشر لا قدرة لهم على
 تأليف مثل ذلك. وقد كان بودنا ان نوفي هذا الموضوع حقه
 ونشكلم على الدين الاسلامي وما حوى من حكم وآداب
 وفضائل ولكن اطلعنا على كلام في هذا الصدد وفي انتشار
 الاسلام لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده
 المصري مفتي الديار المصرية حالاً فآثرنا نقله برمته هنا اتماماً
 للفائدة فلتد اجد فيما قال جزاء الله عن الاسلام والمسلمين
 خيراً خصوصاً وفضيلته حجة في هذا الموضوع قال حفظه الله
 في رسالة التوحيد التي طبعها ما يأتي تحت عنوان القرآن
 جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تطرق اليه الريبة أن النبي صلى
 الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا

وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل
عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف
المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين الى اليوم .
كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال
الحاضرة والمستقبله نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل
التي ألحقها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها . حكى عن
الانبياء ما شاء الله ان يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم
وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به اهل دينهم المعتقدون برسالاتهم
أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما
خلطوا في أحكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم . وشرع
للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل
بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما
كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف
عنها أو البعد بها عن الروح الذي أودعته ففاقت بذلك جميع
الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الامم ثم جاء بعد
ذلك بحكم ومواظ وآداب تخشع لها القلوب وتمش لاستقبالها

العقول وتنصرف وراءها اللهم انصرافوا في السبيل الأهم .
 نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه
 أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وأنه
 الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وقرسان الخطاب
 وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج
 الفطنة والذكاء هو الغلب في القول والسبق الى إصابة مكان
 الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول وتفانيهم في
 المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة في بيانه . تواتر الخبر
 كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله
 عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبتها وبعيدها لا بطلاد دعواه
 وتكذيبه في الاخبار عن الله واثباتهم في ذلك على مبلغ
 استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزرة الملك على
 معاندته والامراء الذين يدعوه السلطان الى مناواته والخطباء
 والشعراء والكتاب الذين يشعخون بأنوفهم عن متابعتة وقد
 اشتد جميع أولئك في مقاومته وانهلوا بقواهم عليه استكباراً
 عن الخضوع له وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية

لعقائدهم وعقائد اسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آرائهم
 ويسفه احلامهم ويحتقر اصنامهم ويدعوهم الى ما لم تعهده
 أيامهم ولم تحقق مثله اعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله
 إلا تحديهم بالآتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو
 بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم ان يجمعوا اليه من
 العلماء والنصحاء البلغاء ما شاؤوا ليأتوا بشئ من مثل ما أتى به
 ليبتلوا الحجة ويفقدوا صاحب الدعوة! جاءنا الخبر المتواتر أنه
 مع طول زمن التحدى ولجاج التوم في التعدى أصيبوا
 بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا
 على كل كلام وقضى حكمه العلى على جميع الاحكام. أليس
 في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل
 برهان على أنه ليس من صنع البشر وإنما هو النور المنبعث عن
 شمس العالم الالهى والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان
 الرسول الامي صلوات الله عليه^(١) هذا وقد جاء في الكتاب

(١) مما يضحك التكللى ان يقوم من بين علماء الفرنج في هذه
 الايام مدع يجهل طبعاً حقيقة ما يقول يزعم ان القرآن غير فصيح

من أخبار الغيب ما صدّقه حوادث الكون كالخبر في قوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغالون في بضع سنين وكالوعد الصريح في قوله : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم... الآية وقد تحقّق جميع ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تحدّي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع ارجاءهم . ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرية عادة عن الاحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة

وانه لم ينزل بلغة العرب الفصحى ! ويقوم بكل تبجيج يخطب في مؤتمرات المستشرقين الذي انعقد في هذا العام — سنة ١٩٠٥ — ببلاد الجزائر . يمثل هذه الراجيف والاضاليل ولكن الله در مندوبى مصر فقد أوقفوه عند حده وردوا كيد في نحره .

كلامه العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا
أن يأتوا بشيء من مثل ما تحدّاهم به ليس قضاء بشرياً ومن
الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه
وشرط كالذي شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شيء
من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوّة مثل قوّته وإنما
ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد
أحاط عامه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهمضهم له
وبلوغ ما حشهم عليه . يقول واهم إن العجز حجة على من عجز
فإن العجز هي حجة الإخام وإلزام الخصم وقد يلزم الخصم
بعض المسلمات عنده فيفهم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة
ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما
سلمه فلا يفحّمه الدليل بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل وهو
وهم يضمحل بما قدّمناه من البيان إذ لا يوجد من المشابهة
بين إعجاز القرآن وإخام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما
عجز وشتان بين العجزين وبعد ما بين وجهتي الاستدلال
فيهما فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر

القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية
 لانه جاء بلسان عربى وقد عرف الكتاب عند جميع العرب
 فى عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال
 القوم فى العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه
 بشئ من مبلغ عتولهم فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً
 يبلغ من قوة البلاغة فى العربية ان يأتى بما عجز عنه العرب
 أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي
 وبينهم فى النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة
 دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر
 فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ما ورد
 فى القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع
 ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق
 تعداده من الامور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك
 الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على
 أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على
 العادة. فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب

الباقي الذي لا يعرض عليه التغير ولا يتناوله التبديل أن نبينا
 محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق
 برسالاته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه
 والاخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء في
 الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك
 بقى علينا ان نشير الى وظيفة الدين الاسلامي وما دعا
 اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة
 والسر في كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات
 الله عليهم اجمعين
 الدين الاسلامي أو الاسلام — هو الدين الذي
 جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته
 ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا
 خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع وإني
 مجمل في هذا الباب مقتدياً بالكتاب الحيد في التفويض لذوى
 البصائر أن يفضلوه وما سندی فيما أقول الا الكتاب والسنة
 القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله
وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على ان لا يكون
خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات
العالية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شيء
من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجودهم وأنهم له
واليه راجعون « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفواً أحد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين
والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب
ولم يشبهوها في شيء منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن
تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه
من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد
أن يسلطه عليه من الأعمال على سنة له في ذلك سنها في
علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير
وحظار على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك
إلا ببرهان ينتهي في مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من
البداهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تغلوه

كاستحالة الجمع بين التقيضين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب ان
الكل أعظم من الجزء مثلاً وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم
لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرراً وغاية أمرهم أنهم عباد
مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وتيسير
خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله
في شئ من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من
بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار
والافتدة لعلكم تشكرون » والشكر عند العرب معروف أنه
تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله دل بمثل هذا على
أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه
في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله
بنفسه لها أو عاينها وأما ما تتخير فيه مداركنا وتقرر دونه قوانا
وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدّها فيما أدركها
العجز عنه على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها وكان
لا بد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك انما

يردّ الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع الاله ولا أن تطمئن
إلا اليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه
في الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في
قبول أعمالها من الطيبات ولا في غفران أفاعيلها من السيئات
فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها
في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى
والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا
تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن المراكبات
السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة
من الاختلاف في المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان
وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع
لاحد إلاّ خالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين
وأبج لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم :
« انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض خيفاً
وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يقول « ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين
 لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »
 تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة واطلقت ارادته
 من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة
 بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية أو أنها هي كارادة
 الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما
 يظن في القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها
 وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنه والعرفاء
 وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلي حق الولاية على أعمال
 العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم
 الاشقاء والاسعاد وباجملة فقد اعتقت روحه من العبودية
 للمحتالين والدجالين وصار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة
 حرا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر
 على الحر لا على في الحق ولا وضع ولا سافل ولا رفيع ولا
 تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم
 في عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من

دنس الوهم وخلوص العمل والعوج والرياء ثم بهذا خلصت
 أموال الكاسيين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين
 والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة واهل البطالة ممن
 كان يزعم الحق فيها بصنفته ورتبته لا بعمله وخدمته
 طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل
 نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة
 خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وان ليس
 للانسان الا ما سمي » « وأباح لكل أحد أن يتناول من
 الطيبات ما شاء أكلاً وشراباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا
 ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما تعدى
 ضرره الى غيره وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق
 على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص في
 عمله واتسع المجال لتسابق المجهود في السعي حتى لم يعد لها عقبة
 تعثر بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به . انجى الاسلام على
 التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبددت فيالقه
 المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك

ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم صاح
 بالعقل صيحة أزعجته من ثباته وهبت به من نومة طال عليه
 الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه
 هينمة من سدنة هياكل الوهم «نم فان الليل حالك والطريق
 وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة» علا
 صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم
 يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام
 أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون
 ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح في وصف أهل
 الحق بأنهم «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»
 فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا
 بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على
 الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمررون وينهون
 ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتنحون
 من أعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتقنون
 لا بما يظنون ويتوهمون. صرف القلوب عن التعلق بما كان

عليه الالباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحق والسفاهة
على الآخذين بأقوال السابقين ونبه الى أن السبق في الزمان
ليس آية من آيات العرفان ولا مسمى لعقول على عقول ولا
لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق في التمييز والنظرة
سيان بل لللاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر
فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن
لمن تقدمه من اسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي
ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال
من سبقتهم وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما ارتكبه سلفهم
« قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »
وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت
كل شيء لن تضيق عن دائب . عاب أرباب الاديان في
اقتفاءهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم
وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على
أمة وانا على آثارهم مهتدون »
فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه

من كل تقليد كان استعبده وردّه الى مملكته يقضى فيها
 بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف
 عند شريعته ولا حدّ للعمل في منطقة حدودها ولا نهاية
 للنظر تمتدّ تحت بنودها . بهذا وما سبقه تمّ للانسان بمقتضى
 دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة
 واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعدّ لان
 يبلغ من السعادة ما هيا الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها
 وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدينة
 فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس
 للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف
 العدد الكثير انفسهم وأن لهم حقاً فى تصرف اختيارهم وفى
 طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان
 الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك
 الحكميم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف
 المحققين من أهله فى تلك الازمان . رفع الاسلام بكتابته
 المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول

المندسين في فهم الكتب السماوية استشاراً من أولئك الرؤساء
 بحق النهم لانفسهم وضنابه على كل من لم يلبس لباسهم ولم
 يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة
 أو أبا حوالهم أن يقرؤا قطعاً من تلك الكتب لئلا يكتن على
 شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه
 ثم غالوا في ذلك فخرموا انفسهم أيضاً مزينة النهم الا قليلاً
 ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات
 ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدًا بالاضوات
 والحروف فذهبوا بحكمة الارسل فجاء القرآن يلبسهم عارماً
 فعلوا فقال « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وإن
 هم الا يظنون » « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل
 الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله
 والله لا يهدي القوم الظالمين » أما الامانى فقسرت بالقراءات
 والتلاوات أى لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم
 على شئ مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على
 ما تخيلوه عتيقة وذنوه ديناً واذا عن لا حدهم أن يبين شيئاً

من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول
بما ليس منه على بينة واعتسف في التأويل وقال هذا من عند
الله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا
من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » أما الذين قال انهم لم يحملوا
التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا
منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من
الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها
وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق
عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يأتى بنفس بشرية
أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من
حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانهار النفس وما أشنع
شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سبباً فى إسماعهم وهو
التنزيل والشرعية أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والعبادة وبهذا
التفريع ونحوه وبال دعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب
للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الاسلام
على كل ذى دين ان يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه

وما قرّر من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء
الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور
الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا
يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع في الدين وإن كانوا إلا قليلا
في جانب عن اليقين يتنازرون ويتلاعنون ويزعمون في ذلك
أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتحالف وشغب يظنونها في
سبيل الله أقوى سبب انكر الاسلام ذلك كله وصرح
تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الازمان وعلى
السن جميع الانبياء واحد قال الله: «ان الدين عند الله الاسلام
وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم
بغياً بينهم» «ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن
كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» «شرع لكم من
الدين ما وصى به نوحا والذين أوحينا اليك وما وصينا به
ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر
على المشركين ما تدعوهم اليه» «قل يا أهل الكتاب تعالوا

الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به
شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا
اشهدوا بانا مسلمون » وكثير من ذلك يطول ايراده في
هذه الوريقات والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين
ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة
الحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن
وتلاوه حتى تلاوته . نص الكتاب على أن دين الله في جميع
الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية
وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصالحة للبشر وعماد
لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي انزلها على
المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى
العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع
اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذي توزن به
الاقوال عند التناصف وان الاجاج والمراء في الجدل فراق مع
الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكيمته ولو حظ جانب
العناية الالهية في الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت

القلوب الى هداها وسار الكافة في مرشدهم اخوانا بالحق
مستمسكين وعلى نصرته متعاونين . أما صور العبادات
وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة
سابقها مع لاحتها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها
فصدره رحمة الله ورأفته في ابناء كل أمة وكل زمان ما علم
فيه الخير للامة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهورب
العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه
لا يعلم شيئاً الى راشد في عقله كامل في نشأته يميز الحجب
بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته
ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان
في جملة ونوعه ان يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول
الخطاب من يوم خاته الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه
بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملة في النمو قائماً على ما
قرّره الفطرة الالهية في شأن افراده وهذا من البديهيات
التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف اهل النظر في بيان
ما تفرّع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشرى

خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا
جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة
في طور أشبه بطور الطفولية للناسي الحديث العهد بالوجود
لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع
الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعاني مالا
يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما
يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص
على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقي اليه فيما يصله بغيره
اللهم إلا يداً تصل الى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام
فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف
في الوجدان أو يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم
الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في
سداجة السن لا يأتيه الا من قبل ما يحسه بسمعته أو ببصره
فأخذتهم بالأوامر الصاعدة والزواجر الرادعة وطالبتهم
بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول
المعنى جلي الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى

حرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به
 مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .
 ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت
 وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من
 الايام آلاماً وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً ووجدت
 النفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعوراً أدق من
 الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به
 قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب
 العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الالهواء ويحادث خطرات
 القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن
 الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ويقتضى
 من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب
 السماء في وجوه الاغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف
 وسنّ للناس سنناً في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما
 دعاهم اليه فلاقي من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها
 وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت

العزائم البشرية عن احتمالها وضائق الذرائع عن الرقوف عند
حدوده والاخذ بأقواله ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه
ضرب من المحال فهبّ القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك
في السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال وانحرف
الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ما شاء
الحوى من الاباطيل هذا كان شأنهم في السجيا والاعمال
نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما في العقائد ففترقوا شيعاً
وأحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من
أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول
من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان والخطار على
الافكار أن تنفذ الى شئ من سرائر الخلقه فصرّحوا بأن
لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم
ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذوا به نفسه بل جدّ في
حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى
الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت اشأم النزعات على
العالم الانساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض

قضايا الدين فتقوّض الاصل ونخرمت العلائق بين الاهل
وخلت القلبية محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب
محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام
كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده
وأعدته الحوادث الماضية الى رشده . فجاء الاسلام يخاطب
العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس
فى إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخرية وبين
للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه
وبرهن على أن دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى
اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على
الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح وأن الله لا
ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف
برعاية جسده كما طالبه باصلاح سرّه فترض نظافة الظاهر
كما أوجب طهارة الباطن وعدّ كلا الامرين طهراً مطلوباً
وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما
هو لما أوجب من التطيع بصالح المالكات « ان الصلاة تنهى

عن الفحشاء والمنكر « ان الانسان خاق هلوفاً اذا مسه الشر جذوعاً واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين » ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته وان الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسمي في صلاح الدنيا . التفت الى أهل العناد فقال لهم : قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعموا من أصول اليقين ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجاداتهم بالتي هي أحسن ومن المعلوم ان المحاسنة هي رسول المحبة وعقد الالة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين

والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين
 ان يدافعوا عن من يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن
 أنفسهم ونص على ان لهم مالنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم
 جزاء ذلك الا زهيداً يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن
 كل إكراه في الدين وطيب قلوب المؤمنين في قوله: يا أيها
 الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم
 فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هي احسن وايس لهم ولا عليهم
 ان يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة في الحمل على
 الاسلام فان نوره جدير أن يخرق القلوب وليست الآية
 في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام
 به ولو أريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه »
 لا « عليكم انفسكم » كما هو ظاهر لكل عربي كل ذلك ليرشد
 الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن
 ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه . رفع الاسلام كل امتياز
 بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى
 الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس

والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعدّه الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأما تلك الارواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل واشباحاً. هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسموّ وجوده عن الاشياء وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الانحوت تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير أما الصوم فخرمان يعظم به أمر

الله في النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة
الاحسان الالهى في التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما
كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » أما أعمال الحج
فتذكير للانسان بأوليات حاجاته وتعهده له بتمثيل المساواة بين
أفراده ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقر
والصعلوك والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عرابة
الابدان متجردين عن آثار الصنعة وحدث بينهم العبودية لله
رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي
والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو
الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا
شئ من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الازعان
الكريم في كل عمل « الله اكبر » أين هذا كله مما تجدد في
عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص
السر للتنزيه والتوحيد . كشف الاسلام عن العقل غمة من
الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون
الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع

العالم انما يجري أمرها على السنن الالهية التي قدرها الله في
 علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا
 يجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغي أن يحى ذكره عند
 رؤيتها فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم «إن الشمس
 والتمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته
 فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» وفيه التصريح بأن جميع آيات
 الكون تجري على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية
 على السنن التي أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان
 في النعم التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التي
 يرزؤن بها ففصل بين الامرين فصلا لا مجال منه للخاط
 بينهما فاما النعم التي يتمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه
 الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه
 والقوة والبنين أو الفقر والضعف والضعف والنقد قد لا يكون
 كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة
 وعوج أو طاعة وعصيان وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة
 البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظارا

لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى
وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثى عليهم في
الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن
إخلاصهم في التسليم بقولهم : « إنا لله وإنا اليه راجعون »
فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد
عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم
إلخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب
على جارى العادة كارتباط الفتر بالاسراف والذل بالجبن
وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في
الاغاب والمكانة عند الناس بالسمي في مصالحهم على الاكثر
وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر. أما شأن الامم فليس
على ذلك فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية من
تصحيح الذكر وتسييد النظر وتأديب الاهواء وتحميد
مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابيه وطالب كل
رغبة من اسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون
على البر والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول

الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها
 في هذه الدنيا قبل الآخرة « من يرد ثواب الدنيا نؤته منها »
 وان يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها يزيد الله
 النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقتها ذهبت السعادة
 على أثره وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزرة القوم
 بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط
 عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون
 « واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق
 عليها القول فدمرناها تدميراً » أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى
 الباطل ثم لا ينفعهم الاين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما
 بقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف
 لما نزل بهم الا ان ياجئوا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه
 من سماء الرحمة برسول الفكر والذكر والصبر والشكر « ان
 الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سنة الله في
 الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » وما أجل ما
 قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم إنه لم ينزل

بلاء الابذنب ولم يرفع إلا بتوبة « على هذه السنن جرى
سلف الامة فيذما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد الساميه
ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجلية كان غيره يظن أنه
ينزل الارض بدعائه ويشق الفلك بكائه وهو ولع باهوائه
ماض في غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً. حث
القرآن على التعليم وإرشاد العامة والامر بالمعروف والنهي
عن المنكر فقال: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا
في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون»
ثم فرض ذلك في قوله: «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون
ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات
وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه
فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتكم بعد ایمانكم فذوقوا
العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي
رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق
وما الله يريد ظلماً للعالمين ولله ما في السموات وما في الارض

والى الله ترجع الامور» ثم بعد هذا الوعيد الذى يزجج
المفرطين وتحق به كلمة العذاب على المختلئين والمتصرين أبرز
حال الامارين بالمعروف والنهي عن المنكر فى أجل مظهر
يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال: كنتم خير أمة أخرجت
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»
فقدّم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان
فى هذه الآية مع ان الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه
أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريعاً لتلك
الفريضة واعلاء منزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على أنها حناظ
الايمان وملاك أمره ثم شدّ بالانكار على قوم أغفلوها وأهل
دين أهملوها فقال: «لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على
لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»
فتمذّب عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مآثمه وغضبه
فرض الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء حقاً معلوماً يفيض
به الآخرون على الاولين سدّاً لحاجة المعدم وتفرجاً لكربة

الغارم وتحرير الرقاب المستعبدين وتيسيراً لآبناء السبيل ولم
 يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير
 وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط
 المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحض صدورهم من
 الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق وأشعر قلوب
 أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك
 البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين
 وأى دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا « ذلك فضل
 الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . أغلق الاسلام
 بابى الشر وسدّ ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الحمر
 والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه لم يدع الاسلام بعد
 ما قرّرنا أصلاً من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أمماً من
 أممات الصالحات الا أحيّاها ولا قاعدة من قواعد النظام الا
 قرّرها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية
 الفكر واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجاي واستقامة
 الطبع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها في سبيل

السمى ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً
لا ينفذ وذخيرة لا تفتنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال
العقل والابة كلا قد تين الرشد من انى ولم يبق الا اتباع
الهدى والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من
السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم
وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته
السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان
العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة
يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه
بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب « ما كان محمد أباً أحد من
رجالكم واسكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل
شئ علماً »

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ
كانت حاجة الأمم الى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة
خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندesh عقل الناظر في
أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامّة

العربية من أدناها الى اقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم
يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين في
أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك
ضل الكثير في بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل
العجب . ابتداء هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى
من أعداء أنفسهم اشد ما يلقى حق من باطل أوذى الداعى
صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان
يصيب تدليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيون
له وحرموا الرزق وطاردوا من الدار وسفكت منهم دماء
غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من
صخور يثبت الله بمشهدها المستيتين ويقذف بها الرعب في
انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب
وهى ذوب ما فسد من طبائعهم فتجرى من مناخرهم جرى
الدم الفاسد من المقصود على أيدي الاطباء الحاذقين « ليمز
الله الخليث من الطيب ويجعل الخليث بعضه على بعض فيركه
جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » تأملت الملل

المختلطة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام
ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع
الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا انه الحق
بين الباطيل والرشد في ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة
وتعزز بالمنعة وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان آخر
كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا
الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم
السبي نجاحاً ولا أنا لهم التهم فلاحاً . ضم الاسلام سكان
القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير
في ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته
بأمر به الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان
فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشروأخافوا السابلة وضيعوا
على المتاجر فبعث اليهم البعوث في حياته وجرى على سنته
الأئمة من صحابته طلباً للامن وابلاغاً للدعوة فاندفعوا في ضعفهم
وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانها لوا به على تلك الامم في
قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبتها وعددها فظفروا

منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر
 السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم
 البقاء على أديانهم واقامة شعائرهم آمنين مطمئنين ونشروا
 حياتهم عليهم يمنعوهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم وفرضوا
 عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة
 كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحو مملكة اتبعوا جيشها
 الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم
 ويعشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة
 وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في
 تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة
 ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعده
 على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون
 بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة وشهد العالم بأسره
 أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا عند ما
 كان يعدها الأروبيون ضعة وضعفا . رفع الاسلام ما ثقل
 من الاتاوت ورد الأموال المسلوقة الى أربابها وانزع

الحقوق من مقتصبها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد ان لا يقبل اسلام من دخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد انه أسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره عملهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة . عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أورپا فراراً منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها . هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملة لهم لمن أظاؤهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم

بدعوة ولم يستعملوا الا كراههم عليه شيئاً من القوة وما كان
 من الجزية لم يكن مما يشغل أداؤه على من ضربت عليه فما
 الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام واقنعهم أنه
 الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا في
 خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم . ظهور الاسلام على ما
 كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه
 على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره
 بسكانها على الجادة القويمية حقق لقراء الكتب الالهية السابقة
 أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وأن هذا الدين
 هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل
 النصفة منهم سبيلاً الى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه
 شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين . اوقع ذلك
 من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه
 فوجدوا لطفاً ورحمة وخيراً ولنعمة لا عقيدة ينفر منها العقل
 وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله
 الطبيعة البشرية وهي التفاضلية في قبول المصالح والمراق . رأوا

ان الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها
عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها إلى إحياء
ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك لا يمنع
من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة
ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه
حتى في توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة
فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره
متى حسنت التوبة وكملت الاوبة. تبدت لهم سداجة الدين عند
ما قرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حاملية اليهم
وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر
في الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه
كانت الأئم تطالب عقلاً في دين فوافها وتطلع الى عدل
في ايمان فأثابها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها
والمبادرة الى رغبتها كانت الشعوب تنب من ضروب الامتياز
التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من
حكمها ان لا يقام وزن لشؤون الادنين متى عرضت دونها

شهوات الاعلى فناء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع
 الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوع
 لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة
 لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريد لنفسه
 ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع
 اضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برده
 بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه. عدل يسمح يهودى
 ان يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم
 من هو ويستوقفه معه للتقاضى الى ان قضى الحق بينهما!! هذا
 وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حبه الى من كانوا
 اعداءه وردّ اليه اهواءهم حتى صاروا انصاره واولياءه. غلب
 على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم
 العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة
 لمن خالفهم الا بعد ان يجر جهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن
 سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت
 اسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين

والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم
له وسفى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام
فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى افريقيا ولم يخل
زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ
بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف وراءها ولا داعى
أمامها وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من
حركة الفكر فى العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار
الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما
كان لسهولة تعلقه ويسر أحكامه وعدالة شريعته وباجللة لان
فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أفس بمصالحها وأقرب
الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة
ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً
بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات
الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبال لاسقاط
النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام فى سداجته الاولى
وطهارته التى أنشأ الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها

في بعض أطراف الارض الى اليوم. قال من لم يفهم ما قدمناه
 أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه
 السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن
 باحدى اليدين والسيف بالآخرى يعرضون القرآن على المغلوب
 فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته! سبحانه هذاهتان
 عظيم!! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت
 سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة
 في جملته وان وقع اختلاف في تفصيله وانما شهر المسلمون
 سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح
 بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم
 الا أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام
 وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .
 لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب للاكراه على
 الدين والالزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من
 سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلغ القوة
 أسمى درجة كانت تمكن لها وابتداءً ذلك العمل قبل ظهور

الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمرّ في شدّته بعد مجيء
 الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ
 فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من
 قرن !! هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدّم
 خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤون تحت حمايته
 مع غيره تفيض من الافئدة وفصاحة تدفق عن اللسنة
 وأموال تخلق الباب المستضعفين! أن في ذلك لآيات للمستيقنين!
 جلت حكمة الله في أمر هذا الدين ساسبيل حياة نبع في
 القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدينة فاض حتى شملها تجمع
 شملها فأحيّاها حياة شعبية مليّة. علامدّه حتى استغرق ممالك
 كانت تفاخر أهل السماء في رفعها وتعلو أهل الارض
 بمدنيّتها. زلزل هديره على لينه ما كان استعجر من الأرواح
 فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها. قالوا كان لا يخلو من
 غلب «بالتحريك» قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة
 بين الحق والباطل والرشد والني قائمة في هذا العالم الى أن
 تقضى الله قضاءه فيه. اذا ساق الله ربيعاً الى أرض جذبة ليحيي

ميتها وينقع غلتها وينى الخصب فيها أفينقص من قدره ان
 أتى فى طريقه على عتبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهو به ؟
 سطع الاسلام على الديار التى بلنهما أهله فلم يكن بين أهل تلك
 الديار وبينه الا أن يسموا كلام الله ويفقهوه . اشتغل المسلمون
 بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف
 وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ما وراء الكن
 الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتاريقودها
 جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا
 لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا
 الاسلام ديناً وحملوه الى أتوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم ! جاؤا
 لشقتوتهم فعاجوا بسعادتهم . ! حمل الغرب على الشرق حملة
 واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا
 اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين
 أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية
 للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من
 القوة ما بلغت طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم

بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد
الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها . لم
جاؤا وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب بأثرة شعوبهم
ليبيدوا ما يشاؤون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك
الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه
من البلاد الاسلامية . جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة
والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدّروه
بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين
وكانت قنارات تنطفئ فيها نار الغضب وثوب العقول الى
سكينتها تنظر في أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين
وتفعل بما ترى وما تسمع فتبينت أن المبالغات التي أطاشت
الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت
حرية في دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال في يقين وتعلمت
أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي
عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها
ريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار

من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها
 ثم عادوا به الى شعوبهم ليندبقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت
 الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين
 الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزع عت العزائم
 الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا
 فيه وصاياه وحرفوا في معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من
 الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع
 بالدين الى سذاجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن
 الاسلام الا قليلاً بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في
 العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة
 محمد صلى الله عليه وأن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً
 ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لا غير . ثم أخذت أمم
 أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤونها حتى استقامت
 أمور دنيائها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدتها
 لاهية عن مرشدتها وتقررت أصول المدينة الحاضرة التي
 تتفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقتها من أهل الازمان الغابرة !

هذا ظل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت
 من كل زوج بهيج جاء. القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا.
 ظن الرؤساء ان في إهاجة شعوبهم شفاء ضعفهم وتقوية
 ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضة سلطانهم. وما بيناه في
 شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير
 من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان
 أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

(غنية)

وقع غلط مطبعي في صحيفة ١٧٤ من هذا الكتاب فقد جاء في السطر
 الثامن منها ان نهاية مدة تولى ابرهة سنة ٥٨٩ والصحيح ٥٧١ وكذلك
 يجب التنويه بأنه اختلف في زمن ولاية يكسوم فالبعض جعلها كما هو مذکور
 بالصحيفة المذكورة في السطر الخامس عشر منها والبعض — واطنه الارجح —
 جعله قبل ذلك بدليل ما جاء في مروج الذهب من أن آخر ولاية الحبشة على
 اليمين هو مسروق اخو يكسوم وقد قتله وهرز الديلمي الذي جاء مع ابن
 ذي يزن من عند كسرى انوشروان لخمس واربعين سنة من حكم انوشروان
 وذلك يوافق سنة ١٥٧٥ . والله تعالى أعلم .

فهرست الجزء الاول

من كتاب تاريخ دول العرب والاسلام

- صحيفة
- ١١ حدود بلاد العرب
- ١٢ مواطن العرب وحاصلات بلادهم ومناخها
- ٢١ مساحه جزيرة العرب وعدد سكانها
- ٢٢ تشوف الافرنج الى بلاد العرب وذكر أشهر سياحيهم بها
- ﴿ الباب الاول ﴾
- الفصل الاول
- ٤١ فيما كان عليه العرب قبل الاسلام
- ٤١ نسب العرب وطبقاتهم
- ٤٣ طبائع العرب وأحوالهم وصفاتهم وبعض عاداتهم
- ٦٦ أقضية العرب وترتيب حكوماتهم
- ٧٠ أحكام العرب في الجاهلية
- ٧١ حروب العرب وتعرف بأيام العرب

صحيفة

- ٧٤ الزواج والطلاق في الجاهلية
- ٧٧ تقويم العرب في الجاهلية
- ٨٣ خرافات العرب ومعتقداتهم
- ٨٥ معتقدات العرب وديانتهم
- ٩٠ في لغة العرب وآدابهم وأشعارهم وشعرائهم وأسواقهم
- ١٠١ شعراء العرب والمعلقات السبع
- ١١٥ علوم العرب ومعارفهم
- ١٢٣ في الكتابة عند العرب
- ١٣١ صناعة العرب في الجاهلية
- ١٣٢ التجارة في الجاهلية
- ١٣٤ نقود العرب ومسكوكاتهم وموازنهم
- (الفصل الثاني)
- ١٣٨ طبقة العرب البائدة
- ١٤٠ قوم عاد
- ١٤٣ قوم ثمود

١٤٦ قوم طسم وجديس الباب الثالث من ٨٢٢

١٥٢ ذكر بعض من قبائل أخرى بأداة

(الفصل الثالث)

(طبقة العرب الباقية)

العرب المتعربين باب ٥٢٢

١٥٤ تمهيد

١٥٥ ملوك اليمن قبل سيل العرم باب ٨٢٢

١٦٢ مملكة اليمن بعد السيل باب ٨٢٢

١٧٠ استيلاء الحبشة على اليمن

١٧٣ ملوك الحبشة على اليمن من سنة ٥٢٩ لسنة ٦٠١ مسيحية

١٧٤ استيلاء الفرس على اليمن باب ٨٢٢

١٧٨ مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ الى سنة

٦٣٤ مسيحية

٢٠٧ ملوك متفرقون في جزيرة العرب

٢٠٧ ملوك كندة



صحيفة

٢١٨ ومن ملوك العرب المتفرقين أيضاً

٢٥١ ﴿ الفصل الرابع ﴾

(طبقة العرب الباقية)

العرب المستعربة

٢٢٥ أسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة ومصاهيرته

٢٥١ لبنى جرهم

٢٢٨ عمارة البيت الحرام بمكة

٢٢٩ أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة الكعبة وفضل

قريش على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها

٢٣٣ اغارة الحبشة على مكة وواقعة الفيل

٢٣٧ مولده صلى الله عليه وسلم ونسبه ورضاعه ونشأته

٢٤١ وتربيته وحالته وسيرته لحين بعثته

٢٥٠ مجمل أحوال العالم في ذلك العهد

٧٠٢ ﴿ الباب الثاني ﴾

٧٠٢ (في العرب بعد الاسلام)



(الفصل الاول)

- ٢٥٤ الوحي وابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام
 ٢٥٩ أذى قريش للنبي ولأصحابه والهجرة للحبشة
 ٢٦١ اشتداد الاذى بالرسول وأصحابه
 ٢٧٠ الهجرة للمدينة والانصار والمهاجرون
 ٢٨٢ غزواته عليه السلام
 ٣١٠ دعوته الملوك والامراء للاسلام
 ٣١٢ حجة الوداع وخطبتها
 ٣١٥ وفاته عليه السلام
 ٣٢٠ سيرته عليه السلام بعد بعثته لحين وفاته

الفصل الثاني

- ٣٢٥ القرآن وكونه معجزاً
 ٣٣٦ الدين الاسلامي أو الاسلام
 ٣٦٤ انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

..105.